مبارك بن محمد الميلي

تاريخ الجزائر في القديم والحديث

تقديم وتصحيح
محمد الميلي

الجزء الأول

المؤسسة الوطنية للكتاب

مبارك بن محمد الميلي
تاريخ الجزائر في القديم والحديث
1
المؤسسة الوطنية للكتاب

تاريخ الجزائر
في
القديم والحديث

مبارك بن محمد الميلي

تاريخ الجزائر في القديم والحديث

تقديم وتصحيح

محمد الميلي

الجزء الأول

المؤسسة الوطنية للكتاب
ENTREPRISE NATIONALE DU LIVRE

إهداء الكتاب

اذا كـــان المتقدمون يهدون للملوك أعصارهم نتائج قرائحهم فذلك لأنهم في أزمنة لا ظل فيها لارادة الامة .

اما اليوم ونحن في عصر عمت فيه الديموقراطية كل الشعوب أو كادت وعرفت الشعوب ان ارادة الحاكم انما تتقوى من جبنهم وجمودهم ، وأن الارادة الحقيقية التي بيدها رفع مستوى الأمم هي ارادة الشعب فقد صار الكتاب يهدون كتبهم لشعبهم او لعظيم من عظمائه هو رمز عظمة ذلك الشعب .

ونحن نهدي كتابنا هذا الى الشعب الجزائري الى شبابه المفكر ورجاله العاملين المخلصين .

مبارك بن محمد الميلي

اسداء شكر

لا أكون غير معترف بجميل يحتمه علي إخلاصي في هذا التأليف اذا ما نوهت بشأن من لم أعرف منهم غير النشاط النادر والعزم الفولاذي في مؤازرتي في هـذا العمل الذي فيـه بلاغ للشبيبة عن وطنيتهم •

وما جئت بدعا اذا ما ذكرت باعجاب ما شاهدت منهم أثناء قيامهم بما نيط بعهدتهم بغبطة وسرور • على ان الشقة شاقة والمرتقى صعب •

أولئك هم الذين اذكر منهم — وملء فمي الفخر بهم — الشبان العاملين الاصدقاء : عيسى الزهار الترجمان بالاغواط ، محمد التهامي الترجمان بميلة ، عمر دهينة أحد المعلمين بالمكاتب الفرنسيةوأفذاذ نبغاء الرسامين •

هؤلاء هم الذين لهم من اليد في معاضدتي ما يشكرهم عليهـا الفن والعلم والتاريخ والوطن •

مبارك بن محمد الميلي

رسالة من الأستاذ عبد الحميد بن باديس إلى المؤلف

اذا كان الكثير من الكتاب مولعين بطلب تقريظ كتبهم من اخوانهم لحمل عوام القراء على استحسانها فاني في صف القليل منهم الذين يكلون الى القارىء الحكم فيما قدموه له من غير شرط عالية ولا انصاف. فلكل ان يقول فيما كتبناه ما شاء . والايام هي التي ستنخل ما يقولون ، وتميز جيد القول من رديئه .

واذا كان علماء كل امة هم المكونين لتاريخها فالواجب ان لا نهمل نظرانهم فيما هو من نتائج حياة امثالهم . وكتابنا هذا من نتائج حياة علماء الامتين العربية والبربرية فلا غرو اذ أثبتنا نظرة عظيم من عظماء جيلنا فيه مع تمسكنا بمبدأنا في التقاريظ .

كتب الينا الاستاذ الجليل عبد الحميد بن باديس احد شيوخنا وزعيم نهضتنا بنظرة في كتابنا . وهذا نص رسالته :

الحمد لله «حصن الماء» مساء الثلاثاء 1347/1/15

اخي مبارك !

سلام ورحمة ، حياك الله تحية من علم وعمل وعلم ، وقفت على الجزء الاول من كتابك « تاريخ الجزائر في القديم والحديث » فقلت لو سميته « حياة الجزائر » لكان بذلك خليقا . فهو اول كتاب صور

الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سوية ، بعد ما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهنالك • وقد نفخت في تلك الصورة من روح ايمانك الديني والوطني ما سيبقيها حية على وجه الدهر ، تحفظ اسمك تاجا لها في سماء العلا ، وتخطه بيمينها في كتاب الخالدين •

اخي مبارك !

اذا كان من أحيا نفسا واحدة فكأنما أحيا الناس جميعا ، فكيف من أحيا أمة كاملة ؟ احيا ماضيها وحاضرها ، وحياتهما عند ابنائها حياة مستقبلها • فليس — والله — كفاء عملك ان تشكرك الافراد ، ولكن كفاءه ان تشكرك الاجيال • واذا كان هذا في الجيل المعاصر قليلا ، فسيكون في الاجيال الغابرة كثيرا • وتلك سنة الله في عظماء الامم ونوابغها ، ولن تجد لسنة الله تبديلا •

وانا — واحدا من هذا الجيل — بلسان من يشعرون شعوري ، اشكرك لأقوم بما علينا من واجب ، لا لأقابل ما لك من حق •

جازاك الله خير ما جازى به العاملين المخلصين للدين والوطن بعلم وتحقيق وانصاف • والسلام عليك من أخيـــك •

عبد الحميد بن باديس

الجزء الأول بين يدي الأمير شكيب ارسلان

اتصل امير البيان وراس الشرق المفكر الامير شكيب ارسلان بالجزء الاول فكتب الى صديقنا الشيخ الطيب العقبي رسالة جاء فيها قوله عن ذلك الجزء :

« واما تاريخ الجزائر فوالله ما كنت أظن في الجزائر من يفري هذا الفري • ولقد اعجبت به كثيرا كما اني معجب بكتابة ابن باديس • فالميلي وابن باديس والعقبي والزاهري حمـلة عرش الادب الجزائري الاربعة » •

شكر واعتذار

لا شيء أشق على الكاتب العربي من كتابة التاريخ على النهج العصري • ولا تاريخ اغمض واقل مادة لدى القارىء العربي من تاريخ الجزائر • ولا كتب اكثر تحريفا من الكتب العربية المؤلفة فيه • وعلى نسبة أهمية تاريخ ابن خلدون كان حظه من التحريف حتى ذهبت ثقة القارىء بما فيه من اعلام الناس والامكنة •

وقد قاسيت في تصحيح الاعلام وجمع المواد وايضاح الاغراض التاريخية وتقريب الاسلوب من النهج العصري ما لا يعلمه الا من عمل عملي وكان مثلي جاهلا بغير العربية بعيدا عن العواصم العلمية منهوك الوقت بالاشغال • ولست — علم الله — أمن بهاتيك المقاساة ، وانما اريد الاعتذار للقراء والادباء عن تأخر نشر هذا الجزء الثاني وعمـا عسى ان يكون به من نقص علمي او فني •

وكلما اجملت لهم اعتذاري اجمل شكري لمن امدني منهم باعارة كتاب او دلني عليه • وأخص منهم بالذكر الشابين الاديبين المخلصين صديقي أحمد توفيق المدني وعمرو دهينة حامل شهادتي التعليم بالمكاتب الفرنسية والترجمة بالمحاكم الشرعية • فقد عربا لي فصولا من الفرنسية وبذلا في اعانتي كل ما في استطاعتهما الادبية • جازاهما الله احسن الجزاء وذكرهما الجيل المستقبل بوافر الثناء •

الاغواط في 1359/2/1

مبارك بن محمد الميلي

مقدمة الطبعة

طُلِبَ الي أن أكتب مقدمة الطبعة الجديدة لكتاب «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» الذي ألفه والدي الشيخ مبارك الميلي منذ أكثر من نصف قرن .

وقد صادف أن تلقيت منذ أيام ، في هذا الشهر أفريل 1986 ، رسالة من وزارة الشؤون الدينية طلبت فيها الي أن اكتب ترجمة لوالدي .

ونفس الاقتراح سمعته منذ شهرين ، من أحد تلامذة الشيخ عبد الحميد بن باديس .

تساءلت : كيف لم أفكر في مثل هذا الموضوع قبل اليوم ؟ أليس ذلك واجبا كان يتحتم علي أن اضطلع به قبل هذا الوقت ؟

الواقع أن الفكرة راودتني قبل سنوات . لكني أحجمت عن تنفيذها لسببين رئيسيين : الأول اني متيقن ان هناك غيري ، من يستطيع ان يكتب مقدمة لكتاب «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» أكثر موضوعية وأدق تحليلا . والثاني أن كتابات الشيخ مبارك نفسها تقدم مادة خصبة لمن يريد الكتابة عنه ، قد تغني عن اللجوء الى الذكريات الشخصية والمعلومات الخاصة .

لكني أعدت النظر في هذا الموقف على ضوء الطلبات التي صدرت الي من جهات متعددة ومتباعدة وفي أوقات متقاربة . خصوصا وان هناك جوانب من شخصيته قد لايستطيع غيرى أن يعرف بها .

صحيح انه توفي ، رحمه الله ، ولم أكن قد تجاوزت مرحلة التعليم المتوسط . لكني استطعت ان اختزن ذكريات تلقي بعض الضوء على شخصيته ، سواء بحكم معاشرتي له ، أو بحكم الأوراق والرسائل الخاصة التي اطلعت عليها بعد وفاته ، والتي كان يحتفظ بها في مكتب له كانت تتصدره صور جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ومحمد نصيف .

وقد أتيح لي ، خلال السنوات القليلة التي عشتها جنبه بعد أن أصبحت واعيا بأهمية بعض الاحداث ، ان أختزن في الذاكرة بعض تصرفاته ومواقفه وتعليقاته .

وعلى الرغم من الصورة المهيبة التي كانت تفرض نفسها على من يقترب منه ، وعلى الصرامة التي اشتهر بها ، فقد كان يتوفر على جانب يطفح بالمحبة والمرح والفكاهة .

وقد كان مشهد تحلقنا حوله ، أمي ، اخوتي وأنا ، في ليالي الشتاء قرب مدفأة يشتعل فيها الحطب ، بغرفة نومه ، من بين المشاهد التي رسخت في الذاكرة ، مثلها في ذلك مثل حلقات تدريسه لنا في «مدرسة حياة الشباب» أو املاآته الأدبية علي ، عندما كان يتولى تدريسي في البيت بعد وقوع حادث معين ، لا بأس من ان اسوقه في هذا المجال لأنه يكشف عن جانب من شخصيته .

كان بعد ان اشتد عليه مرض السكر ، قد توقف عن القاء الدروس على تلاميذ المدرسة ، وان كان قد استمر في اعطاء الدروس المسجدية ليلا ، وفي إلقاء محاضرات عصرا في النادي حتى يشمل بدعوته الشباب الذي لم يكن يتردد على المسجد .

وقد خطر لي ذات يوم ، وقد شعرت ان مستوى التعليم في المدرسة لم يعد يلبي حاجتي ، ان اطلب منه ان يعطيني دروسا في اللغة والأدب والنحو . فكان جوابه :

ـ لا استطيع ان اخصك بدروس دون رفاقك .

قلت له : فليكن . لماذا لا تعطي دروسا لكل الذين بلغوا المستوى الذي بلغته .

وكذلك كان . خصص لنا ساعة كل يوم ، من السابعة صباحا الى الثامنة . كنا حوالي عشرة . وكان على مرضه يحرص على عدم التخلف عن القاء ذلك الدرس . وكان الجميع يحضرون طالما كان الوقت صيفا أو خريفا . حتى اذا دهم الشتاء راح عدد الحاضرين . على قلتهم ينقص . حتى انه لم يجد ذات يوم ، في القاعة سواي .

غضب . كان مرض السكر قد جعله شديد الانفعال . لم يلق ذلك اليوم درسه وقال لي : أخبر زملاءك انهم اذا لم يحضروا من الغد ، فلن يسمعوا مني درسا بعدها .

وأبلغتهم . ومن الغد لم يحضر أي أحد منهم . آنذاك قرر أن يخصني بالتدريس لكن في المنزل .

كان تحلقنا حوله في السهرة حول المدفأة هي الفترة الوحيدة التي نجتمع فيها اليه فنحن لم نكن نأكل معه . لأن اصابته بداء السكر منذ سنوات شبابه كانت تفرض عليه نظاما خاصا للأكل ، ومن هنا كان يتجنب الجلوس الى مائدتنا خشية ان تمتد يده للمحرمات عليه بسبب المرض . وهذا في الوقت الذي كنت أتصور فيه انه محظوظ بفعل نظام أكله الخاص : فقد كان منظر الخبز الخاص الذي يشتريه من قسنطينة في علب كارتون كبيرة ، والمصنوع من مادة الغلوتان فقط ، يسيل لعابي .

أما في السهرات الشتوية فقد كان يقاسمنا أحيانا أكل البرتقال والجوز . وكانت اجراءات تكسير الجوز وتقشير البرتقال التي تتولاها أمي غالبا من بين الطقوس التي نحرص على حضورها . وكنت اتعجب كيف يفضل أبي أكل البرتقال الحامض ، في الوقت الذي كنا فيه نحن الصغار نتنازع صنفا من البرتقال الحلو ، لم أعد أجد له أثرا في الاسواق اليوم .

وكان استهلاك الأسرة للجوز عاليا : فهو زيادة عن سهرات الشتاء يستعمل في صنع الحلويات ، لأن وجود بعض أصناف الحلوى كان ضروريا على مدار السنة وليس في الاعياد فقط ، فلم

يكن يصح أن يأتي زائر على حين بغتة دون ان يكون في وسع أمي ان تقدم له بعض الحلويات .

لهذا كان والدي يشتري الجوز بكميات كبيرة من مصدرين أساسيين : من أحد الاسواق القريبة ، التي تغذيها بعض مناطق فرجيوة ، ومن الاوراس الذي كان يزود أسواق باتنة وخنشلة .

أذكر أن منظر جوزة بيضاء ، قشرتها ناصعة ، استهواه ذات ليلة ، فأصر على ان يكسرها بنفسه ، وكم كانت دهشته ودهشتنا أيضا ـ عندما وجد بداخلها كتلة سوداء لا تشبه لب الجوز من بعيد ولا من قريب .

ـ أعوذ بالله . . هذه الجوزة مثل المنافق .

كان تعليقه . وضحكت أمي لتعليقه . وضحكت معجبا ببداهة التعليق ودقة التشبيه .

وقد أتيح لي ان اكتشف جانبا من جوانب شخصيته وأنا بعد طفل ، وهو جانب المربي ، فهو لم يكن يستعمل الشدة معي الا حيث تكون لازمة، أي عندما يتعلق الأمر بشيء، لا يمكن التساهل فيه، مثل ترك الصلاة . آنذاك لا يتردد في انزال شديد العقاب بي ، لا يشفع في ذلك حبه الشديد لابنه ـ كما سنرى ـ ولا تدخل والدتي أو جدتي .

أذكر أنه كان ذات صيف يستعد للسفر الى مسقط رأسه في الجبل ، وكنت شديد الشوق الى مرافقته في تلك السفرة ، فطلبت منه ان يأذن لي بأن أذهب معه . قال لي ما معناه : أنت مخطىء ان كنت تتصور ان «أولاد مبارك» مثل قسنطينة أو مدينة الجزائر . قلت أريد أن أسافر مهما تكن «أولاد مبارك» كان ذلك في صيف 1939 . ونزل عند رغبتي .

كانت فرحتي كبيرة . فلم يكن في حياتنا بالقرية ، نحن أطفال ذلك العهد ما يثير . كانت منازل القرية التي يوجد بها «راديو» لا تتجاوز ثلاثة ، منها منزلنا . وكان هناك مقهى واحد له راديو بالاضافة الى النادي . وكان السفر بالنسبة للاطفال آنذاك حدثا

سعيدا يشغل حيزا كبيرا من وقتنا عندما يتقرر مشروعا ، ونظل نحكي عنه بعد تحقيقه عدة أسابيع من خلال روايات يتدخل فيها الخيال غالبا .

لكن حدث عشية السفر حادث غريب .

كان والدي ، أثناء سفره للإستشفاء من داء السكر في فرنسا حيث عالج في فيشي وباريس عام 1938 ، قد استصحب معه دليلا مفصلا لمدينة باريس .

كانت مكتبته منظمة تنظيما دقيقا ، بحيث كان يعرف موقع كل كتاب وصفه وترتيبه . وكنت مغرما بتصفح الكتب حتى ولو لم أكن أفهم ما فيها . وكنت أحرص على اعادتها الى مكانها حتى لا يعرف أني استعملتها .

قبل يومين من السفر ، عثرت على دليل باريس . أعجبت بما فيه من صور ومعالم ، فحملته الى المدرسة حتى أريه لزملائي وأزهو عليهم .

طلب مني أحد الزملاء أن أعيره اياه مقابل أن يعيرني هو مركبة خشبية تسير بـ «الرولما» كما كنا نقول ، ونقصد بذلك عجلات معدنية صغيرة .

وحدث ان والد زميلي عثر على الدليل عنده فسأله من أين جاءه ، فأخبره بالحقيقة . فما كان من أبيه الا ان أخذه منه وأتى به الى خالي حتى يعيده الى والدي . وأعاده بالفعل عشية السفر .

وصادف أني رأيت الدليل وقد احتل مكانه ، صعقت . كان والدي قد أرجعه حيث كان دون ان يفاتحني في الموضوع . قلت في نفسي: لقد افتضح الأمر. ورحت أتصور صدور العقوبة الصارمة ممثلة في ضرب مبرح ، كذلك الذي ينالني عند التخلف عن الصلاة ، مع الغاء سفري .

لكن شيئا من ذلك لم يحدث . لم يظهر على أبي أي تصرف يدل على أنه عرف بما حدث . لم تصدر عنه أية ملاحظة . كان تصرفه معي عاديا . تعجبت ولم أستفهمه .

وسافرت معه من الغد ، وكانت سفرة من أحلى السفرات التي رسخت في ذاكرتي . دامت حوالي عشرة أيام . تمتعت فيها بركوب البغال ، فقد كانت هي وسيلتنا الوحيدة لنقلنا في بعض أشواط الرحلة . وأتيح لي أن أشهد بعض عادات البادية مثل ذبح خروف أو كبش للضيف ولو وصل في ساعة متأخرة من الليل .

بعد ان عدنا الى ميلة ، ناداني من الغد . وبعد أن آذن لي بالجلوس راح يحكي لي ظروف اكتشافه لاختفاء الدليل ، ثم قال لي ما معناه :

ـ لم أرد أن ألاحظ لك شيئا حتى لا أنغص عليك السفر ، ولا الغي وعدا قعطته لك . وها أنا ذا الآن أعتبرك كبيرا تتعظ بالكلام ، ولم تعد بحاجة الى الضرب . فلا تعد لمثلها .

وقد أتيح لي بعد ذلك أن أعيش مشهدا يدل على مدى تقديره للوعد المقطوع . كان يسافر الى قسنطينة في الصباح ويرجع في المساء ، أحيانا وقد رأى ان يستصحبني في احدى هذه السفرات اليومية مع اعلامي بأننا سبرجع في نفس اليوم . قبلت رغم ان بعض يوم لم يكن ليشبع نهمي الى المدينة . الا أنه عند الوصول وجد الشيخ العربي التبسي بقسنطينة ، فغير برنامجه وقرر أن يقضي بها ثلاثة أيام . ناداني أمام صديقه وقال لي ما معناه :

لقد قلت لك اننا سنرجع في نفس اليوم . لكني اضطررت الى ان امكث مدة أطول . فان كنت تريد البقاء فليكن ، وان كنت رتبت امرك على العودة اليوم ، فاعلمني حتى أرسلك مع أحد المسافرين الى ميلة .

وعلى ذكر جانب المربي فيه أذكر أني قرأت فيما قرأت من رسائله التي كان يحتفظ منها بنسخة لديه (والتي ضاع معضمها مع الأسف) رسالة كان وجهها الى الشيخ العربي الذي كان قد طلب منه ان يطلعه على أسلوبه في معاملة التلاميذ (فقد كان والدي قد شرع في التدريس بالاغواط ، قبل ان يلتحق الشيخ العربي ببلدة سيف التي كانت أول بلدة تولى التدريس فيها للتلاميذ) فكتب له والدي رسالة

حفظت منها هذا المقطع .
«اذا وعدت فأنجز . واذا أوعدت فتغافل . وان ذكرك أحد التلاميذ بالوعيد فنفذه مع اظهار كراهيتك لمن ذكرك» .
لقد أشرت منذ قليل الى شديد حبه لي . كنت أحس بذلك مثل كل طفل ، لكن لم أكن أعرف مدى ذلك الحب الا عندما عثرت ، بعد وفاته ، على كراسة صغيرة كان قد سجل فيها خواطره عندما سافر للعلاج بفرنسا ، كتب في احدى ورقاتها ، تحت عنوان «لوعة الشوق» ما يلي حرفيا (فالكراسة ما تزال في حوزتي) .
«لا أعلم للشوق سلطانا على عواطفي عجزت عن تخفيف وطأته قوتي الفكرية الا مرتين . أحداهما وأنا شاب علق قلبي فتاة علقتني هي الأخرى . وكانت حرب بين عقلي وهواي ، فاز فيها الهوى بالحب العذري وفاز فيها العقل بالعفة ، مع وجود دواعي الفاحشة وفقد موانعها .

ثانيتهما في سفرتي هاته الى فرنسا لعلاج داء السكر التي دامت من (1357/03/28 هـ) الى 1938/05/28 م إلى 1357/05/29 هـ (الموافق 1938/07/27 م) فقد كنت أريد ان انسى كل علاقاتي الشخصية والفكرية أيام علاجي . ففزت الا من ناحية ولدي البكر محمد ، فقد كنت أهاج لذكراه حتى تكاد تنفلت دموعي أمام الناس . ولولاه لكان غيابي أطول .

لكن الاسترسال في استعراض كل الجوانب التي أعرفها عن والدي ، قد يبعد بنا عن موضوع الكتاب الذي وضعه منذ أكثر من نصف قرن .
ان تحديد مكانة «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» تتطلب التذكير ، ولو باختصار ، بالظروف الفكرية والسياسية والاجتماعية التي ظهر فيها ذلك الكتاب .
ولد الشيخ مبارك الميلي في النصف الأخير من العشرية الأخيرة من القرن الماضي . نشأ في منطقة فقيرة خاضعة لنظام البلديات المختلطة . وكان هذا النظام ، الى جانب «الاحواز العسكرية» هو

الركيزة الأساسية التي يعتمد عليها الاستعمار في ادارة البلاد والتحكم في المناطق التي يخشى ثورة سكانها .

والبلدية المختلطة تشمل عادة منطقة شاسعة تضم عدة دواوير وقرى يسيطر عليها حاكم فرنسي يساعده عدد من الاعوان الفرنسيين أيضا ، الى جانب بعض الأعوان من «الاهالي» .

واذا كان الاروبيون ممثلين في هذاالنظام البلدي بواسطة من ينتخبهم فان الاغلبية الساحقة من سكان الاحواز أوالبلديات المختلطة ، أي الجزائريون ، ممثلون « نظريا » بواسطة رجال تعينهم الادارة الفرنسية . ولا يخفى ان الحاكم الفرنسي لا يعين ضمن ادارته الا من يجد لديه الاستعداد لخضوع مطلق وانقياد أعمى في تنفيذ التعليمات . وكان معروفا ان المعيار الذي تقاس به صلاحية المساعد الجزائري هومدى تصديه ضد مطالب من يفترض فيه ان يمثلهم وتفانيه في محاربة بني جلدته ، فتلك هي الطريقة التي يزكي بها « القائد » أو « الخوجة » نفسه في أعين سادته ، وهي التي تمكنه في الوقت نفسه من جمع بعض الاموال الحرام على حساب اخوانه وبني عمومته .

ولاحاجة الى التذكير بالصلاحيات الواسعة التي يملكها الحاكم الفرنسي في تعيين اعوانه من بين الجزائريين ، واذا صادف ان « لقائد » أوغيره من اولئك الاعوان لم يرق للمعمرين الاروبيين ، فليس اسهل لديهم من أن يلفقوا ضده تهمة لا يملك ضدها أي طعن ، فعزله يتم بنفس السهولة التي تم بها تعيينه . ومن ثم تجده يضطر الى مجاراة الادارة . ونادرا هم اولئك الذين ينجحون في البقاء بمنصبهم دون الاصطدام مع الشرائح الاجتماعية الاكثر تمثيلا لشعبهم .

ولهذا ، بقدر ما يكون « القائد » في البلدية المختلطة مجردا من أي حق في مواجهة المعمرين والفرنسيين ، بقدر ما يتمتع بصلاحيات واسعة في مواجهة ابناء شعبه . أليس هو الذي يملك حق تحديد حصة الضرائب المفروضة على الجزائريين ، دون ان يتحكم في ذلك

الى أية قاعدة ؟ أليس هو الذي يعين عادة ، وخاصة بعد 1902 قاضيا في المحاكم القمعية التي تنصبها الادارة الفرنسية ضد « الاهالي » ؟ أليس هو الذي يفترض فيه ان يمثل منطقته في البلدية دون أن يحتاج الى تزكية الناخبين ؟ فهويملك كل السلطة على شعبه ، دون ان يملك هؤلاء اية صلاحيات للاقتراع عليه ومحاسبته .

ولاحاجة الى التذكير بأن الشروط التي تطلبها الادارة توفرها في القائد ، لا تتصل من قريب ولا من بعيد بالكفاءة الفنية والمستوى الثقافي والتأهيل المعني .

واذا كان معروفا ان « ماهية » القائد محدودة ، مثل سلطاته الرسمية نظريا ، فقد كان معروفا ايضا انه يستطيع بوسائل عديدة ان يبني ثروة في آجال قصيرة ، لانه كان يعرف كيف ينتزع المال من الناس ويسطو على ما يملكون دون ان يملك هؤلاء حق الشكوى والنظلم .

على ان هذه « الخصائص » السلبية التي تختص بها البلدية المختلطة هي نفسها التي ادت عمليا ، ودون ان تقصد لذلك الادارة الفرنسية ، الى استمرار الهوة سحيقة بين الشعب وممثلي الاحتلال .

فممثلو الادارةالفرنسية لم يكن يهمهم ان ينفذوا الى الشعب ويكسبوا وده ، طالما كانوا مدينين بوجودهم وثرواتهم وجاههم لغيره . وكان من جراء ذلك ان تطور الشعب ، وخاصة بالارياف ، في ظل العداء للادارة الاستعمارية . أليست هي التي انتزعت منه الاراضي الخصبة واضطرته الى ان يلجأ الي المناطق القاحلة والاراضي الجدباء ؟

كان عمره ، عندما توفي ابوه ، اربع سنوات . فنزله جده منزله حتى لا يحرم من الميراث . ويا له من ميراث . شجيرات زيتون محدودة العدد ، منبته في نحو من اربع هكتارات ، ينبت فيها شيء من العناب والتين ، ويمكن زراعتها بالشعير .

في مثل هذا المحيط ، لا يحتاج المرء الى اعمال الخيال كثيرا كي يستنتج ان الافاق امامه مسدودة ، وان كل الابواب في وجهه

موصودة ، ان هو رضي بالبقاء في المنطقة مكتفيا بما حفظه في طفولته من قرآن .

لكن الى أين يذهب وكيف ؟

كانت عين عمه الاكبر ، أحمد ، لا تغفو ، كانوا يسمونه الذئب . ومع ذلك فقد عزم الفتى مبارك على ان يغادر ارضه . وكان قد خبر يقظة عمه اكثر من مرة . هل تحدثه نفسه بأن يقطف تينة بعد ان يكون قد تأكد من خلو المكان ؟

انه لا يشعر الا وقد هوت على يديه عصا عمه وكأنه طلع من غار او نزل من سماء .

لذلك اعد خطة محكمة للفرار لن يتفطن لها عمه . قرر ان يكون ذلك يوم شتاء ليس مثل كل الايام . وصادف ان تساقط الثلج بكثرة . ولم نلبث ان تراكمت الثلوج بصورة تردع الحيوان والانسان ان يغامر بأنفه خارج وكره أو كوخه . لم يخطر على بال العم الاكبر مهما تخيل من حيل ان يتوقع فرار ابن اخيه في مثل ذلك اليوم .

« ان الثلج يصل الى الركبة » تلك كانت عبارة الشيخ مبارك في وصف يوم الفرار من دواره ووصاية عمه . روى لي القصة في الاسبوع الاول من نوفمبر 1942 . أذكر ذلك جيدا . كنت معه بمدرسة التربية والتعليم في قسنطينة حيث قضينا ليلة في طريقنا من ميلة الى خنشلة . فقد كان على أبي ان يذهب الى هناك ليعود بوالدتي التي كانت في زيارة الى شقيقتها . وكان قد استصحبها هناك قبل نحو اسبوعين مع اخوتي وتركني في ميلة وحدى حتى لا انقطع عن دراستي ، ثم عاد هو بعد ثلاثة ايام . وعندما قرر ان يذهب ليعود بأمي واخوتي اليه ان يصحبني ، فتغيب بيومين أو ثلاثة عن الدراسة لا يضر . قضينا الليلة الاولى في قسنطينة ، لانه كان علينا ان نأخذ الحافلة الى خنشلة باكرا من صباح الغد .

خلال تلك السهرة راح يحكي لي قصة فراره ، وقد رسخت القصة في ذهني لانها اقترنت لدى بشعور الاعتزاز ان اصبح والدي يأتمنني على اسرار حياته .

كان فراره الى ميلة ، حيث درس على الشيخ محمد الميلي ابن معنصر جدي لأمي ، وكان أثمن ما تعلمه عليه هو خشية الله والزهد في الدنيا . فقد كان الشيخ الميلي معروفا بالزهد . كان يعطي من ماله بغير حساب . ذلك ما كنت اسمع عنه منذ صغري . وتروى عنه روايات كثيرة في هذا المجال . منها ان سائلا تقدم منه ذات يوم ، وقد كان عائدا من المسجد الى منزله ، وصادف انه لم يكن لديه ما يعطيه له ، فقال له انتظرني . ثم دخل الى سقيفة المنزل ، ونزع صدريته ، وكانت فاخرة واعطاها له ، متأكدا انه سوف يبيعها بأكثر من ثمنها الحقيقي ، فهناك اكثر من شخص يرغب ولاشك في شراء صدرية الشيخ تبركا .

ويروي عنه انه ، وقد عرف انه ميت لا محالة بعد طعنة سكين طعنها به مواطن بحجة انه رفض ان يفتيه بما يوافق هواه ، سامح من اراد قتله وطلب من ابنائه قبل ان يسلم الروح ، ان لا يتتبعوا القاتل قضائيا . لست أشك في ان بعضا من هذه الروح قد ورثها الشيخ مبارك عبر سلوك شيخه اكثر مما ورثها عبر دروسه .

لكن التأثير الحاسم الذي تلقاه مؤلف تاريخ الجزائر ، كان هو ذلك الذي تلقاه على الشيخ ابن باديس .

فقد نصحه الشيخ محمد الميلي ان يتردد على ابن باديس مؤكدا له انه سوف يستفيد بذلك اضعاف مما لو بقي في ميلة .

وفعلا فقد كان لقاء مبارك الميلي مع ابن باديس يمثل نقطة تحول هامة في حياة الشيخ مبارك : فقد أخذ عنه روح النقد ، وعزز لديه الجرأة على التمرد على الاوضاع .

وعلى الرغم من انه لم يتح لي ان اعرف من أبي الكثير عن هذه العلاقة فقد أتيح لي ان أشهد ما يدل على عمقها . حدث ذلك بمناسبة موت الشيخ عبد الحميد .

اتصل أبي بمكالمة تليفونية من قسنطينة مفادها ان الشيخ مريض . أبدى تعجبه لانه كان وشيك العودة من هناك وتركه صحيحا . فهرع مسرعا . ولم يكد يصل الى قسنطينة حتى وجده قد اسلم روحه .

وكان عليه ان يتولى تأبينه في غياب الشيخ البشير الابراهيمي الذي كان بالمنفى آنذاك . وتقدم يتلو : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الاية » لكنه لم يستطع ان يواصل التأبين ، فقام الشيخ العربي بالمهمة . ذلك ما سمعته فيما بعد . لكن الذي شاهدته بنفسي هو حالته حين عودته من الجنازة . كنا نستعد للاحتفال بعيد المولد النبوي . وكان من أحب الاعياد الى الاطفال : فيه نطلق الشماريخ ، ونفجر المحارق ونشهد احتفالات وسهرات في النادي تلقى فيها خطب تأسرنا وتشدنا وان كنا لا نفهم الكثير مما يقال فيها .

كنت أفرح بالمولد فرحا زائدا على اقراني واترابي : فقد كان من عادة أبي ان يقضي اربعة ايام من كل اسبوع في قسنطينة ، ومن ثم كان يأتي لي من هناك بأصناف من الشماريخ والمحارق لا تتوفر في اسواق ميلة ، فتكون لي فرصة للزهو على الاصحاب والاقران .

كنت انتظر عودته بفارغ صبر . وهرعت اليه كالعادة سائلا عن المحارق ، رغم اني كنت أعرف انه عائد من جنازة الشيخ ، لم أكن مدركا لمدى التأثير الذي خلفه لديه موت الشيخ عبد الحميد .

لم يستطع ان يرد علي . فقد القدرة على الكلام . ظل كذلك اياما لا يعبر خلالها عما في نفسه الا اشارة وايماء .

وقد اطلعت فيما بعد ، على رسالة وجهها الى الشيخ البشير الابراهيمي . وكان هذا الاخير قد طلب منه ان يصف له يوم الجنازة . وقد حفظت جملة وردت في رسالةالشيخ البشير وهي قوله « لقد غبت يوم الختم ، وغبت يوم الاتم » وكان الشيخ البشير يشير الى تغيب والدي عن الاحتفال الذي أقيم بقسنطينة في مناسبة الاحتفال بختم الشيخ بن باديس لتفسير القرآن ، اذ كان موجودا آنذاك بفرنسا للعلاج .

وقد رد الشيخ مبارك على رسالة صديقه ، يصف له وقع الحادث عليه ويقول له فيها ما اذكر معناه :

- عندما سمعت لدى وصولي الى قسنطينة بموته شعرت ان الدورة

الدموية اصبحت تسير في عكس الاتجاه المعهود . وعرفت في الحين ان داء السكر قد عاودني وانه لن يفارقني حتى يقضي علي .

وكذلك كان . فقد تضعضعت صحته بعد موت ابن باديس ولم يتمكن من متابعة القيام بدروس الجامع الاخضر التي كان يتولاها شيخه ، فتحولت الدراسة الى تبسة حيث تكفل بها الشيخ العربي .

اذن فقد كانت العلاقة التي تربط بين الميلي وباديس اكثر من علاقة بين رئيس ومرؤوسه ، وبين أستاذ وتلميذه : لقد كان لها طابع روحي بحيث لم يستطع الشيخ مبارك ان يتصور استمراره في الحياة دون ابن باديس .

وتجدر الاشارة في هذا المجال الى انه على الرغم من هذه العلاقة التي كان فيها ابن باديس يمثل الرئيس والاستاذ والنموذج الى جانب الصديق بالنسبة للشيخ مبارك ، فقد كان ابن باديس هو الذي كتب أروع تقدير واشادة بمبارك الميلي عندما صدر الجزء الاول من تاريخه . فقد كتب اثر صدور ذلك الجزء رسالة الى الشيخ مبارك وجهها له من مصيف « حصن الماء » (برج الكيفان حاليا) في صيف 1928 جاء فيها قوله :

الحمد لله .

أخي مبارك ،

سلام ورحمة ، حياك الله تحية من علم وعمل وعلم ، وقفت على الجزء الاول من كتابك ، فهو أول كتاب صور الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سوية ، بعدما كانت تلك الصورة اشلاء متفرقة هنا وهناك . وقد نفخت في تلك الصورة من روح ايمانك الديني والوطني ما سيبقيها حية على وجه الدهر ، تحفظ اسمك تاجا لها في سماء العلا ، وتخطه بيمينها في كتاب الخالدين .

أخي مبارك ،

اذا كان من أحيا نفسا واحدة فكأنما أحيا الناس جميعا ، فكيف من أحيا أمة كلها ؟ احيا ماضيها وحاضرها ، وحياتهما عند ابنائها

حياة مستقبله . فليس - والله - كفاء عملك ان تشكرك الافراد ، ولكن كفاءة ان تشكرك الاجيال . واذا كان هذا في الجيل المعاصر قليلا ، فسيكون في الاجيال القادمة كثيرا . وتلك سنة الله في عظماء الامم ونوابغها ولن تجد لسنةالله تبديلا .

وأنا - واحدا من هذا الجيل - بلسان من يشعرون شعوري ، اشكرك لاقوم بما علينا من واجب ، لا لأقابل مالك من حق .

جازاك الله خير ما جازى به العاملين المخلصين للدين والوطن بعلم وتحقيق وانصاف ، والسلام عليك من اخيك عبد الحميد بن باديس .

وقد حرص الشيخ مبارك على اثبات هذه الرسالة في الجزء الثاني من تاريخه ، لانه يعتبر ابن باديس عظميا من عظماء الجزائر ، جدير بأن يثبت نظرته في كتابه في التاريخ الذي هو « من نتائج حياة عظماء الامتين العربية والبربرية » حسب تعبير الشيخ مبارك نفسه .

ولابأس ان نثبت هنا رسالة لم يسبق ان نشرت وردت الى الشيخ مبارك من شيخه وصهره الشيخ محمد الميلي مؤرخة في 24 جويلية 1928 جاء فيها ما نصه :

الحمد لله .

ابننا العزيز . السلام عليك ورحمة الله .

أما بعد فقد وصلني من ادارة الشهاب الجزء الاول من كتاب تاريخ الجزائر . فلما سرحت فيه الطرف الفيته فوق ما يرام وقلت فيه بحق ما قاله الاستاذ باديس ، وابتهجت به ابتهاجا قلبيا خصوصيا زيادة على الابتهاج العام ، لأن لي ان شاء الله من الثواب عليه قسطا . بارك الله فيكم وأعانكم على اتمامه بمنه وكرمه ، والسلام عليكم .

من والدكم محمد الميلي

ان كلا من تقييم ابن باديس للجزء الاول من التاريخ الذي تجدر الاشارة الى انه كان مخصصا لفترة ما قبل الاسلام - وتقييم مبارك الميلي لذلك التقييم ، ورسالة الشيخ محمد بن معنصر الميلي ، كل

ذلك يؤكد المكانة التي كان يعطيها نخبة من مثقفي العربية للتاريخ في حركة النهضة الوطنية خلال العشرينات .

ذلك ان التاريخ كان أحد الاركان الثلاث التي اعتمدها الاستعمار لفرنسة الجزائر الى جنب محاربة الاسلام والقضاء على اللغة العربية .

فقد اراد الاستعمار ان يخضع تاريخ الجزائر كما اخضع ارضها ، واراد ان يلغي الخصائص الوطنية للتاريخ ، كما حاول ان ينكر خصائصها الجغرافية عندما اعتبر ذلك ان البحر الابيض المتوسط يشق ارض فرنسا كما يشق السين مدينة باريس .

وهذا ما جعل الاهتمام الفرنسي بتاريخ لجزائر يتركز على عصور ما قبل التاريخ ، وعلى العهد الروماني والحقبة الفرنسية واهمال العصور الاسلامية التي اعتبرها غوتيي « عصورا مظلمة » .

وعبر المؤرخ الفرنسي المعروف - ستيفان غزيل - الذي تخصص في دراسة التاريخ القديم لمنطقة المغرب العربي - على التوجيه الذي يحرك الدراسات عندما كتب يقول : ان التاريخ يحدد لنا ايضا واجباتنا : فعلينا ان نتسلح بارادة لا تقهر في ان نكون اسيادا والى الابد ، كما ان هناك ضرورة تتمثل في اقامة استعمار يعتمد على استيطان ريفي اوروبي ضخم ، وضرورة نقريب الاهالي منا على اساس الرغبة الصارمة والامل في ان يتحقق انصهارهم في مستقبل قريب أو بعيد . فالتاريخ اذن لا يعتبر في افريقية اقل العلوم جدوى .

وشيئا فشيئا ، اعيد تشكيل ماضي الجزائر بما يتلاءم مع هذا الهدف ، حتى اصبحت « فرنسة » الجزائر هي الاصل واعتبر عهدها الاسلامي ، اقتطاعا تعسفيا لهذا « الجزء من الغرب » الذي الحق بالمشرق مع الفتح العربي ، حسب تعبير مارسي . بل هناك من المؤرخين الجغرافيين الفرنسيين من لم يتردد في انكار ان يكون لهذه المنطقة تاريخ : فهذا غوتيي يقول متحدثا عن المغرب العربي : « هذه بلاد ليس لها اسم معروف عالميا ، مما اضطر الى اعطائها اسما

ما : ذلك انه ليس لها وجود سياسي متميز ، وبناء على ذلك لم يكتب تاريخها »

وهكذا أريد ربط الجزائر (بوصفها قلب المغرب العربي ، اذ يمكن عبرها التأثير على مجموع الشمال الافريقي) بالتاريخ الفرنسي خاصة والتاريخ اللاتيني بصورة عامة . يقول لوى بيرتران في كتابه « دماء الجذور » .

ما ان يضعف الشرق ، حتى تسقط افريقيا الشمالية في الفوضى التي لازمتها منذ الولادة أو تخضع للهيمنة اللاتينية التي وفرت لها قرونا من الازدهار ، والتي اعطتها ، لأول مرة ، شبه وحدة ، كما زودتها بشخصية سياسية وثقافية . (يقصد فرنسية طبعا) .

ان العربي لم يقدم لها الا البؤس والفوضى والهمجية . ان كل شيء قد اتاها من الخارج من سوريا ، من فارس من اليونان من بيزنطا ، ومن البلاد اللاتينية على الخصوص .

من هنا نتبين ان المعركة التي دارت منذ العشرينات حول التاريخ الوطني ، كانت من اشد المعارك ضراوة .

ذلك ان المنظرين الاستعماريين في مسعاهم الى فرنسة الانسان بعد الارض ، وجدوا ان تزييف التاريخ وحده لا يكفي وانه لابد من اكماله بمسعى معمق على واجهتين اثنتين : تجهيل الجزائريين وحرمانهم من تعلم اللغة العربية بوصفها اداة اساسية في الاطلاع على التاريخ الاسلامي والتفاعل مع نبضه الحضاري ، وفي نفس الوقت السعي الى تجريدهم من الاسلام وتمسيح من يمكن تمسيحه منهم .

وفي اطار هذا المسعى المزدوج والمتكامل لابأس بالابقاء على شكليات وطقوس دينية تفرغ من روحها ، وتجعل الانسان الجزائري عاجزا عن مغالبة المشروع الثقافي الاستعماري الذي يقوم على الثالوث المشار اليه : تحريف التاريخ ، التجهيل باللغة العربية ، افراغ الدين من مضمونه الحضاري وقوته الروحية .

وقد مرت عملية تزييف التاريخ الوطني الجزائري من طرف المنظرين الاستعماريين بعدة مراحل يمكن اجمالها فيما يلي :

اولا : محاربة اللغة العربية وتوسيع مجالات الامية . ولا يخفى ان انتشار الامية بالاضافة الى التفقير يهدد بالقضاء على انسانية الانسان فضلا عن ان تبقى لديه تعلقا بتاريخ او تعزز لديه روح البحث عن الجذور .

ثانيا : بعد تجفيف منابع الثقافة الوطنية وانسداد ابواب التعلم في وجه الجزائريين يمكن ان يسمح لهم بقدر محدود من تعلم اللغة الفرنسية التي يضطر الى دخولها بعد عزوفه عنها ومعارضة لها ، فيقبل بها بوصفها اهون الشرين وكونها تمثل شيئا هو خير من لا شيء .

ثالثا : السعي من خلال ذلك التعليم الفرنسي المحدود الى تحقير التاريخ الوطني . فمدارس التعليم المخصصة « للأهالي » لم تكن تستنكف من اللجوء الى الاسفاف الظاهر عندما يتعلق بتدريس مادة التاريخ الجزائري ، بل واستعمال الكذب المفضوح .

فقد كانت تلك البرامج في بعض العهود تقدم سقوط الجزائر في 1830 امام الغزو الفرنسي في صورة مهينة خلاصتها ان سكان الجزائر العاصمة باعوا الجزائر للفرنسيين في مقابل قصعة زلابية . . وكان الكتاب الذي يهين التاريخ الوطني هذهالاهانة يشتمل على رسم توضيحي يمثل مجموعة من الجزائريين وقد شكلوا حلقة حول قصعة زلابية يتنافسون على أكل ما فيها . .

فليس مثل تحقير الجدود وتشويه أعمالهم دفعا للأحفاد على التنصل من تاريخهم والبحث عن هوية جديدة .

رابعاً : بعد ذلك كله تتهيأ الظروف الملائمة لوضع تاريخ جديد للجزائر يتماشى والمنظور الإستعماري .

فالمسألة لا تتعلق بايجاد قراءة جديدةللتاريخ ، بل صياغة جديدة تبرزه في ثوب لا علاقة له بما كان معروفا حتى ذلك العهد .

وتظهر طبيعة هذه المرحلة في نوعين من المحاولات يكمل أحدهما الآخر يتلخص النوع الأول في التأكيد على أن المغرب العربي ، كان

قبل ظهور الإسلام مسيحي الروح ، لاتيني الثقافة .

وعلى هذا الأساس ظهر المسعى الذي عرف بتحقيق « انبعاث افريقيا اللاتينية » وهكذا ظهرت مجلة تحمل عنوان « لفريقيا اللاتينية » كانت تصدر في الجزائر وتحاول ابراز « الهوية الغربية اللاتينية المسيحية للعالم البربري » وقد امتدت هذه المحاولة الى المغرب الأقصى حيث استخلصت بعض الأوساط المسيحية أن سكانه يمكن بسهولة تحويلهم الى مسيحين لأن بساطة أخلاقهم تقربهم من المسيحية ، كما جاء في كتاب أوزج كولير الذي يحمل عنوان « بحث في فكر البربري المغربي » .

أما النوع الثاني من محاولات هذه المرحلة ، فيتمثل بتسليط كل ما يمكن من أضواء على العهد الروماني وابرازه في صورة العهد المشرق النير ، وكذلك العهد الفرنسي . أماما بينهما وهو العهد الإسلامي على الخصوص ـ فيتم تعتيمه ويعتبر عصورا مظلمة ، كما سبقت الإشارة الى ذلك . وبهذا العمل المزدوج ، عبر هذه المرحلة الرابعة ، تصبح العهود الإسلامية مجرد جملة اعتراضية في أسفار تاريخ المنطقة التي تبدأ والحالة هذه بعهود روما التي تمسحت وتنتهي بفرنسا « البنت الكبرى للكنيسة » .

إذا نحن استحضرنا أهم دعائم وأهداف المشروع الإستعماري وخاصة ما يتصل منه بالثقافة الوطنية ، أدركنا الدور الذي يؤديه تجديد العناية بالتاريخ الوطني ، والمغزى العميق الذي يكتسبه ظهور كتاب باللغة العربية عن تاريخ الجزائر في عام 1928 .

ويؤكد هذه الأهمية ، أن مؤلف « تاريخ الجزائر في القديم والحديث » ، لم تخف عليه هذه الحقائق ، فهو يؤكد في المدخل الذي جعل عنوانه « مقدمات » مايلي :

« فإن التاريخ مرآة الغابر ومرقاة الحاضر . فهو دليل وجود الأمم وديوان عزها ومبعث شعورها وسبيل اتحادها وسلم رقيها . متى درسه ابناء أمه واحاط أخيرا بأدواره شبابها ، عرفوا وجودهم فلم تبتلع قوميتهم القوميات الحية النهمة المجاورة لهم ، وأدركوا ما

لماضيهم من المجد وما لإسلافهم من الشرف ، فلم يقبلوا تنقيص المنقصين وعبث المدلسين وقدح المغرضين ، وشعروا بعز السيادة ولذة الحياة ، فانفوا من سيطرة المستبدين ولم يخضعوا لذل المستعبدين . . . . »

فالهدف الوطني المتوخى من الكتاب واضح عنده . فهو يرى أن العناية بالتاريخ تضمن اعادة ربط الشعب بمساره، وبعث اعتزازه بماضيه دون تمجيد أعمى ، كما يرى ضرورة اعطاء الأولوية في الدراسات التاريخية ، للتاريخ الوطني على التاريخ الفرنسي .

ويتعرض الشيخ مبارك في « مقدمات » كتابه لهذه الأهداف ، عندما يتناول الموضوع من زاوية واجب المثقف الجزائري إزاء التاريخ . فقد كتب تحت عنوان فرعي هو « المتعلمون الجزائريون والتاريخ » . يستعرض وينقد المثقفين سواء منهم الذين تعلموا الفرنسية أو الذين تخرجوا من المعاهد التقليدية للتعليم العربية ـ الإسلامي .

فهو يقول منددا بالقطيعة بين كل اصناف المنعلمين الجزائريين وتاريخم : «إن المتعلمين اليوم من ابناء الجزائر قطعوا الصلة بينهم وبين ماضيهم فجهلوا ما فيه عن عز وذل ونعيم وبؤس ومدنية وهمجية وسيادة وعبودية .

ثم يحلل المسار الذي أدى الى تجهيل المتعلم الجزائري ، بتاريخه . فعن خريجي المدارس الفرنسية يقول : « ترى المتعلم بالمدارس يعرف من تاريخ بعض الأمم الأجنبية وما يجدر به أن العلم مثله من تاريخ شعبه ولا يحسن منه تقديمه عليه فكيف بالإقتصار عليه والإكتفاء به ؟

إن النسبة بين التاريخين : الشعبي والأجنبي ، مثل النسبة بين الضرورى والكمالي ، انما يحصل له هذا المثل اذا جاء بعد الضرورى فإن سبقه لم يكن كماليا وكان ضرره اكثر من نفعه .

ومن مضار تقديم تاريخ الأمة الأجنبية قصر الكمال والسيادة عليها وحصر المعارف والحضارة فيها وذلك تزهيد للمتعلم في وطنه وتنفير له من بني جنسه .

ولقد بلغت الحال ببعض هؤلاء المتعلمين أن صار ينظر الي جنسه نظر المؤرخ الى ما قبل التاريخ . فإذا دار الحديث على الشعوب وقسطها من الحياة وافضى الى قومه رأيته ـ من جهله بتاريخهم ـ يستدل على حياة الماضين بحياة الموجودين ويستنتج من ذلك أن لا حضارة للأوائل انما هم قوم عاشوا في الهمجية وسقوط الأخلاق بعيدين عن نظم الحياة وفقه طبيعة الكون وسنن العمران ، ويرى انه اعتمد في هذا الحكم القاسي الجائر على أعدل شاهد : قياس الغائب على الشاهد وانه لقياس فاسد وماذا عسى أن تبلغ قيمة قياس دعامته الجهل ؟

ثم قد يترقى في حكمه ويلحق المستقبل بالماضي فيقضي على مستقبل أمته بالشقاوة والتعاسة ويرى أن داءها عياء لا يوجد له دواء وربما طلب لها من الأدوية ما هو عين الداء .

ومن الواضح أن في هذه الفترة تلميحا مفهوما الى بعض النتائج التي تترتب على المشروع الثقافي الإستعماري في ما يتعلق بالتجهيل بالتاريخ الوطني وتعميمه ، والتي تتمثل في الميل إلى الإدماج باعتباره علاجا وحيدا في حين أنه « عين الداء »

أما المعربون خريجو المعاهد العربية ـ الإسلامية فقد انتقدهم بلجهة تساوي في قساوتها اللهجة التي انتقد بها المفرنسين ، إذ يقول فيهم ما يلي : « وهناك متعلمون تعلموا بالمساجد مبادىء بعض العلوم اللسانية والدينية واهملوا من برامج قرآتهم التاريخية فإذا فارقوا المساجد وقدر لبعضهم أن يحيا حياة علمية ، الفيته يقتصر على مراجعة مادرسه من الكتب ، وأن دعت الهمة احدهم الى التوسع ففي الفنون التي اخذ مبادئها بالمسجد .

فرطوا بذلك في قراءة علم يعود على اخلاقهم بالتهذيب وعلى عقولهم بالتدريب على التفكير ، ذلك علم التاريخ وتلك فوائده .

وان منهم لقوم يخربون عقولهم بأيديهم ويطفئون نور الله ـ العقل ـ بأفواههم ، ذلك باشتغالهم بقراءة كتب المناقب والخوارق وانها لكتب سيئة الأثر في النفوس .

ثم يقول : فلو اشتغل هؤلاء القوم ـ بدل هذه الكتب ـيكتب تاريخ البشر وحياة الأمم لاناروا عقولهم واطلقوها من ذلك السجن تكتشف من خبايا الأيام وخفايا الطبيعة وما يعود على الإنسانية عامة وبني جنسسهم خاصة بالفوائد الجليلة .

إن النفس الوطني في كتاب « تاريخ الجزائر في القديم والحديث» واضح ، فنحن نشمه ونعثر عليه في كل ابواب الكتاب ، بما فيها الباب الذي خصصه لجغرافية الجزائر الطبعية .

ففي الفقرة الثامنة من هذا الباب ـ وهي التي تحمل عنوان « الغابات والنباتات الطبيعية » يقول على الاخص :

« ليس في استطاعة احد أن يحصي نباتات الوطن الجزائري . ولكنها على كثرة اصنافها ، وعظم فوائدها ، لا ينتفع بها الجزائريون إلا انتفاعا بسيطا .

فلو علموا خصائصها واحيوا علم الكيمياء لخدموا الطب خدمات جليلة ، وكان لهم البقاء في الميدان الإقتصادي . وليس هذا بالأمر الوحيد الذي فرط فيه شعبنا . فمتى ينتبهون من هذه النومة التي كاد أمرها يجاوز أمد نومه القبر ؟ فيتلافون ما فرطوا فيه ويجدون فيما تكاسلوا عنه » .

وإذا كان القرئي قد ستخلص من هذه الفقرة نتيجة يأس مطلق ، فإن الشيخ مبارك يسارع في الفقرة الموالية الى تأكيد الإيمان بالمستقبل ، رغم حاضر مظلم ، فيقول :

« لا يمكن أي أحد أن يتكهن باليوم الذي تبعث فيه الأمة الجزائرية من مرقدها ، فإن المستقبل لله وحده ، ولكن لا نيأس من هذا اليوم الميمون فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

ويختم باب الجغرافية الطبيعية بجملة لا تحتاج الى تعليق ، هي قوله :

« بل كون وطنه (أي الجزائري) بتلك الدرجة من الحسن مما يزيد في حسرته ، ويحمله على تدارك هفوته الى التفكير في غده وبناء صرح سعادته بيده » .

لقد صدر الجزء الأول من هذا الكتاب ، في صيف 1928 ، أي قبل عامين من احتفال الفرنسيين بمرور قرن على الإحتلال ، ومعنى ذلك أن العمل من أجل إيقاظ الروح الوطنية قد بدأ قبل الصدمة التي أحدثتها تلك الإحتفالات الصاخبة . فالقراءة المتمعنة لهذا الكتاب تكشف عن بدايات مشروع ثقافي وطني لإحباط المشروع الإستعماري في المجال الثقافي الذي أشرنا اليه ، فالشيخ مبارك ، ينص في أكثر من مكان ، على كل ما من شأنه أن يوحد الشعب ، ويقضي على عناصر التفرقة . فهو يعتز ، في الجزء الأول المخصص للفترة السابقة على دخول الإسلام ، بشخصيات أمازيغية مثل ماسنيسا ويوغرطا وتاكفاريناس . بل أنه ، هو العالم المسلم ، يشيد بشخصية مثل « الكاهنة » مدفوعا بروح وطنية لم ينل منها حماسه للإسلام وتدينه الشديد ، فهو بقول عن الكاهنة ، رغم انها حاربت المسلمين .

« . . . وكل من ينظر الى التاريخ بعين الحقيقة يـراها دُرَّةً في جيد تاريخ المرأة لما كانت عليه من حسن التدبير وشدة البأس وصدق الدفاع عن الوطن والثبات على المبدأ » .

لأن المسعى الذي اعتمده رجال الإصلاح الديني في مجال التاريخ لم يكن يضع تاريخ الجزائر قبل الإسلام موضع تعارض مع تاريخ الجزائر الإسلامية، بحيث ينفي احدهما الآخر . لأن هذا المسعى يعتبر ظهور الإسلام بداية تحول عميق في جميع الميادين ، سياسيا وثقافيا واجتماعيا انصهرت به المجتمعات الأمازيغية ، من حضر وبدو في الإسلام عقيدة وثقافة وممارسات .

فالشيخ مبارك الميلي مثلا ، الذي ينسب نفسه الى بني هلال لم يكن يرى أي حرج في أن يطلق على الدول التي اسستها اسر وقبائل بربرية في العهد الإسلامي ، عنوان « العصر البربري » لأن الممالك والإمارات التي قامت بالمغرب العربي على سواعد قبائل بربرية ، لم تقم على أساس عرقي ، ولم تكن تمردا على الإسلام ، بل كانت تستمد تبريرها من المذاهب الإسلامية : فالدولة الرستمية والعبيدية

والادريسية أو المرابطية كانت كلها محاولات لتجسيم مباديء حكم وفلسفة ونظام ، نادت بها مذاهب اسلامية نشأت بالمشرق .
بل أن الدعوة الموحدية التي ظهرت على يد بربري أصيل هو « ابن تومرت » كانت محاولة للجمع بين ما جاء من القول بعصمة الإمام المهدي ، مثلما كانت من بعض الوجوه محاولة لتطبيق بعض تعاليم الغزالي ضد التفريقات الفقهية الجامدة .

إن تحليل تناول الشيخ مبارك للتاريخ الجزائري ، يكشف عن مسعى وطني واضح من أجل توظيف التاريخ في أيقاظ الشعور القومي ، وفي خدمة مفهوم للوطن ومشروع للثقافة لا يمكن إلا أن يكون متناقضا مع استمرار الإستعمار .
ويمكن أن نتبين مقصد الشيخ مبارك من أول صفحة في كتابه وهي التي تتضمن كلمة الإهداء . فهو يهديه الى « الشعب الجزائري » والى « شبابه المفكر ورجاله العاملين والمخلصين » ويعلل سبب الأهداء للشعب بأن الشعوب اصبحت تعرف اليوم « أن ارادة الحاكم انما تتقوى من جبنهم وجمودهم ، وأن الإرادة الحقيقية التي بيدها رفع مستوى الأمم هي ارادة الشعوب » .
وهو نفسه ، عندما يناقش اطروحة بعض المؤرخين الإستعماريين الذين يريدون ربط ماضي الجزائر بأوروبا تمهيدا لفرنستها ، يقول عنه أنه يريد أن « يمزق الجنس البربري كل ممزق ويفرقه شذر مذر ويوزعه على أمم أوروبية بالخصوص كي تذهب وحدته ، ويسهل على البلعوم الأوروبي ابتلاعه . . وتلك امنية يحلم بها بعض مرضى العقول من السياسيين ، ولكن لن يلج الجنس في جنسٍ آخر حتى يلج الجمل في سم الخياط » (أي انه يجعل الإدماج مستحيلاً استحالة دخول الجمل في ثقب الإبرة) .
وبعد أن العمل الذي قام به الشيخ مبارك الميلي في تأليفه لهذا الكتاب ، بتلك الروح والإعتزاز بكل الماضي قد أدى خدمة كبيرة الى المسعى الوطني العام من أجل اعطاء مضمون حي لفكرة الوطن

الجزائري الذي تكون عبر التاريخ . ذلك المسعى الذي انتصر في النهاية على المسعى الإستعماري الذي اراد أن يتجاهل التكامل بين عهد ما قبل الإسلام وما بعد الإسلام ، وحاول أن ينكر عمق التغيير الذي احدثه الإسلام وحضارته العربية اللسان .

أن الشيخ مبارك الميلي في أخذه بالمفهوم الوطني ودفاعه عن وحدة التاريخ الجزائري كا ن أكثر تجاوبا مع منطق التاريخ وأنفذ إلى حقائق الأشياء من أولئك المنظرين الإستعماريين الذين كانوا يحلمون باجترار الماضي اللاتيني ، وتكريس الحاضر الفرنسي ، والذين كانوا يتصورون أنه في امكانهم تذويب كيان عريق التاريخ ، اسلامي الروح ، عربي اللسان .

محمد الميلي

الكتاب الأوّل

في تاريخ الجزائر قبل الاستيلاء العربي

تاريخ الجزائر قبل الاستيلاء العربي

يتضمن هذا الكتاب الكلام على قدماء الجزائر أهل العصر الحجري والكلام عن البربر الذين عمروا هذا الوطن منذ دهور لا يعلم مبتدأها الا العليم الخبير واستقروا به حتى عرف بهم ونسب اليهم ؛ والكلام على الدول التي سادت البربر فيه : وهي : دولة الفينيقيين ودولـــة الرومان ودولة الفندال ودولة الروم ويتقدم ذلك كله القول في جغرافية هذا الوطن الطبيعية •

فانحصر هـــذا الكتاب في ســبعة ابواب :

الباب الاول في ذكر قدماء الجزائر أهل العصر الحجري •

الباب الثاني في ذكر البربر واصولهم وقبائلهم وما يرتبط بحياتهم

الباب الثالث في ذكر الفينيقيين وأخبارهم •

الباب الرابع في ذكر البربر وملوكهم على عهد قرطاجنة ورومة الجمهورية •

الباب الخامس في ذكر الرومان واحوالهم مع البربر •

الباب السادس في ذكر الفندال ومآل أمرهم •

الباب السابع في ذكر الروم ومصير دولتهم •

جغرافية الجزائر الطبيعية

1 ـ تمهيد

الجزائر اسم لمدينة عظيمة على البحر الرومي ؛ تعرف قبل مجيء العرب باسم اقسيوم (ICOSIUM) .

ولم تكن تطلق على وطن مترامي الاطراف الا منذ العصر العثماني حيث اتخذ العثمانيون هذه المدينة عاصمة لمملكة ذات حدود مقررة فاشتق اسم الوطن من اسم عاصمة دولته الجزائر . هذا المعنى الحديث جزء من وطن كبير عرف من قبل مجيء الفينيقيين باسم ليبية وهو عبارة عن طرابلس وتونس والجزائر ومراكش قال البكري : «ليبية سميت ببنت باقوه بن يونش الذي بني مدينة منفيش[1] بمصر وهي التي ملكت ملك افريقية اجمع فسمى بها»[2] ثم انسلخت الجزائر وما والاها غربا من هذا الاسم وكان الجغرافيون اليونانيون واللاتينيون يقسمون هذا الوطن الذي عرف أخيرا باسم الجزائر الى ثلاثة أقسام :

1 ـ مصيصيليا (MASSESSYLIE) وهو عبارة عن سهول سطيف وبرج بوعريريج وتل عمالتي الجزائر ووهران الى وادي ملوية غربا .

2 ـ مصيليا (MASSILIE) وهو باقي عمالة قسنطينة وغرب عمالة تونس الى طبرقة ثم صارت مصيصيليا تعرف بموريطانيا الشرقية ومصيليا بنوميديا .

3 ـ جيتولية (GETULIE) وهو عبارة عن صحراء موريطانيا ونوميديا ولما جاء العرب اطلقوا اسم المغرب على ما بين برقة شرقا والمحيط الاطلانتيكي غربا ، والبحر الرومي شمالا والصحراء الكبرى جنوبا . وانما سموه المغرب لوقوعه غرب وطنهم جزيرة العرب . ثم قسم العرب المغرب الى أدنى وأوسط واقصى ؛ وذلك بالنسبة لشرقهم .

---

1) ـ حكم مصر قبل الميلاد (26) أسرة من لدن الالف الخامس الى المائة السادسة ، وكانت منفيش قاعدة الاسر العشر الاولى منها التي عاشت ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة .

2) ـ المغرب ص 21 .

1 ـ المغرب الأدنى هو ما بين برقة شرقا وبجاية غربا
2 ـ المغرب الاوسط هو ما بين بجاية شرقا ووادي ملوية غربا
3 ـ المغرب الاقصى هو ما بين وادي ملوية شرقا والبحر المحيط غربا

وأطلقوا اسم قسطيلية على ما يعرف اليوم باسم الجريد وهو جزء من جيتولية حسب اصطلاح من قبلهم . فلعل لفظ قسطيلية مأخوذ من جيتولية بضرب من التغيير وقد كان الرومان يسمون عمالة تونس افريقية «AFRIQUE» ولما جاء العرب استعملوا هذا الاسم بازاء معان ثلاث :

قال صاحب المؤنس : تطلق افريقية على القيروان خاصة ؛ وعلى ما بين وادي الطين وبلدة باجة ؛ وعلى المغرب كله .

ولما قسم المتأخرون الكرة الارضية الى قارات خمس اطلقوا اسم افريقية على القارة الواقعة ما بين المحيط الاطلانتيكي غربا ؛ والمحيط الهندي والبحر الأحمر شرقا ؛ والبحر الابيض شمالا ؛ وملتقى المحيطين جنوبا . واذ ذاك اطلقوا على المغرب اسم افريقية الشمالية .

ان المغرب بجميع اقسامه ـ او افريقية الشمالية ـ منفصل عن بقية افريقية بصحار يتعذر سلوك بعضها ويتعسر سلوك بعض آخر ؛ لذلك ضعفت الروابط بينه وبين اقسام بقية القارة حتى كاد لا يعد منها ؛ وهو يكون وحدة جغرانية وجنسية ودينية وتاريخية : فان هواه واحد وطبيعة أرضه واحدة ؛ وسكانه من قديم الجنس البربري ؛ وديانته ـ قديما ـ الوثنية ثم جاءت المسيحية فكادت تعم عليه ثم جاء الاسلام فلم يدع قلبا الا فتحه واستقر به الاستقرار النهائي ؛ والأمم التي فتحته قبل الاسلام وبعده كان فتحها متحدا وان اختلفت جهته ؛ فالرومان ـ مثلا ـ لكونهم بحريين جاءوه من الجهة الشمالية ؛ والعرب لكونهم اهل صحار جاءوه من الجهة الجنوبية .

2 ـ الحدود

قد علمت ان وطن الجزائر عبارة عن موريطانيا الشرقية ونوميديا وجيتولية فحده الشمالي البحر ؛ وهو الحد الطبيعي للمغرب كله .

وحده الجنوبي العرق وهو عبارة عن سلسلة جبال رملية تبتدىء من المحيط غربا وتنتهي شرقا بالنيل المنحدر من الجنوب الى مصر ؛ وهذا هو الحد الطبيعي لجنوب المغرب ايضا .

وحده الغربي وادي ملوية الذي هو حد موريطانية الشرقية ، وحده الشرقي طبرقة التي هي حد نوميديا .

تقرر هذا الوطن على هذه الحدود منذ العصر القرطاجني ، وينقسم داخله انقساما اداريا الى ايالات تختلف باختلاف انظار الدول والملوك . وربما قام ببعضها امراء مستقلون ولم تزل تلك الحدود مرعية الى ان ملك آل عثمان من الترك هذا الوطن فنقصوا من حدوده الشرقية والغربية .

صار الحد الشرقي للجزائر - اذ ذاك - يمر شرق تبسة وسوق اهراس ومرسى القالة . والحد الغربي يمر غرب للامغنية وجبال ندرومة .

وبهذه الحدود الاخيرة صار الوطن الجزائري يشتمل على (700،000) ميل مربع تقريبا (الميل الفا ذراع) .

فاذا ألقيت نظرة على الحدين الغربي والشرقي الفيتهما غير طبيعين فلم تكن للوطن الجزائري وحدة جغرافية الا في ضمن المغرب .

واذا نظرت الى قدم حدوده وانها كادت تعاصر فجر التاريخ رأيت ان له شبه وحدة تاريخية وسياسية .

وقلما تجد أرضا ميزتها الطبيعية بتلك الحدود مثل أرض المغرب .
وقلما تجد وطنا ذا حدود عريقة في القدم مثل الوطن الجزائري .

3 - جو الوطن الجزائري

الوطن الجزائري واقع بالمنطقة المعتدلة ولقربه من خط الاستواء كانت برودته اضعف من حرارته . وقد تأثر جوه بالبحر شمالا والصحراء جنوبا ، فكانت الجهات الشمالية على غاية من الاعتدال : اذ البحر يضعف حرارة الصيف بمياهه ويخزنها فاذا كان الشتاء قاوم برودته بابخرته السخنة ؛ فيعتدل الجو - تقريبا - صيفا وشتاء . أما الجهات الجنوبية فهي شديدة الحر لأن الصحراء تدفع حرارة الصيف ولا تخزنها ؛ واذا جاء البرد لم يجد ما يقاومه فيشتد ايضا .

أما من حيث المطر وعدمه فان الوطن الجزائري ليس له في الحقيقة الا فصلان : فصل الامطار ؛ وفصل اليبس ج والاول يبتدىء من منتصف الخريف الى مضي شهرين من الربيع . واكثر ما يكون المطر في الشهر الاخير من الخريف وشهور الشتاء الثلاثة .

والثاني يبتدىء من أواخر الربيع الى منتصف الخريف . وفي بعض هذه المدة تشتد الحرارة وتقلق البشر خصوصا اذا هبت ريح السموم .

4 ـ الشاطىء الجزائري

الشاطىء الجزائري ـ كشواطىء اقسام المغرب ـ كاد يكون خطا مستويا . ولذلك قلت رؤوسه وخلجانه وكانت مراسيه قليلة العمق . وطوله حسب الحدود الحالية (1200) ميل .

والرؤوس الكبار بهذا الشاطىء هي :

رأس فلكون ، رأس إيفي ، رأس كاكسين ، رأس مطيفو ، رأس كربون ، رأس بوقرعون ، رأس الحديد ، رأس القارد .

والخلجان الكبار هي :

خليج وهران ، خليج رزيو ، خليج الجزائر ، خليج بجاية ، خليج استورة ، وخليج بونة .

ومراسيه المشهورة هي :

مرسى وهران ، مرسى تنس ، مرسى شرشال ، مرسى الجزائر ، مرسى الرجاج ، (وهو مقابل لجزيرة ميورقة) ، مرسى بجاية ، مرسى جيجل ، مرسى القل ، مرسى استورة ، (قرب سكيكدة) ، مرسى بونة ، مرسى مدينة الخرز (وهي القالة) .

وقد ذكر البكري[1] مراسي كثيرة اضربنا عن بعضها لقلة اهميتها كما اضربنا عن رؤوس كثيرة وخلجان غير قليلة لضعف فائدة تعدادها . وتوجد للجزائر جزائر ذكرها البكري[1] أيضا ولكن لم ار داعيا لسردها . واما شبه الجزائر فأهمها شبه جزيرة سيدي فرج التي نزلها الفرنسويون في ذي الحجة ويونيه (جوان) عام 1245 ـ 1830 .

1) المغرب ص 81 ـ 83 .

5 ـ جبال الجزائر

تتكون جبال الجزائر من سلسلتين متوازيتين آخذتين من الغرب الى الشرق . تفرق بينهما الهضاب غربا وتكادان تتلاقيان بعمالة تونس .

تعرف السلسلة الشمالية منهما بالاطلس التلي ؛ والجنوبية بالاطلس الصحراوي . ولا يتجاوز ارتفاع السلسلتين عن البحر الميلين الا قليلا . وجبال الاطلس التلي اكثر ارتفاعا من جبال الاطلس الصحراوي .

وتفترق جبال الاطلس كليهما أما بسهول واما بمضائق . وتختلف اسماؤهما باختلاف القبائل المجاورة لهما . ففي كل مكان يطلق اسم خاص على جبال تينك السلسلتين .

فمن جبال الاطلس التلي جبل تنوشفي ، بجهات تلمسان ارتفاعه (2680) ذراعا . جبال الضاية ، جبال سعيدة ، جبال وانشريس ما بين وادي مينة ونهر واصل اعلاها جبل عين الدنيا . ارتفاعه (3070) ذراعا . في سمتها شمالا جبال الظهرة ، ارتفاعها ميل وجبال زكار ارتفاعها ميل ونصف . جبل كزول (او جزول) مشرف على تاهرت وهي في سفحه . جبال تيطري (3200) ، ما بين منعطف وادي شلف الى الغرب وسهل وادي الساحل ، والى شمالها سهول متيجة ، جبل شنوة . جبال جرجرة . منها جبل لالا خديجة ارتفاعه ميلان وستمائة وست عشرة ذراعا . جبال سور الغزلان يبلغ بعضها (3600) . جبال بابور ، يقرب بعضها من ميلين ، جبال الرحمن . وهي ما بين مرسى الزيتونة (شرق مرسى جيجل) ومرسى القل . قال البكري «وهو كثير الثمار والأنهار ، يسكنه قبائل من كتامة وغيرها ، وفيه مزارع كثيرة ومراع مريعة ، ومنه يحمل عمود الخرط الى افريقية وما والاها ، وفيه اسواق كثيرة ومراسي»[1] ، جبل ايدوغ ناحية بونة يبلغ ميلا .

ومن جبال الاطلس الصحراوي جبل بني راشد (وهو جبل عمور) من قننه ما يبلغ (3600) ، جبال الصحاري ، جبل أوراس ، به أعلى

---

(1) المغرب ص 83 .

جبل في الجزائر يعرف بشلية يبلغ علوه ميلين وستمائة وستا وخمسين ذراعا . وجبال أوراس لها شبه بجبال القبائل ، ويجمع بين الاطلسين جبال الحضنة .

6 ـ مياه الجزائر

ان للجبال دخلا في كثرة المياه وقلتها . فمتى ارتفعت الجبال جلبت اليها السحاب فينزل المطر وكلما ازدادت الجبال علوا ازداد المطر كثرة . وجبال الجزائر ليست متناهية في الصعود كما في بعض اوطان جنوب أروبا فكان المطر بها غير متناه في الكثرة . ولكنه واف بغرض أهل الوطن . فقد تكونت منه أودية كثيرة وبحيرات كبيرة وحمامات شهيرة . وهي مفيدة للوطن .

فان من الأودية ما تقام فيه السدود وينتفع بمياهه في سقي البساتين والحقول وتجعل عليه الارحاء لطحن الحبوب ، ومن البحيرات ما يستخرج منه الملح خصوصا في الصيف عند ما تيبس ، ومن الحمامات ما يقصد للنزهة والخلاعة والتداوي من بعض الامراض .

اما الأودية فليست من الانهار العظيمة ولا يكثر الماء بها الا شتاء بعد نزول الامطار الغزيرة ، وفي الصيف بعضها يبس وبعضها تبقى به مياه قليلة . ولذلك لا تقل السفن العصرية الضخمة ولكن السفن القديمة كانت بعض الأودية تتحملها مثل وادي شلف ووادي سيبوس وقد ذكر البكري[1] عن وادي قسنطينة انه تجري فيه السفن ، وذكر مثل ذلك عن نهر تافنا[2] .

ومن الأودية الكبرى التي تصب في البحر : نهر تافنا ونهر المقطع (ويظن بعض المؤرخين انه هو الذي كان يدعى مولوشات (MOLOCHATH) نهر سيك ، (واظنه نهر سيرات) . وادي شلف وهو اطول أودية الجزائر اذ يبلغ طوله (700) ميل ، ومنبعه من جبل بني راشد ويذهب شمالا مع ميلان الى الشرق أو الغرب في بعض الاماكن ، يمر ببوغار ثم ينعطف الى الغرب ويصب في البحر

1) المغرب ص 63
2) المغرب ص 77

شرقي مستغانم . وتمده في طريقه أودية أخرى ويسمى في أوله وادي الطويل . وادي اسر . وادي سيباو . وادي الساحل يجتمع بوادي بوسلام ويسمى بعد ذلك سهام ؛ ويقسم القبائل قسمين : القبائل العظيمة ـ لارتفاع جبالها ـ غربا ، والقبائل الصغيرة شرقا . وادي الرمل ـ او الواد الكبير ـ (ويعرف قديما وادي مساغا) (AMSAGA) ومنبعه قال البكري : «من عيون تعرف بعيون أشقار . تفسيره سود»[1] يأتي من غرب قسنطينة ويمر بشرقها ثم يذهب شمالا وتمده أودية كثيرة في طريقه . وادي سيبوس يمر بقالمة ويعظم في آخره .

ومن الاودية التي لا تصب بالبحر : وادي الشعير . منبعه بشمال جبل بوكحيل ويصب في شط الحضنة .

نهر سهر منبعه من نواحي برج الغدير ومصبه في شط الحضنة ايضا ويعرف اليوم بوادي القصاب . وادي مزى منبعه بجبل بني راشد وتطلع فيه عيون ثرارة قرب قرية الاغواط بمكان يعرف برأس العيون ومنها شراب الاغواطيين ويسقي بساتينهم . ويعرف في شرقه بوادي جدي . ويصب بشط ملغيغ جنوب بسكرة .

وأما البحيرات فهي ملحة ولا يوجد بها الماء الا فصل الامطار . ولا نحباس مياهها قد تنشأ عنها الحمى ، ولذلك غوروا مياه بعضها كبحيرة عنابة وتعرف ببحيرة فزارة ، وبحيرة هلولة بسهول متيجة ، وسبخة وهران .

وبحيرات الجزائر منها ما هو متسع جدا ومنها ما هو قليل الاتساع . ويعبر عن المتسع منها بالشط وعن قليل الاتساع بسبخة او زاغز او ضائه .

اما الشطوط فتكون بالهضاب والصحاري ومن أشهرها : الشط الغربي في حدود الجزائر غربا ، الشط الشرقي فيما بين جبل بني راشد وجبال سعيدة ، شط الحضنة جنوب المسيلة ، شط ملغيغ جنوب بسكرة ، أما البحيرات الصغيرة فمنها زاغز الغربي بالشمال الغربي من الجلفة ، زاغز الشرقي بالشمال الشرقي منها ، البحيرة في عمالة قسنطينة تقطعها السكة الحديدية الذاهبة من قسنطينة الى باتنة . وأما الحمامات

الطبيعية فهي كثيرة وموجودة بجميع جهات الوطن الجزائر . منها بعمالة وهران حمام بوحجر ، حمام بن حنيفية . وبعمالة الجزائر حمام ألوان ، حمام ريغة . وبعمالة قسنطينة حمام أولاد زاير غرب ميلة ، حمام بني هارون شمالها ، حمام المسخوطين قرب قالمة . حمام بسكرة .

والعجائز ومن في معناهن من ضعفة العقول ومعبدي الجهل يعتقدن ان لهذه الحمامات ميزة وفيها سرا الاهيا فيدعونها حمامات الصالحين ويقصدنها للتبرك ؛ والعواقر يستحمن بها رجاء النسل . ومن سخافة عقول هؤلاء المساكين - رجالا ونساء - اعتقادهم أن الجن هم الذين يتولون تسخين تلك المياه ليستحم فيها سليمان عليه السلام لجهلهم موته . والقرآن ذكر ان الجن جهلوا موت سليمان ثم علموه عندما أكلت دابة الارض من منساته وخر على الارض . ولكن الجهال ينسبون الى الجن كل ما جهلوا اصله من الامراض وغيرها .

7 - مناظر الجزائر

تنقسم الجزائر الى ثلاث مناطق طبيعية متوازنة آخذة من الغرب الى الشرق :

المنطقة الاولى التل والثانية الهضاب والثالثة الصحراء .

1 - التل : هو المنطقة التي على ساحل ابحر وتأخذ في الارتفاع حتى تبلغ الاطلس التلي . وما يلي البحر منها يدعى السواحل . وبمجاورته للبحر صار جوه متوسطا بين الحرارة والبرودة . والشتاء فيه حسن جدا . وأرضه ذات سهول وجبال فكانت صالحة لضروب كثيرة من الفلاحة . اما جباله فقد تقدمت ، وأما سهوله فهي خصبة مأمونة الري . منها سهل وهران مغمور شطره بسبخة وهران . سهل سيك ويسقي من واديه[1] . سهل شلف وهو حار وله مواد كافية لسقيه مستطيل قليل العرض واقع بين جبال الظهرة وزكار شمالا ، وجبال وانشريس جنوبا . سهل متيجة (تعرف قديما بقزرونة) وهو اخصب سهول الجزائر واقع بين ساحل الجزائر شمالا ووطن القبائل شرقا وجبال البليدة ومليانة جنوبا . سهل حمزة بوطن القبائل . سهل عنابة وهو شبيه بسهل متيجة لولا ما به من كثرة الحمى الناشئة عن بحيرة فزارة .

2 ـ الهضاب : وهي المنطقة الوسطى ذات سهول عالية يبلغ متوسط ارتفاعها (1600) ذراعا ؛ وقد تصل (1800) . وبها منخفضات تتكون في بعضها بحيرات . هواؤها جاف : لأن جبال الاطلس التلي تمسك عنها السحاب وجبال الاطلس الصحراوي ـ لتفرقها ـ لا تمسك عنها الرياح السمائم . وتختلف حالها صيفا وشتاء اختلافا كبيرا وكذلك لا تجد المناسبة بين ليلها ونهارها : الشتاء بارد جدا وفي بعض الاماكن تسقط الثلوج بكثرة ؛ والصيف حار ولكن لياليه معتدلة حسنة . والرياح بالهضاب كثيرة والحمى نادرة . ومن الهضاب الواسعة هضبة الحضنة تكثر بها الرمال وهي في جفاف هوائها وحرارة طقسها شبيهة بالصحراء .

3 ـ الصحراء : هي المنطقة الجنوبية وغالب أرضها رمال تذروها الرياح . ولكن بها واحات جميلة ذات مياه مطردة يغرس عليها النخيل وانواع من الاشجار ويسقى بها بعض الخضر وقليل من الزرع .
وبها هضاب لا تنبت شيئا تدعى «الحمادة» وكثبان من الرمل تمسك الندى فينبت بها بعض الاعشاب ترعاها الجمال . وبها أودية لا تجري بالماء الا بعد نزول المطر الغزير . ومن واحاتها قرارة بوطن توات واكبر قراها عين صالح ؛ واحة فجيج شمال توات ؛ واحة المنيعة ؛ واحة ورجلة .

---

8 ـ الغابات والنباتات الطبيعية

الجبال الجزائرية كلها ذات اشجار متنوعة ونجوم مختلفة . وليست الاشجار والنجوم مختصة بالجبال بل توجد في غيرها ايضا .
ومن الغابات الشهيرة غابة ثنية الأحد ، غابة عزازقة بوطن القبائل ، غابة بابور ، غابة سوق اهراس ، غابة أوراس .
ومن الاشجار البطم ، والبلوط ، والخروع ، الخرنوب ، الخلاف (وهو الصفصاف) الدردار ، الدفلى ، الضال ، الضرو ، السرو ، الصنوبر ، الارز ، العرعر ، العشرق ، الطرفاء ، القصب ، الكافور ، الكرم ، النبق ، النشم ، الريحان ، الكروش ، ومن النجوم لبهار ، الحرشف (والعامة تقول الخرشف) الحرمل ، الحسك .

الحنظل ، الخبازى ، السلق ، شقائق النعمان ، عنب الثعلب ، العرفج ، الكراث ، الكرفس ، البرجس ، الصعتر ، الديس ، الحلفاء ، الدرين ، والثلاثة الاخيرة كل منها مختص بمنطقة : الديس بالتل ، الحلفا بالهضاب ، الدرين بالصحراء .

ليس في استطاعة احد ان يحصي نباتات الوطن الجزائري . ولكنها على كثرة اصنافها وعظم فوائدها لا ينتفع بها الجزائريون الا انتفاعا بسيطا .

فلو علموا خصائصها واحيوا علم الكيمياء لخدموا الطب خدمات جليلة وكان لهم السبق في الميدان الاقتصادي . وليس هذا بالأمر الوحيد الذي فرط فيه شعبنا . فمتى ينتبهون من هذه النومة التي كاد امرها يجاوز امد نومة القبر ؟ فيتلافون ما فرطوا فيه ويجدون فيما تكاسلوا عنه .

لا يمكن أي احد ان يتكهن باليوم الذي تبعث فيه الأمة الجزائرية من مرقدها فان المستقبل لله وحده ، ولكن لا نيأس من هذا اليوم الميمون فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون . أليس الله بقادر على ان يحيي الموتى بلى انه على كل شيء قدير .

9 ـ الحيوانات الوحشية

يعيش في غابات الجزائر وفلواتها حيوانات كثيرة لا يأتي عليها العد . ولكن اذكر بعضا من ذوات الاربع والطير والحيات .

فمن ذوات الاربع الأرنب ، الأسد ، ابن عرس ، ابن آوى ، الثعلب ، الخنزير ، الذئب ، سنور البر ، الضبع ، القرد ، الكركند ، كلب الماء ، النمر ، اليربوع ، القنفذ ، الضربوب ، الغزال ، الوعل .

ومن الطير البازي ، الببغاء ، البلبل ، البوم ، الحبارى ، الحدأة ، الحمام ، الحجلى ، الخفاش ، الرخمة ، الزرزور ، السماني ، الصقر ، العصفور ، العقبا ، الغراب ، القنبرة ، القطا ، الكروان ، النعامة ، النسر ، الهدهد .

ومن الحيات الافعى ، الثعبان ، العقرب ، الحرباء ، الضب ، الورل .
ان في وفور السباع العادية والحيات السامة ما يقوي الذكاء ويعين على الاختراع لأن مجاورها مضطر الى وقاية نفسه منها ومحتاج الى تدبير حيل للانتقام منها . وقديما قيل : «الحاجة أم الاختراع» .
وفي وفور الصيد من الطير وغيرها ما يحمل على تعلم الرماية والحذق فيها . اذن فالشعب الجزائري ـ بطبيعة وطنه ـ من انبل الشعوب واحكمها رماية .

10 ـ المعادن

الجزائر مشهورة من قديم بالمعادن وخصوصا معادن الحديد
1 ـ الذهب : من معادنها الذهب ولكنه قليل
2 ـ الفضة : ومنها الفضة
3 ـ الالماس : ومنها حجر الالماس
4 ـ الزرنيخ : ومنها الزرنيخ
5 ـ الخيلدون : ومنها الخيلدون ، وهو نوع من العقيق الجيد
6 ـ الرخام : ومنها الرخام ، وهو موجود بجهات كثيرة ولكن نتيجته ضعيفة لأنه لا يصدر الى الخارج لغلاء مؤنة حمله . والمشهور من معادنه . معدن فليفلة قرب اسكيكدة ، معدن شنوة قرب شرشال ، معدن عين تاكبالت قرب وهران . ورخام هذه المعادن رفيع جدا .
7 ـ النحاس : ومنها النحاس ، يوجد بكثرة في عين بربار قرب عنابة ، وفي جبال كتامة ، وفي غيرها .
8 ـ الرصاص : ومنها الرصاص ، يوجد قرب الحد التونسي بكهف ام الطبول ، وقرب الحد الغربي بغار اوبان .
9 ـ الزانك : ومنها الزانك يوجد بجبال وانشريس ، وبو ثعلب بعمالة قسنطينة وغيرهما من النواحي .
10 ـ الحديد : ومنها الحديد . وهو اكثر معادنها واشهرها . والمشهور

من معادنه اثنان ، مقطع الحديد قرب عنابة ، معدن بني صاف بالشاطىء الوهراني .
11 ـ الجبس : ومنها حجر الجبس . وهو موجود بجهات كثيرة . اشهرها وادي تافنا ، أربعاء بني موسى قرب الجزائر .
12 ـ الجير : ومنها حجر الجير . وهو موجود بجميع النواحي .
13 ـ الغاز : ومنها الغاز . يوجد بجبال الظهرة ونواحي غليزان .
14 ـ الملح : ومنها الملح . يوجد الملح الحجري بجهات ميلة والجلفة . ويستخرج غير الحجري من البحيرات والسباخ .
15 ـ الفسفاط : ومنها الفسفاط . وهو زبل طبيعي يستعمل لتطييب الارض الفلاحية والغراسية . يوجد منه كثير بنواحي تبسة وسطيف .

11 ـ الفلاحـــة

أرض الجزائر كريمة البقعة طيبة التربة منبجسة العيون والانهار آخذة حقها من الشمس فكانت لذلك خصبة الجبال والبسائط صالحة لضروب كثيرة من الفلاحة . ولكن عماد ثروتها ودعامة غناها شيئان : الحبوب وهي في الدرجة الاولى معروفة بذلك من قديم . وقد كان الرومان يدعون الجزائر ـ وغيرها من التراب الافريقي ـ «مخزن حبوب رومة» والزيتون وهو في الدرجة الثانية . وهو شجر جبال كتامة والقبائل وبلاد تلمسان .

ان وطن الجزائر وطن خيرات كثيرة ليس من المستطاع احصاؤها . ولكن نذكر بعض ما يحرث به أو يغرس .

فمن زروعها الحنطة وهي انواع متفاوتة في الجودة . الشعير . السلت . وقشرته قشرة الشعير وحبته حبة القمح وتدعوه العامة «شعير النبي» . الحمص ، الفول ، الأرز ، الدخن ، الذرة وهي نوعان ، العدس ، الكتان ، القطن ، التبغ . وهو مما جلب اليها أخيرا بخلاف ما قبله فانها قديمة العهد .

ومن اشجارها الزيتون وهو اعظمها فائدة . التين . وهو انواع كثيرة ويدخر للاقتيات ببلاد القبائل ، الكرم وهو ضروب كثيرة

وجودته مشهورة . النخيل وهو بصحرائها ذو انواع يعسر عدها منها مالا نظير له في سائر البلاد طعما ونكهة . التفاح وهو انواع مختلفة طعما وريحا . الاجاص وهو انواع مختلفة طعما وحجما . اللوز وهو نوعان صلب ولين . البورتقال (الشينة - الشين) الليمون وهو انواع . الزنبوع . الاترج ، الجوز . الموز . الخوخ . وفيه اصناف . المشمش وفيه اصناف تبلغ ثمرة بعضها حجم ثمرة الخوخ . الفستق . العناب وهو كثير بناحية بونة حتى سميت من اجل ذلك عنابة . بوفريوة . السفرجل وهو موجود بجميع جهات الوطن ولكن لسفرجل تيهرت شهرة على غيره ، قال البكري - اثناء الكلام على تيهرت -: «وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ومشما»[1] .

التوت وهو انواع . حب الملوك

وتنبت الجزائر غير ما ذكر من ضروب الحبوب والاشجار ضروبا من الخضر والبقول ، وكل ذلك يدل على أرض خصبة طيبة . ولكن هل ذلك مدح لها أم ذم ؟

ما من أحد الا وهو يرى ان الارض الخصبة افضل من الارض الجدبة . ولكني اراني مضطرا لمخالفة الناس في ذلك والذهاب الى غير ما يذهبون اليه حاكما بعكس حكمهم . فاذا رأى القارىء حكمي هذا غريبا فليتأمل مستندي فيه وماذا أرمي اليه فعساه وافقني او يعذرني على الأقل .

ذلك ان الجنس الذي يكون بالاراضي التي غضبت عليها الطبيعة فجردتها من روعة الجمال وتركتها عجوزا شمطاء يجد نفسه في حاجة الى التوسع وطلب الرزق في غير وطنه . وليس له من زاد يبلغه الى امنيته ولا معين يعينه على تنفيذ طبته الا الشجاعة والدهاء . والدهاء عضده الايمن ووزيره الايمن .

الرأي قبل شجاعة الشجعان

فيقرأ في مدرسة الحاجة دروسا من الدهاء ؛ وتكسبه منازلة الاهوال من صفة الشجاعة على نسبة الخطوب التي قارعها في تحصيل

مطلوبه .

أما الجنس الذي يكون بالارباضي التي منحتها الطبيعة سلطان الجمال وخلعت عليها ضروب الزينة فأضحت عروسا ترمقها الاعين من كل جانب وهي في عزتها لا تحتفل بأحد ـ هذا الجنس تجده راضيا عن وطنه مستغنيا بخطه الوافر عن ان يمد عينه الى غيره . فلا يضطره تحصيل رزقه الى دهاء بعيد القعر ـ عياذا بالله من الافراط ـ ولا يكتسب الشجاعة الا من مطاردة الحيوانات الوحشية ترويضا لنفسه وتتميما للذته .

ولهذه النظرية شواهد عملية فليست النظرة خيالية بل واقعية . انظر الى الأمة العربية النابتة بتلك الصحاري الموحشة المقفرة لما عرفت كيف تتحد وطعمت لذة الاتحاد بجدها قد ملكت نصف المعمور او جله في أمد لا يكفي غيرها من الامم لافهامهم فائدة الاتحاد .

وهذه الأمة الانكليزية الناشئة بتلك الاراضي الصخرية امتد ملكها في جميع القارات الخمس على أمم كثيرة . وليقس ما لم يقل .

فالاراضي الجدبة أيأست غير سكانها من الطمع فيها ودفعت باهلها الى مشاركة الغير في خيرات وطنه او تجريده منها .

والاراضي الخصبة الفتت انظار الاجانب عنها اليها وشغلت اهلها عن النظر الى غيرها . وربما علمتهم الكرم ففسحوا لنزيلهم الذي لم يروا منه مكروها كما فسحت افريقية للفينيقيين . وربما دعتهم الى القناعة فتركوا بعض الاماكن للهاجم عليها من غير ان يستنفدوا قوتهم في الدفاع عنها .

وبديهي ان هذه المساوي للاوطان الخصبة الى جانب محاسنها تنطبق على الوطن الجزائري ، فكيف تجد نفسك يا ابن الجزائر اذا انت فكرت تفكيري ووافقتني في بحثي واستنتاجي ؟

أتسب وطنك ان جاد عليك بخيراته حتى انغمست في الملاذ واهملت واجباته ؟ ام ترى ذلك عذرا يفسل عنك عار الكسل ويبيح لك الخمول والازواء عن العمل ؟ لا ـ لا تنقص وطنك الكريم فان ذلك من خلق اللئيم ؛ ولا ترتد بالكسل وترتض الجمود فانك بذلك تسلم في نصيبك

من الحياة لذوي الجدود ؛ ولا يحملنك ذلك النظر على الاستسلام للقدر . فان ذلك البحث انما يصلح متكأ للأمم التي لم تزل على الفطرة لا تعرف غير وطنها ولا عرفت شيئا من احوال غيرها ليس لها كتاب يرشدها ولا فلاسفة توسع انطاق عقلها ولا ماضي زاهرا يذكي بنفوسها جذوة الحماس ويبعثها على استعادته .

أما ابن الجزائر فلا متكأ له في ذلك البحث . بل كون وطنه بتلك الدرجة من الحسن مما يزيد في حسرته ويحمله على تدارك هفوته ويوقظه الى التفكير في غده وبناء صرح سعادته بيده .

الباب الأول

في ذكر قدماء الجزائر

أهل العصر الحجري

تمهيـــد

كان الانسان في ابتداء وجوده واول عهده بهذه الحياة لا يعرف الكتابة ولا الصنائع والحرف ؛ ولا يهتدي الى ما اودع الله في الارض من المنافع ، فجهل الفلاحة والغراسة واستخراج المعادن .

انما عرف الحجارة فاستخدمها لصيد الوحوش لقوته ، او رد عاديتها عنه ؛ ثم في دفاع المعتدين عليه من بني جنسه ، او الهجوم عليهم .

ولبث على ذلك دهورا طوالا — ولكن مع ترقٍ في صناعتها وتفنن في وجوه استخدامها — حتى اخترع الكتابة وعرف المعادن ودخل حظيرة الحياة النظامية .

ويعرف ذلك الدهر الطويل بالعصر الحجري لأن مدنيته مشتقة من الحجارة . ويدعى أيضا « ما قبل التاريخ » لان الكتابة لم توجد بعد حتى يدون ما على عهده من الحوادث والوقائع وسير العمران والحضارة فالمؤرخ لا يستطيع ان يتحدث عن اهل هذا العصر حديثا مفصلا مستمدا من النقل ، فكان هذا العصر جديرا بان يدعى ما قبل التاريخ .

ان المؤرخين — وان لم يكن لهم نقل عن أهل هذا العصر — لم يعدموا سبيلا للبحث عنه فقد وجدوا من الآثار العريقة في القدم التي حفظها بطن الارض اساسا للكلام عن حياة الانسان الاول . وانار امامهم مذهب النشوء والارتقاء دياجي هذا العصر الحالكة .

ان مذهب النشوء والارتقاء قديم ليس من بنات افكار المتأخرين . والناس ازاءه فريقان : مثبت له معجب به ، ونافٍ له نافر منه .

والحق الذي تشهد له الضرورة ويؤيده القرآن الكريم ان المذهب نفسه — بصرف النظر عن بعض الجزئيات — معقول مقبول .

امـا الضرورة فيكفي لاستحضارهـا نظرة في النبات والحيوان والاجتماع والعمران : فانك ترى النبات كيف يبدو عقب ماء المطر او غيره ثم يأخذ في الرقي حتى يبلغ شبابه المقدر له ، وترى الحيوان يكون نطفة ثم يترقى حتى يوضع ويأخذ في النمو حتى يبلغ أشده ، وترى الرجل يؤسس البيت او الملك ثم يأخذ ذلك التأسيس في الرقي حتى ينال الشرف ويحوز السيادة وينتهي الى درجة من العظمة • ثم ينشأ غيره ويزاحمه ويترقى على حساب انحطاط الاول حتى يضمحل ويحل الثاني محله • وهكذا الشأن دواليك في كل زمان ومكان ، وترى مثل ذلك في العمران أيضا •

واما القرآن فقد قال تعالى — في شأن النبات — : « والذي أخرج المرعى فجعله غثاء احوى » ، وقال في شأن الحيوان — : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين » ، وقال تعالى في شأن الاجتماع — ومثله العمران — : « وتلك الايام نداولها بين الناس » •

واذا ثبت لديك ان المذهب نفسه لا مغمز فيه فلا يضيقن صدرك لبعض الجزئيات التي يقسر بعض الماديين عقلاء البشر على قبولها ويحاولون بها هدم الاديان — مثل ترقي القرد الى نوع الانسان — فان تلك الجزئيات لم تزل وهما ولن تزال خيالا فكيف يصح الحاقها بذلك المذهب الصحيح ؟

وزبدة القول ان الضرورة والدين متفقـان على اثبـات النشوء والارتقاء في النوع الواحد : اما الارتقاء من نوع الى آخر فاقرب من تحقيقه الجمع بين النقيضين •

ولا معارضة بين دعوى ان انسان العصر الحجري كان جاهلا الى

تلك الدرجة ، وما اخبر به الكتاب الحكيم من ان الله علم آدم الاسماء كلها لانه لم يخبرنا انه علم علمه لاولاده بل فيه ما يرشدنا الى ان ذلك خصوصية لآدم اذ ذكر قصة ابنى آدم — وهما لصلبه في رأي بعض المفسرين — وعدم اهتداء القاتل لدفن المقتول • وعلى تقدير ان يكون علم اولاده فان كرور الايام وانتقال البشر من وطن الى آخر مما ينسي ذلك العلم ويذهب به • بل قد تكون الامة العالمة في مكانها لم تبرحه وتذهب الايام والليالي بعلمها حتى يظن الجاهل بتاريخها ان لا سلف لها في العلم • والشواهد على ذلك لا تحصى •

ا ـ اصل قدماء الجزائر

دل الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على ان البشر كلهم من نسل آدم عليه السلام ، وانه هلك جميعه في الطوفان على عهد نوح عليه السلام ولم ينج الا من ركب معه في السفينة ولم يعقب منهم الا ابناؤه « وجعلنا ذريته هم الباقين » •

واتفق المؤرخون على ان ابناء نوح الذين تفرعت عنهم جميع امم الدنيا ثلاثة : سام ، حام ، يافث •

وقد ذكر ابن خلدون في ابناء يافث قطوبال ثم ذكر الامم المتفرعة عنه فقال : « واما قطوبال فهم أهل الصين من المشرق، واللمان من المغرب ويقال ان أهل افريقية قبل البربر منهم ، وان الافرنج ايضا منهم • ويقال أيضا أن أهل الاندلس قديما منهم »(1) •

فاذا صحت هذه الرواية — ولصحتها شواهد ستراها — كان قدماء شمال افريقية وبلاد الفرنجة والاندلس ذوي رحم • ولهم اخوة مع الصين بالشرق •

---

(1) ج2 ص10 •

وعلى هذه الرواية يكون شمال افريقية اقدم عمارة من جنوب أوربا ، لان ابناء قطوبال لا شك انهم مروا بمصر — حسبما هدت اليه الآثار — ثم نزلوا افريقية الشمالية • وقد كان البحر الرومي — اذ ذاك — قليل الماء ومتصلا باوربا من جهة صقلية ومضيق جبل طارق • (وقد ذكروا ان الذي حفر بوغاز جبل طارق هو هرقول وقيل الاسكندر)[1] •

والاول اصح فان هرقول متقدم الزمن جدا • اما الاسكندر فمن المحقق ان الفينيقيين — وهم اقدم منه — اجتازوا الى الاندلس في سفن (اواخر الالف الثاني قبل الميلاد) فانتقل بعض ابناء قطوبال من افريقيا الى جنوب أوربا برا — اذ لا سفن لهم في ذلك الحين — سالكين تينك السبيلين • وسنقف على الآثار المؤيدة لهذا الرأي •

2 ـ آثار قدمـاء الجزائر

عثر الباحثون في الوطن الجزائري على آثار لاهل العصر الحجري ، وهي اما منازل لاحيائهم ، واما قبور لموتاهم • واما آلات لحياتهم من مصنوعاتهم ، واما اشياء من مقتنياتهم •

1 — المنازل : أما المنازل فقد وجدت آثارها بالاماكن المرتفعة والكهوف على مقربة من العيون والاودية • وعلة نزول الهضاب والكهوف التمكن من حماية انفسهم من الحيوانات الضارية ، والامتناع من الاعداء الهاجمين • وحكمة الاقتراب من الماء البارز على سطح الارض سهولة التزود منه ، لبساطة حياتهم وقلة اختبارهم للطبيعة •

ومن المنازل المكتشفة منزل قرب معسكر ومنازل اخرى بجهات وهران ، الجزائر ، سعيدة ، عين مليلة ، سطيف ، العين البيضاء ، تبسة•

---

(1) الاستقصاء ج1 ص32 •

2 — القبور : واما القبور فقد وجدت متفرقة ومجتمعة فوق الكهوف والهضاب • وهي مبنية بحجارة غير مصنوعة او بها أثر ضعيف من الصنع ، وملتصقة من غير ربط بطين ونحوها • يتخذون عليها صومعة من حجر كقالب السكر • وكثيرا ما يجعلون عليها صفيا عريضة ويحوطونها بصف من الحجارة • ثم أخذ من خلف الاولين منهم يقلل من هذه الاعمال القبورية حتى صاروا يكتفون بحياطتها بدائرة حجرية ويدعون الصندوق الحجري بارزا على سطح الارض بعد ما كانوا يضعون عليه حجارة كثيرة •

ولهم في الدفن طريقتان : الاولى وضع الميت بمحل وقتي حتى ينفصل لحمه عن عظمه ثم يجمعون عظام الاموات ويضعونها في قبر واحد ، الثانية ان يفصلوا اللحم عن العظم ما عدا المختلط بالعظام ثم يدفنون الهالك جالسا ملتصقا بطنه بفخذيه ولحاه بركبتيه ويجعلون معه اواني ببعضها طعام ويضعون معه أيضا اسلحة واشياء من زينتهم •

وقبور اهل هذا العصر كثيرة بوطن الجزائر ، والبربر يدعونها قبور الجهلاء • وهي ترجع في تاريخها الى العصر الحجري الذي انقرض اصحابه منذ امد بعيد •

3 — الآلات الحيوية : واما مصنوعاتهم الآلية لحياتهم : فمنها هراوي حجرية عديمة الاتقان ، مساحي ، مناقير ، وجدت هذه الاشياء بطلل دار قرب معسكر • ومنها آلات واسلحة مثل الاولى ، عثر عليها قرب الرمشي (مونطانياك) •

ومنها فؤوس كثيرة حجرية متقنة الصنع ، ابر من عظام متقنة أيضا ومنها أوانٍ من طين مزينة بصور • اكتشفت بجهات سطيف وعين مليلة والعين البيضاء ، ووجد معها اشياء من الاسلحة والآلات ومنها محكات لدبغ الجلود واشاف واوعية من خشب •

وهذه الآثار مختلفة في درجة الاتقان حسب اختلاف ازمنتها •

4 — المقتنيات : واما الآثار التي جلبوها للاقتناء من غير ان يكون لهم فيها عمل فمنها اصداف كثيرة برية وبحرية • عثر عليها بجهات وهران والجزائر وسعيدة وعين مليلة ونواح أخرى • وهذه الاصداف يتخذونها للزينة • ومنها عظام حيوانات وحشية وانسية منها فرس الماء والكركدن ونوع من الفيلة عظيم انقطع نسله منذ قرون عديدة ، عثر على عظام هذه الحيوانات قرب معسكر تحت كثيب رمل ارتفاعه ستون ذراعا • ومن تلك الحيوانات الوعل ، الغزال ، الخنزير ، الحمار ، البقر ، الضان ، العنز ، عثر على عظامها بجهات وهران والجزائر وسعيدة وعين مليلة ، ومنها بيض النعام ، عثر على شيء كثير منه بجهات متعددة • وهو مما يتزينون به •

هذه الآثار منها ما هو محلي محض غير مجلوب من وطن آخر ولا مشابه لآثار الامم الاخرى • ومنها ما يشبه مصنوعات قدماء المصريين خاصة ، ومنها ما له شبه بآثار قدماء مصر واوربا الغربية • فان الآلات الحجرية متشابهة في هذه الاوطان • ووجد بمغارات في نواحي وهران اوانٍ من الفخار وحجر الصوان والعظم شبيهة بما وجد في مغارات بجبل طارق • وبناء القبور بالاحجار موجود بغرب اوربا • والطريقة الاولى في دفن الاموات موجودة بصقيلية ايضا • واكثر آثار قدماء الجزائر شبيهة بآثار قدماء مصر •

ان المشابهة بين آثار افريقية وآثار اوربا الغربية دليل لصحة رواية ابن خلدون — وان لم يجزم هو بصحتها — بان سكان هذه الاوطان من اصل واحد • ثم في كثرة مشابهة آثار افريقية لآثار مصر دليل على ان ابناء قطوبال دخلوا افريقية من ناحية مصر • ثم في مشابهة آثار افريقية بعضها لآثار صقلية وبعضها لآثار جبل طارق دليل على ان هذه الامة دخلت اوربا من تينك الجهتين •

ومؤرخو الافرنج احاطوا علما بهذه الآثار وما بينها من المشابهات ولكنهم لم يهتدوا لرواية ابن خلدون •

فأثبتوا بطريق البحث والنظر ان سكان افريقية وصقلية واروبا الجنوبية والغربية متفرع بعضهم عن بعض • ثم افترقوا في تعيين الاصل والفرع : فمنهم من قال : انه لا يعلم — لقدم الزمن جدا — من هي الامة التي بقيت بوطنها والتي انتقلت عنه ؟ ولا متى وقع انتقال المنتقل ؟ ومنهم من جزم — من غير دليل — بان الانتقال وقع من اروبا الى افريقية الشمالية • وانا لا اقف موقف الطائفة الاولى ، ولا اخضع لجزم الطائفة الثانية ، بل أجزم بان الانتقال وقع من افريقية الشمالية الى اروبا الجنوبية والغربية • ومستندي في ذلك الآثار السابقة فانها متصلة من المشرق الى المغرب • ولم تجد طريقا أخرى متصلة بالشرق من جهة أروبا مملوءة بالآثار التي لها شبه بآثار قدماء افريقية •

3 ـ حياة قدماء الجزائر

تختلف حياة الامم بساطة ورفاهية باختلاف درجتها في معرفة وسائلها المادية والادبية • والاستاذ الاول لتلقين تلك المعرفةهي الضرورة والحاجة • وقديما قيل : « الحاجة ام الاختراع » •

وقد هدت الحاجة الانسان الاول الى اتخاذ مسكن يأوي اليه ، وملبس يقيه حرارة القيظ أو زمهرير القر ، ومطعم يحفظ عليه حياته ويقوي بدنه على تحمل عبء الحياة • ومكسب يقتنيه ويدخره ليستعين به في وجه من وجوه الحياة •

1 ــ المسكن : اما المساكن فقد دلت الآثار المكتشفة في غير ما موضع على ان قدماء الجزائر اتخذوها في الاكمات والهضاب واختاروا لها مواضع المياه • وقد قدمنا الوجه في ذلك • ومن وجوه اختيارهم

الهضاب على الوهاد الفرار من تراكم الثلوج على بيوتهم المفضي الى القضاء عليهم تحتها • ذلك بان الرياح تنسف الثلوج عن الامكنة المرتفعة وتنقلها الى الامكنة المنخفضة ، ولم يزل هذا الغرض ببعض جهات الجزائر معروفا معمولا به الى اليوم وقد اتخذوا مدنا وقرى واحاطوها باسوار من الحجارة الضخمة غير منحوتة الا قليلا • وكانت مساكنهم داخل المدينة او القرية في اول عهدهم بالعمارة متخذة من اخشاب ومركبة بكيفية وقتية ليسهل عليهم نقلها حيث ساروا •

وكانت لهم عربات تحمل تلك البيوت تجرها الخيل • وهم لا يأوون الى مدنهم الا متى حز بهم أمر وداهمهم مكروه لا يستطيعون مقاومته بباديتهم •

2 — الملبس : واما لباسهم فكان من جلود الحيوانات التي يصطادونها ، يدل على ذلك وجود محكات لدبغ تلك الجلود واشاف لثقبها وابر لخياطتها •

واتخذوا زينتهم وحليهم من بيض النعام والاصداف • وكانت رؤوسهم غير مكشوفة • يدل على ذلك وجود تماثيل حجرية تشخص انسان ذلك العصر مكسو الرأس بالجلد أو الريش وماسك ثوبه الجلدي على كتفه بزر •

3 — المطعم : واما مطعمهم فكان من البقول وثمار بعض الاشجار الطبيعية وخشاشات الارض ولحوم الحيوانات التي يصطادونها من ظباء ووعول ونعام وخنازير وغير ذلك مما هدت اليه بقية عظامه وما ذهب ولم يبق له أثر •

4 — المكسب : واما مكسبهم فهو حيوانات يقومون بتربيتها او حفظها من عاديات السباع وينتجعون بها مواضع الكلأ ومواقع المياه • وأهل الاراضي الخصبة منهم لا يبعدون عن النجعة بل ان منهم قبائل

اختصت بجهات لزمتها ولم تخرج عنها الى غيرها • قال اغسال Gsell في قوم وجدت لهم آثار بجهات سطيف وعين مليلة والعين البيضاء : « والظن ان بيوتهم كانت من خشب وكثير منها طالت عمارتها • ويظهر ان هؤلاء السكان كانوا قليلي الانتقال » • وذكر في موضع آخر : ان هناك قبائل لم تبرح اوطانها • وسكان الصحراء ابعد القبائل نجعة واكثرهم انتقالا لجدب اراضيهم وقلة العشب والماء الكافيين لمواشيهم•

ومن حيواناتهم الانسية الحمار والضان والعنز ، وقد عرفت هذه الحيوانات لقدماء المصريين فربما نقلها هؤلاء الافريقيون من هناك حين مروا بمصر او جلبوها من بعد • ومنها الخيل ، ويحتمل ان تكون مجلوبة من الشام لتحقق وجودها به منذ احقاب عريقة في القدم • ومنها البقر ، ويحتمل ان يكون اصله البقر الوحشي وراضه أهل هذا العصر حتى تأنس وتناسل • ومنها الفيل العظيم ، وهذا انقطع نسله كما انقرض اهله وانما بقي أثره حسبما سبق • ومنها الكلب ، وظنه بعض المؤرخين من المتأخرين متفرعا من الذئب • وهو من اغراقهم في الاندفاع خلف تيار مذهب النشوء والارتقاء وعدم تحريهم في تطبيقه ولو اتقنوا درس الطبيعة لما حملوا على هذا المذهب أكثر مما يتحمل ، ولما الصقوا به جزئيات جهلوا أصلها وهو لا يتسع لها • وقد نطقت التجربة والاختبار بان الذئب — ولو ربي — لا يصير كلبا • ولله صفاء اذهان العرب اذ تقول امرأة منهم أخذت جرو ذئب وارضعته نعجة لها فلما كبر أكلها :

بقرت شويهتي وفجعت قلبي   وانت لشاتنا ولد ربيب
غذيت بدورها وربيت فينا   فمن انباك ان اباك ذئب ؟
اذا كان الطباع طباع سوء   فلا لبن يفيد ولا حليب

ولم يوجد اي أثر يدل على معرفة هذا الجيل للفلاحة • اما المعادن

فكانوا يجهلونها بتاتا • وانما عرف من بعدهم النحاس فسمي عصرهم بالعصر النحاسي ، ثم ترقوا الى معرفة الحديد فسمي هذا العصر بالعصر الحديدي • ومازال العالم في هذا العصر الى اليوم لوفور منافع الحديد ولذلك ذكره الله من بين سائر المعادن بسلوب يدل على عموم حاجة البشر اليه في جميع الازمان اذ قال : « وانزلنا الحديد فيه بآس شديد ومنافع للناس » •

4 ــ ادوار مدنية قدمــاء الجزائر

مكث قدماء الجزائر — كغيرهم — احقابا لا يعلم تقديرها الا العزيز العليم ومدنيتهم محصورة في الحجارة : يستخدمونها في جميع شؤونهم الضرورية والكمالية • غير انهم كانوا يترقون — وفق ناموس النشوء والارتقاء — في احكام صنع الحجارة و تقانها ، ويتفننون في نقشهــا وتنميقها •

وقد قسم المؤرخون ذلك العصر السحيق الطويل ــ حسبما هدتهم الآثار المختلفة صنعا وزمنا ــ الى ثلاثة ادوار :

1 — عصر الحجارة القديم • كان الانسانفيه فياول عهده بالطبيعة جاهلا بطرق الاستفادة منها مقتصرا في حياته على استعمال ما اهتدى اليه فكره الابتدائي من المواد الطبيعية التي يسهل تناولها من غير حاجة الى حذق في صناعتها • استعمل من الحجارة مع تهذيبها قليلا جهازه الحيوي •

وقد عثر الباحثون علىشيء من هذا الجهاز بجهات من الجزائر تقدم ذكرها • من ذلك هراوي ومناقير ومساح • وهي من اقدم ما عرف من مدنية الجزائريين في ذلك العصر •

2 — عصر الحجارة الاوسط • تقدم الانسان في هذا الدور قليلا

فرقى الصناعة الحجرية ، ومد يده الى غير الحجارة أيضا : اتخذ من مغارات الكهوف اكنانا ؛ وصنع الفؤوس الحجرية ، وجعل ابرا وخناجر من العظام ؛ وأواني من بيض النعام •

وآثار هذا الدور متوفرة فيما بين قابس شرقا وسطيف غربا •

3 — عصر الحجارة الحديث • في هذا الدور اتقن الانسان صناعة الحجارة وتفنن فيها وتوسع في الاستفادة منها ولم يقف عندها فقط : اتخذ بعض جهازه الحربي — مثل السهام — من الحجارة ، ورسم عليها الرسوم العجيبة •

وقد عثروا على بعض تلك الرسوم بجبل بني راشد ووادي ايتل وجهات قالمة واتخذ الاواني الطينية للطبخ (مما يدل على تعرفه الى النار)•

وصنع الاوعية من الخشب ، والعربات تقودها الخيل لنقل الآلات الحربية والبيوت الخشبية • واتقن التصوير فرسم صور الحيوانات ومناظر الاصطياد • واشرف على المبادىء التاريخية فرسم على اواني الفخار اشكالا هندسية تمثل الكتابة • وقدر علماء الآثار قدم تلك الاواني الفخارية بنحو ستة آلاف سنة قبل المسيح عليه السلام •

مدنية أية أمة من الامم مستمدة استمدادا علميا من معقولها ودرجة تفكيرها ، واستمدادا عمليا من كسب ابنائها وجهودهم ، ويتكون عقلها وعملها من طبيعة المكان الذي تقطنه ؛ وتتأثر بما تشاهده من جيرانها او يبلغها من اخبار الامم الاخرى •

ولهذا كانت مدنية قدماء الجزائر ذات اقسام ثلاثة :

1 — مدنية محلية لا مشابهة بينها وبين مدنيات الامم المجاورة لها • من ذلك مدنية اطلق عليها اسم « الصناعة الجيتولية » وآثارها تبتدىء

من قابس شرقا وتذهب جنوبا الى جهات قفصة وتنتهي غربا بنواحي سطيف •
ومدنية اطلق عليها اسم « الحضارة الصحراوية » وآثارها قائمة الى اليوم بوادي ريغ ووادي مزاب •
2 — مدنية تشبه مدنية قدماء مصر وشمال افريقية الشرقي •
3 — مدنية تحاكي مـدنية جنوب اروبـا والاندلس المجاورة لها غربا •

من تأمل الآثار الجزائرية — وسائر افريقية الشمالية — وامعن النظر فيها، الفى ان مدنية هذا الوطن كانت شديدة التأثر من ناحيةالشرق قليلته من جهة الغرب • بل قد تكون مدنية هذا الوطن هي التي اثرت في مدنيات جنوب اروبا وغربها حسب البحث السابق •

والقضايا التاريخية ناطقة بانشراح صدور الافريقيين عموماللحضارات الشرقية وسرعة تأثرهم بها ، ومحاربة المدنيات الغربية وتقززهم منها • وقد يعثر الباحث في بطون التاريخ على جزئيات لا تؤيد هذا الحكم ، ولكنها نادرة لا تقوى على مضادته او نقضه •
وهكذا ترى الجزائر (وجارتيها) من حين مهدها معترفة بفضل الشرق مهبط الوحي ووطن النبوءة ومعدن الحكمة •

5 ـ لغة قدمـاء الجزائر

ذكر غسال في كتابه الجزائر في القديم : « ان لغة قدماء مصر والنوبة والحبشة والبربر ترجع الى أصل واحد • » وقد لخص بيروني في كتابه « المسألة الافريقية » كلام غسال • وبيرنار Bernard في هذه المجلـة : « وتشبه لغتهم (البربر) لغات الشمال الشرقي من افريقية ولغات اروبا الجنوبية والغربية » •

وقد عبر هؤلاء المؤرخون عن قدماء افريقية الشمالية بالبربر لاعتقاد جمهور المؤرخين انهم اول من عمرها • والصواب انهم مسبوقون بأمة العصر الحجري وهي غير أمة البربر • افصحت عن ذلك رواية ابن خلدون ، ويعضدها قول غسال نفسه أثناء الحديث عن القبور الاثرية : « والبربر ينسبون هذه القبور الى الجهلاء • وهؤلاء كانوا وثنيين وانقرضوا منذ دهر بعيد جدا » • اذ لا يخفى ان البربر لم ينقرضوا وانما انقرضت الامة التي سبقتهم الى شمال افريقية وهي أمة العصر الحجري •

وتشابه لغات هذه الامم شاهد آخر يضاف الى ما تقدم من الشواهد على صحة رواية ابن خلدون التي صدرنا بها الكلام على أصل قدماء الجزائر • ثم وقوف الشبه من جهة الغرب في جنوب اروبا وامتداده من جهة الشرق مما يؤيد رأينا السابق ان ابناء قطوبال اتوا على مصر الى افريقية ومنها ذهبوا الى ما يليهم من اروبا •

6 ـ ديانة قدماء الجزائر

اثبت الباحثون على الآثار ان لهؤلاء القوم ديانة : والديانات اصلها الوحي • فلا بد ان تكون هذه الامة اخذت اصول ديانتها عن رسول من الرسل •

وقد قال تعالى : « وان من امة الا خلا فيها نذير » ثم دخلها التحريف والتبديل والغلو في تعظيم بعض المخلوقات حتى أمست وثنية • ولا أظن أمة تنشأ على فطرتها تكون وثنية تعتقد النفع والاضرار الناشئين عن الاختيار في الشمس او القمر او أي مظهر آخر •

وانما تخضع الامم ذوات الفطر التي لا عهد لها بأي نزعة ، للدين الصحيح • فاذا ألفت الاذعان للدين وتمكن منها الايمان باشياء من

المغيبات ، ثم طرأ عليها الجهل ــ ظهر فيها من الدجاجلة من لهم اغراض شخصية يعملون لتحصيلها باسم الدين والدين هداية عامة لا آلـة يستخدمها اصحاب الغايات الذميمة لبلوغ غاياتهم • لا جرم اضطر كل دجال من البشر في أي عصر الى تحريف الدين بالغلو احيانا والابتداع تارة • واذ ذاك يغرس اشجار الوثنية في تربة الجهل الثرية ، تسقيها تلك الامة الجاهلة بخيالاتها واوهامها حتى تعظم وتنتشر فتحجب شمس الدين الصحيح وتغطي بدور العقول النيرة •

وفي ظلام هذه الاشجار الحالك تعيش الامة عيشة وثنية : لا هي من الانعام عديمة الشعور بغير حاجتها الى ما يحفظ حياتها الاولى ، ولا هي من البشر تحكم العقل وتتقاضى اليه فيما تأتيه من ضروب الاعمال • « اولئك كالانعام بل هم أضل سبيلا » •

أما الديانة التي عرفها الاثريون لقدماء الجزائر فهي عبادة الشمس والقمر (وهما من معبودات المصريين) ، وعبادة بعض الحيوانات منها القرد والثور والكبش والتيس • وجد بجبل بني راشد تمثال يدعى « أتون » كانوا يتخذونه الهاً وهو صورة تيس على رأسه دائرة الشمس •

وكانوا يعظمون العيون والاشجار والجبال ، ويحترمون الاموات يشيدون لهم قبورا ضخمة •

وقد وقع شعبنا فيما يقرب من هذه الوثنية « والتاريخ يعيد نفسه» فمن آثار عبادتهم للشمس ان الولد حينما يثغر وتسقط سنه يرمي بها الى الشمس ،ويقول لها في بعض الجهات الشمالية « اعطيتك فضـة اعطني ذهب » وفي بعض الجهات الجنوبية : « اعطيتك سن حمار اعطيني سن غزال » •

ومن تعظيمهم لبعض العيون انهم يتبركون بمياهها ويستشفون بالشرب منها ويرجون منها النسل ويقربون لها القرابين الدجاجية •

ومن تعظيمهم لبعض الاشجار انهم يجتنبون قطعها واحتطاب ما سقط من عيدانها ويعلقون بها الخيوط رجاء ان تقضي حاجاتهم ، كما يعلق احدنا باصبعه خيطا كي يذكر به ما يخشى نسيانه .

ومن تعظيمهم للجبال تقديم النذر من الاطعمة والانعام لبعض الكهوف وزيارتها زرافات ووحدانا . وتطييب رائحتها بالبخور ومياه الرياحين. وقد يتأولون ذلك بان احد الصلحاء مر بهذا الكهف او جلس عنده . وعلاوة على كون هذا التأويل غير مبرر لفعلهم فان الصلحاء جلسوا في غير الكهوف أيضا ومشوا في السهول والبسائط .

اما تشييد القبور الضخمة للاموات واتخاذ الحرم لها فقد بالغوا فيه اكثر مما تقدم واربوا في ذلك عن كل امة حتى صاروا يشيدون القباب لا على ضريح ولا على أثر من مواقع اقدام صلحائهم . وشرح هذا المقام يوسع دائرة خروجنا عن موضوع الكلام .

وكان قدماء الجزائر يعتقدون بحياة أخرى غير الحياة الاولى ، ويرون ان الميت في قبره اكمل منهم علما .

يدل على ذلك ما تقدم من ان منهم من يضع الميت في قبره جالسا ملتصقا بطنه بفخذيه ولحاه بركبتيه ، يمثلون بهذا الوضع هيئة الجنين في بطن أمه . كأنه بموته ولد في عالم آخر ، ولذلك يضعون معه أطعمة واشياء من الزينة . واذا اهمهم أمر لم يهتدوا الى وجهه استشاروا الموتى من اسلافهم :

ينام أحدهم على قبر سلفه وما رآه في منامه عمل بمقتضاه في يقظته وللجزائريين اليوم حظ وافر من هذه العقيدة المباركة على الانحطاط والتقهقر .



نقوش من تاسيلي



زرافة من تاسيلي

الباب الثاني

في ذكر البربر

تمهيـــد

البربر أمة من أقدم أمم العالم واشهر أجيالـه • عاصرت العرب والفرس واليونان والروم • معروفة بعز الجانب واباية الضيم والدفاع عن الشرف •

وقد زاحمت الامم ودافعت الملوك عدة آلاف من السنين • حاربت بني اسرائيل بالشام • وهاجرت الى وطن افريقية والمغرب فاستولت عليه في اعصار لا يعلم مبتداها الا العليم الخبير ، واستوطنته بطونها وقبائلها ، وكانت ذات كثرة ومنعة فملأت وهاد المغرب ونجاده ، واعفت ذكر الامة التي سبقتها اليه ، ثم كانت لها مواقف مع الدول العظمى ذات المطامع في وطنها • هاجر الفينيقيون جيرانهم بالشام الى وطـن البربر ونزلوا عليهم ضيوفا كراما فاكرموهم • وعاشت الامتان في وئام قرونا ، البربر يعضدون الفينيقيين في حروبهم خلف البحار ، والفينيقيون يحترمون حرمة البربر — خصوصا بربر نوميديا — فلا يسومونهم بذل ولا ينالون من شرفهم ولا يمدون ايديهم الى ما تحت تصرفهم • وقد وقعت بين الامتين حروب الا انها كانت في مباديها من قبيل الثورات التي لا تخلو منها الامة الواحدة ، وفي الاخير تمشت حيل اروبا بين البربر وانطلت عليهم دسائسها فعضدوا الرومان في حروب قرطاجنة طمعا في الاستقلال بحكم وطنهم واسترداد ما أخذته منهم قرطاجنـة معلمتهم الحياة والنظام •

ولما انكشف لهم الحجاب عن مقاصد الرومان اخذوا يحاربونهم — والظفر حليفهم — ولم يجن الرومان من تعنتهم في محاربة البربر غير الاستيلاء على بعض المدن وما حولها من البسائط على طول المدة وكمال العدة •

ولم تزل هذه الأمة النشيطة الحربية ــ قبل الاسلام وبعده ــ تقف في وجوه الهاجمين وتثور على الظلمة المستبدين وتنهض للتخلص من وطأة الاجنبي على حريتها وازاحة كابوس المستعمرين عن مقلتي حياتها .

ملأت بذلك تاريخها منذ سطوع فجر التاريخ ولكن لم تكن الحروب بمانعتها عن مجاراة الامم الاخرى في الحضارة والرقي والتخلق بالاخلاق الجليلة والخلال النبيلة ، فقد عرف التاريخ لها حضارة عظمى ومدنية مثلى ، وظهر منها علماء حكماء وعظماء خبراء في الدين والسياسة والعمران قبل الاسلام وبعده وسترى ــ ان شاء الله ــ في الصحائف التالية ما ينير امامك حقيقة هذه الأمة العظيمة .

ا ــ اصـــل البربر

الحديث في أصل البربر من اكثر الاحاديث اضطرابا واوسعها خلافا بحث فيه المؤرخون قديما وحديثا واطالوا البحث ولكن لم يحصلوا الا على روايات متضاربة وآراء متناقضة .

ولهم في البحث طريقان : طريق المتقدمين من مؤرخي اليونان والرومان والعرب تعتمد على الرواية والنقل ، وطريق المتأخرين من مؤرخي الافرنج تعتمد على الدراية والنظر الى اللغة والخلقة والصناعة .

ونحن لا يسعنا أن نتتبع كل ما وقفنا عليه ولكننا نحرص على افادة المطالع باقرب طريق فنلخص أقوال الطائفتين ثم نتبعها بنظرة تؤيد ما كان من هاتيك الاقوال اقرب الى الصواب ونزيف ما كان منها خرافة او خيالا .

ا ـ **الطريقة الاولى** : انقسم اصحاب هذه الطريقة الى فرق :

1 ــ فرقة ترى ان البربر نشأوا بالمغرب وليسوا منقولين من وطن

آخر • ومن هذه الفرقة افلاطون من القدماء وفورنال Fournal من المتأخرين •

2 — وفرقة تقول انهم ايجيون من سكان ضفاف بحر ايجه Egée وهو بحر الارخبيل • ومن هذه الفرقة هيرودوتس ، ديودور الصقلي ، بلوتارك •

3 — وفرقة تقول انهم ساميون انساب العرب • ثم اختلفوا من بعد • فذكر بروكوبس — وهو من مؤرخي الدولة البيزنطية عاش في المائة السادسة للميلاد — انهم من العبرانيين والبونيقيين، وروى الطبراني انهم من نسل نقشان — او نفسان — بن ابراهيم عليه السلام • وهي موافقة لقول بروكوس •

وروى ابو عمر عبد البر عن بعض نسابة البربر انهم من ولد النعمان بن حمير ابن سبا • واذن فهم عرب •

وقيل انهم اوزاع من اليمن : قال المسعودي من غسان وغيرهم ، وقال غيره من لخم وجذام •

وقيل من عملاق بن لاوذ بن ارم بن سام • هذا ملخص اقوال الفرقة الثالثة •

4 — وفرقة تقول انهم حاميون : قيل من مصرايم بن حام ، وقيل من مازيغ بن كنعان بن حام •

5 — وفرقة تقول أنهم من الفرس — وفارس قيل من سام وقيل من يافث — روى المؤرخ الروماني سالوستس Salluste عن كتب فينيقية : ان الميد والارمن والفرس جاءوا الى الاندلس في جملة جنود احد ملوك اليونان فلما توفي ذلك الملك عبر هؤلاء الاقوام الى افريقية الشمالية — وكانت عامرة بالجيتوليين والليبيين — واختلط الارمن (وهم من يافث) بالليبيين وكذلك الميد (اخوان الفرس) فغيرت كلمة الميد

بكلمة « المور » وتنقل الفرس في هذا الوطن فلقبوا انفسهم «النوماد» ومعناه الرحل • ثم استولوا على البلاد القريبة من قرطاجنة واستوطنوها فسميت « نوميديا » نسبة اليهم • واندمج من كان قبلهم بهذه الناحية فيهم وامتزج بهم وسمي باسمهم • ومثل هذه الرواية رواية من روى ان البربر من ولد جالوت ، فقد نسب ابن خلدون جالوت الى فارس •

6 — وفرقة تقول انهم من الهند • منها استرابون من متقدمي المؤرخين •

7 — وفرقة تقول انهم اخلاط من أصول : ففي بعض رواياتالطبري انهم من العمالقة وهم ساميون ومن كنعان بن حام ، وقال مالك بن المرحل : البربر من العمالقة وحمير ومضر وقريش (قبائل سامية) والقبط وكنعان (قبيلتان حاميتان باتفاق) •

هذا ملخص اقوال اهل الطريقة الاولى وتركنا بعضا منها ايثـارا للاختصار •

ب = **الطريقة الثانية** : وهي تبحث عن اصل البربر من طريق الخلقة واللغة والصناعة :

1 — اما الخلقة فيوجد في كثير من البربر عرض الاكتاف وضيق الخصر وهذا الضرب قديم بافريقية وموجود بالجزائر وتونس • وهذه الصفة معروفة بقدماء مصر والاسبان والباسك (قوم من السلتينيسكنون شمال الاندلس وجنوب فرنسا الغربي)•

ويوجد فيهم الشقر بالجبال مثل جرجرة واوراس بالجزائر والريف بالمغرب • ادعى بعضهم ان اصحاب هذه الصفة من بقايا الرومان والفندال ولكن غسال يقول : انه لم يبق من هاتين الامتين عدد يمكن ان يؤثر في البربر بل الظاهر انهم بالمغرب من قديم • وقال مرسى ايضا انهم سكنوا هذا الوطن قديما ، ثم قال ولهم مشابهاتكثيرة ـ خلقا وخلقا ـ بامم اروبية •

ومنهم اقوام سمر اللون قصار القامة سخنوا الطبع • قال غسال : وهذه الصفات توجد في سكان الاندلس وايطاليا وجنوب فرنسا وجزيرتي الكورس وسردانيا •

2 — اما الصناعة فمنها اوان طينية تصنع بوطن القبائل وينقش عليها تماثيل ، قال غسال : وقد عثر على نظيرها في قبور مصرية يرجع تاريخها الى نحو اربعة او خمسة آلاف سنة قبل الميلاد • قال بيروني ويوجد نظيرها أيضا بجزر صقلية ومالطة • ومنها تماثيل للحيوانات تصنع بالجزائر ومراكش والصحراء • قال غسال : ويوجد نظيرها قديما بمصر والنوبة • ومنها بناءات للمعابد • قال بيروني : ولها شبه ببناءات معابد اروبا الغربية •

3 — واما اللغة فانه لا مشابهة بين لغات البربر واللغات السامية نحوا وتصريفا ، ولها مشابهة من حيث التركيب بلغة قدماء مصر والنوبة والحبشة والصومال والهوصا ، وفيها الفاظ اروبية وهندية •

وقد اعتنى رين بالبحث فيما بين لغة البربر وبقية اللغات من المشابهات اعتناء لم يشاركه فيه غيره •

وصدر بحثه في أصل البربر بقوله : « ومن الادلة للبحث عن اصل امة لغتها » ثم أخذ يذكر الفاظا بربرية ويناظر بينها وبين سائر اللغات خصوصا لغات أروبا والهند ، مثل لغة السكسونيين (الالمان والانكليز) ولغة السكندينافيين اهل شمال اروبا (السويد والنرويج) ولغة الاترسك (قدماء ايطاليا) قال وتوجد قبائل من قدماء ايطاليا مسماة باسماء قبائل بربرية • ومعاني تلك الاعلام متعددة عند الفريقين وذكر أيضا قبائل اروبية من امتي الغوط والسكيت (ويقال ايضا السكلوت) اعلامها متحدة باعلام قبائل بربرية • ثم سرد تلك القبائل بأسمائها عند الفريقين •

وخلاصة بحث رين : ان اكثر البربر هنديون واروبيون اصلا

ولغة ، وليس في الوطن البربري من الاصل السامي الا قليل ، حتى ان بني هلال الذين جاءوا في العصر الاسلامي اكثرهم طورانيون وآريون !!

وملخص ابحاث هذه الطائفة **ان البربر ليسوا امة مستقلة وانما هي مزيج من أمم شرقية واوربية وحد بينها الوطن .**

ج = نظرة فيما تقدم من الروايات والابحاث .

قد علمت ان ابحاث المتأخرين تعتمد على الصفات والصنائع واللغة وليس شيء من ذلك بمفيد في معرفة اصالة أمة لاخرى او تفرعها عنها وذلك ان للامكنة دخلا في الصفات . فالاقوام الذين يسكنون اماكن متحدة في الطبيعة يتحدون او يتقاربون في الصفات وان اختلفت اصولهم وقد أشار بيروني الى هذه الحقيقة بقوله : « ان مسألة الاوصاف لم تفدنا في أصول البربر شيئا » .

والصنائع اضعف من الصفات في ذلك لانها مما يسهل تعلمه وتنقله خصوصا بين الامم المتجاورة التي كانت بينها علاقات .

وقد اثبت التاريخ ان سكان ضفاف البحر الرومي شمالا وجنوبا تعارفوا ودخل بعضهم تراب بعض : فقد كان الجند الفينيقي مركبا من عدة اجناس كانت حوالي هذا البحر وكذلك من جاء بعد الفينيقيين من الدول ، وقد أقام الجند النوميدي مع رئيسه حنبعل سنين بجنوب اروبا .

واللغات انما تعتبر المشابهات بينها اذا كانت من حيث التراكيب لامن حيث وجود بعض المفردات فيها خصوصا اذا احتيج في تقرير المشابهة الى تغيير بعض الحروف او حذفها وقد ذكر بيروني انه توجد مشابهات بعيدة بين اللغة البربرية ولغات قدماء مصر والنوبة والحبشة والصومال والهوصا ، وقال : « وهي ترجع الى أصل حامي » يريد ان المشابهة بين هذه اللغات كالمشابهة بين اللغات السامية من عربية وفينيقية وعبرية،

ولم يعتبر بيروني مشابهة اللغة البربرية للغات الاروبية وذلك لانها مشابهة في بعض الالفاظ • قال : « واللغة ايضا لا يمكن الاعتماد عليها في اصالة امة لاخرى » •

ولم ار من اعتمد اللغة اصلا للبحث في جنس البربر مثل رين Rinn وقد بالغ في البحث والتنقيب مبالغة لا تجديه في الغرض الذي يقصد اليه شيئا ولكنها تدل على سعة اطلاعه على اللغات وقوة جراءته على الانساب • ناهيك انه لم يبال بوضوح اصل العرب وصراحة نسبها فجعل الهلاليين — على نصوع نسبهم العربي كسائر القبائل العربية — طورانيين وآريين • أي ثقة تبقى في كلام رين بعد اقدامه على العبث بنسب قبيلة من اصرح القبائل العربية نسبا ؟ وهل تثق النفس بما يبديه من المشابهات بين الالفاظ المختلفة الاصول ؟ اما العربية — ولا اعرف غيرها — فقد رأيته عبث بكثير من معاني الالفاظ التي اوردها منها •

لم يكتف رين بالمقارنة بين الفاظ البربر والامم المجاورة لها على ضفاف البحر الرومي حتى طار الى روسيا واتانا منها بمفردات اتعب نفسه في تقريبها من مفردات بربرية !

أي أمة تستطيع ان تحصن وحدتها الجنسية للنجاة من تكلفات هذا الكاتب وفلسفته اللفظية ؟ اذا لم تستطع قبيلة الهلاليين ذلك فليس لاي قبيلة ولا شعب آخر طمع في النجاة من تفرقة هذه الفلسفة المتمحلة •

لو كان لي شيء من جرأة هذا الكاتب لاتهمته بانه لم يكتب مـا كتب بقلم علمي وانما كتبه بقلم سياسي : يريد ان يمزق الجنس البربري كل ممزق ويفرقه شذر مذر ويوزعه على أمم اروبية — بالخصوص — كي تذهب وحدته ويسهل على البلعوم الاروبي ابتلاعه •

وتلك امنية يحلم بها بعض مرضى العقول من السياسيين ولكن لن يلج الجنس البربري في جنس آخر حتى يلج الجمل في سم الخياط •

وههنا اودع طائفة الاعتماد على الابحاث التي لا نتيجة لها غير الشكوك والاوهام ، وارجع الى تمحيص تلك الروايات لاستخراج ما تطمئن اليه النفس منها •

1 — اما القائلون باصالة البربر في افريقية وعدم انتقالهم اليه من وطن آخر فظاهر انهم لم يذهبوا هذا المذهب الا لكونهم لم يعرفوا للبربر وطنا قبل هذا الوطن • ولكن من المعلوم ان آسيا هي مهد الاصول الاولى للبشر ، وانهم لما كثروا وضاق بهم وطنهم الاول أخذوا يتوسعون فيما حولهم من الاوطان ويكتشفونها وطنا بعد آخر •

فهذا غير صحيح ولا معقول الا ان يكون اصحابه لا يعترفون بابوة آدم للبشر ولا باستقلال نوعهم وانما هم منحدرون او صاعدون من سلالة القرود مثلا • وهو رأي أفن او حلم طائش لا يعقل الاخذ به بدلا مما تواتر فيالتواريخ القديمة ان الوطن الاصلي للبشر هو بعض جهات آسيا ، او ايثارا له عما جاء في الكتاب الحكيم ان البشر من آدم•

2 — واما القائلون بان البربر هنديون فهم ابعد عن الصواب من الاولين اذ البربر معروفون بافريقية من قبل التاريخ — كما ذكره غير واحد من المؤرخين — فكيف يكونون منقولين من الهند ؟ واي طريق سلكوها من الهند الى افريقية ؟

ان قالوا طريق البحر قلنا انها لطولها وعظمة البحر في بعضها يتوقف سلوكها على بسطة في علمي الجغرافية والنجوم ومعرفة مهاب الرياح وتقدم في صناعة المراكب البحرية • وكل ذلك مفقود في ذلك العصر السحيق •

وان قالوا طريق البر قلنا ان سلوكها يتوقف على جيوش جرارةواسلحة ممتازة ليتمكنوا من مغالبة الامم التي يمرون بها ، ثم لا يصلون الى افريقية الا بعد سنين طوال مملوءة من الحروب والاهوال • وذلك مما

تتوفر الدواعي لنقله وانتشاره ثم تدوينه في الكتب • ولم تحو كتب التاريخ شيئا عن هذه الرحلة الشعبية التي لا تتيسر حتى اليوم •

3 — اما القائلون بان البربر ايجيون فانما نسبوهم الى وطن ولم ينسبوهم الى أصل بشري • ثم انه وطن ضيق والبربر امة من اوفر الامم عددا • على ان افلاطون اليوناني ادعى — كما سبق — انهم اصليون بوطنهم فلو كانوا منقولين من جهات بحر هيجاي لما خفي ذلك عليه • واهل مكة ادرى بشعابها •

ويصعب على النفس تكذيب هذه الطائفة بتاتا فالذي يظهر ان عرقا ايجيا موجود بوطن البربر ، وهو الذي اوقعهم في تلك الشبهة • ولكن البربر اقدم في هذا الوطن من الايجيين واكثر عددا وأعز نفرا •

4 — واما القائلون بان البربر ساميون فقد علمت اختلاف رواياتهم وقد رد ابن خلدون رواية الطبري انهم من ولد ابراهيم عليه السلام بما محصله : ان البربر كانت لهم من الكثرة في زمن داوود عليه السلام ما يبعد كونهم من نسل ابراهيم لعدم طول المدة بين ابراهيم وداوود طولا يتشعب معه البربر ذلك التشعب •

ورواية بروكوبس بمعنى رواية الطبري وقد علمت ما فيها ، ولو قال هؤلاء بانه يوجد بين البربر عرق عبري لكان صحيحا فقد اثبت الباحثون وحققوا وجود طائفة من اليهود بين البربر من قديم ، حتى انهم لقدمهم لا يعرفهم قدماء مؤرخي الاسرائيليين • ومعابدهم مخالفة تماما لمعابد سائر اليهود • وللعلامة شلوش اليهودي في هذا الموضوع كلام في غاية التحقيق •

والفينيقيون معلوم انهم طارئون على البربر وليسوا مجتمعين معهم في الاصل قطعا • وانكر ابن خلدون ايضا القول بانهم من ولد جالوت او عملاق وقال فيه ، « قول ساقط يكاد يكون من احاديث خرافة » •

ورواية ابن عبد البر عن بعض نسابة البربر انكرها هو نفسه ، وانكرها ابن حزم ايضا وعمم ـ ابن حزم ـ في الانكار اذ لم يقبل كونهم من اليمن قائلا : « وهذا كله باطل لا شك فيه » وقال ابن‌خلدون « انه منكر من القول » ولكنه نقل عن المحققين من نسابة العرب مثل الطبري والسهيلي : ان قبيلتي كتامة وصنهاجة من حمير تركهماافريقش بالمغرب لما قفل من غزوه • قال السلاوي : « وهو قول جميع النسابين من العرب [1] » •

5 ـ واما القائلون انهم من الفرس فقد فسرت‌قولهم‌رواية‌سلوستس: ان ليبية (افريقية) كانت عامرة بالبربر ، وان الفرس انما نزلوا في جوارهم بعد وفاة ملكهم اليوناني •

وعليه فلا تصح دعوى ان الفرس أصل للبربر ، ولا انكار وجود الفرس بافريقية اذ لا منافاة بين الامرين •

6 ـ واما القول بانهم اخلاط من اصول فقول فاسد التعبير • وصواب الحديث ان يقال : ان الوطن البربري فيه أصول غير بربرية • وهذا مسلم لكن غير مفيد في معرفة اصل البربر •

7 ـ واما القول بانهم حاميون من مصراييم فغير صحيح ايضـا ولكنا لا ننكر وجود عرق منهم في الوطن البربري •

والصحيح من هذه الروايات كلها انهم حاميون من مازيغ بن كنعان ابن حام • هذا الذي صححه ابن خلدون قائلا : « والحق الذي لاينبغي التعويل على غيره في شأنهم انهم من ولد كنعان بن حام بن نوح ••• وان اسم ابيهم مازيغ » •

واعتمد كاريت رأي ابن خلدون : ان البربر أمة مستقلة منذ أجيال

---

(1) استقصاء ج 1 ص 29 •

عديدة • وقال الجنرال دوماس : « ان لنا أدلة كثيرةعلى ان البربر من كنعان • نكتفي منها بدليل واحد : احد اعقاب حام يدعى مازيغ ، والى يومنا هذا يسمى البربر انفسهم امازيغ • الا يكون هذا التواطؤ بين الاعلام مفتاحا لاصل البربر ؟ » •

— خلاصة البحث :

يمكننا ان نستصفي من تلك الروايات ونستنتج من هاتيك الابحاث النقط الآتية :

1 — الجنس البربري جنس مستقل في أصله يرجع الى مازيغ بن كنعان ابن حام • انتقل من الشام الى افريقية في أزمان قديمة جدا فصح ان ينسب هذا الوطن لهم •

2 — وقعت مهاجرات الى هذا الوطن في اوقات مختلفة من أمم متعددة منها ابناء مصراييم بن حام • قال دوماس : جاءوا مع البر واجتازوا الى افريقية وتسموا « مور » ومعنى ذلك مغاربة • وتقدم عن سلوستس خلاف ما يقول دوماس في كلمة « مور » •

ومنها قبائل فلسطينية فرت امام يوشع • ذكر ذلك دوماس وفي ابن خلدون ما يؤيده •

ومنها الفينيقيون (وهم ساميون) وقد جاوروا البربر قرونا عديدة فقد اسسوا عوتيقة عاصمتهم الاولى سنة 1101 ق — م •

ومنها عرب يمنيون جاءوا مع افريقش • ومنها قوم ايجيون ومنها قوم من الفرس • ومنها العبريون على ما حققه شلوش Schlousch •

كل هذا تظافرت عليه اقوال جماهير من المؤرخين • وليس في العقل ما ينافي هذا النقل •

3 — البربر أخذوا حظا من لغات هذه الامم وطبائعهم ولكن بعد صبغها صبغة بربرية • قال مرسيي : البربر تأثروا بعدة امم نزلت بوطنهم

او استولت عليهم ولكنهم بقوا بربرا • وقال بيروني : ان الوطن البربري جمع امما مختلفة ولكنها اصطبغت جميعا بصبغة بربرية •

واذن لا نقول في سكان افريقية غير انهم امة بربرية اذ لا يمكن تمييز ما عدا البربر عنهم لغلبة البربرية على غيرها • وهذا لا يخدش في أصل البربر شيئا بل انه يرشد تمسك البربر بجنسيتهم ولذلك لم يندمجوا في غيرهم ، والى كثرتهم ووفور عددهم ولذلك ابتلعوا الجنسيات التي حلت بوطنهم •

وهكذا اصبحت الامة البربرية بنجوة من وصمة التهاون بجنسها وحازت الشرف على الامم التي ابتلعتها ، فان أمة لا تندمج في غيرها الا وقد سجلت على نفسها الوضيعة والحطيطة ونفت عنها كل وجه من وجوه الكرم والفضيلة ، وكتبت للامة المندمجة فيها أسطرا من الفخر والشرف والميزة عليها لا يمحوها الا تداركها بنفسها لجمع شتات قوميتها والعمل باسم امتها •

2 ـ هجرة البربر الى ليبية

علمت من الفصل السابق ان البربر أمة ذات وحدة جنسية كباقي الامم التي عرف التاريخ عصبيتها وعظمتها •

وكان موطنها الشام ثم انتقلت الى ليبية • ونزح ايضا الى هذا الوطن طوائف من أمم أخرى • وحصل الاختلاط والامتزاج بين جميع سكان هذا الوطن تحت اسم البربرية • واذ ذاك صارت الامة البربرية ذات وحدة وطنية مركبة من عناصر متعددة ومفرغة في قالب بربري •

ليس العنصر البربري الاصلي اول من عمر ليبية فقد مر في الباب الاول ان أمة سبقت البربر الى هذا الوطن • وقد عبر ابن خلدون عن

البربر في ترجمة الكتاب الثالث من تاريخه الهام بقوله : **« الامة الثانية من أهل المغرب »** •

اما الروايات في تاريخ هجرتهم الى ليبية فكثيرة واحسنها ما نقله يحي ابن خلدون عن ابن قتيبة : ان خروجهم كان ايام البلبلة [1] والبلبلة هي اختلاف اللهجات وتعدد اللغات فكأنه يقول : قبل حدوث الخط والكتابة •

وهذه الرواية متفقة مع ما يقوله متأخرو المؤرخين من ان البربر هاجروا الى ليبية قبل التاريخ • وهذا عذر من ظن انهم اصليون بهذا الوطن غير منقولين •

وقد ذكر عبد الرحمن بن خلدون روايات اخرى نعرض عن بعضها لظهور سقوطه ، وننقل بعضها ثم نقفي عليه بما يزيل شبهة الاعتماد عليه•

1 — نقل عن المسعودي والطبري والسهيلي : « ان افريقش استجاشهم لفتح افريقية وسماهم البربر • وينشدون من شعره :

بربرت كنعان لما سقتها ‍ ‍ ‍ ‍ من اراضي الضنك للعيش الخصيب [2]

2 — ونقل عن بعضهم : ان يوشع رئيس بني اسرائيل بعد موسى عليه السلام هو الذي اخرجهم من الشام •

3 — ويقول بعضهم : ان داوود عليه السلام هو الذي اخرجهم وان الله هو الذي اوحى اليه بذلك : « قيل يا داوود اخرج البربر من الشام فانهم جذام الارض [2] » •

وقد ابطل ابن خلدون نفسه قول من قال : ان افريقش هو الذي اخرجهم من الشام الى المغرب بان هناك رواية أخرى تقول : « انه وجدهم به وانه تعجب من كثرتهم وعجمتهم وقال ما اكثر بربرتكم »

---

(1) بغية الرواد : ج 1 ص 91 ، وقد عبر فيها بلفظ البلية وفي نسخة بلفظ البلبة . وكل ذلك تحريف البلبلة

(2) ج 6 ص 94 •

وافريقش هذا من ملوك اليمن التبابعة وهو مختلف في زمنه ففي بعض المواضع من ابن خلدون ما يدل على انه قريب من عهد موسى عليه السلام ، وفي بعضها ما يدل على انه بعد سليمان عليه السلام وبين هذين الرسولين نحو من سبعة قرون • وذكر ابن خلدون عن ابن حزم : ان التبابعة « في انسابهم اختلاف وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة» [1] وسواء ارتقى عهد هذا الملك الى ما يقرب من عهد موسى أم تأخر الى ما بعد سليمان فان البربر بوطنهم الثاني اقدم من ذلك كله وفاقا لرواية ابن قتيبة المؤيدة بآراء الاثريين المتأخرين •

ومن قال ان يوشع هو الذي اجلاهم الى المغرب فقد اخطأ واشتبه عليه الامر • ذكر دوماس ان من القبائل التي اضيفت الى البربر قبائل فلسطينية فرت أمام يوشع وفلسطين وذكر ابن خلدون[2] انهم اخوان البربر •

وبهذا يتبين ما في هذه الرواية الثانية حيث خلط اصحابها بين البربر وفلسطين •

واما قول من قال ان داوود (ص) هو الذي اجلى البربر الىافريقية بالوحي فقول ساقط ورواية سخيفة ، لان داوود عليه السلام عاش في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، وقد علمت ان الفينيقيين كانوا أسسوا عاصمتهم الاولى عام (1101) ،وهم انما جاءوا بعد الفلسطينيين ، والفلسطينيون انما جاءوا بعد البربر • وايضا فان البربر ليسوا جذام الارض ، بل هم أمة عاملة نشيطة من اقدر الامم على تعمير الارض واستدرار خيراتها • ومن نظر الى ما كانت عليه افريقية من للعمران المستبحر : مدن عظيمة ، مياه مطردة ، بساتين متصلة ، حقول مزروعة ، علم سخافة تلك الرواية التي لم يستح واضعها حتى جعلها وحيا •

---

(1) ج 2 ص58

(2) ج 6 ص 97 •

هذا ما نقوله عن تاريخ انتقال البربر الى ليبية اما ما انضاف اليهم من الامم فقد كان في اوقات مختلفة يعسر الوقوف عليها جميعها ، ومنهم من كانوا جاليات قليلة لا يهتم المؤرخ بذكر تاريخ استيطانهم لافريقية.

ومن هذه الامم التي كان لهجرتها الى افريقية ضرب من الوضوح أمة الفرس فانهم نزلوا افريقية لما مات ملكهم اليوناني ، هرقليس • ولم اعثر على تاريخ هذا الملك •

ومنهم الفلسطينيون فقد علمت انهم فروا امام يوشع • والمظنون ان يوشع كان في القرن السادس عشر قبل الميلاد • لان داوود عاش في القرن الحادي عشر • وقد ذكر ابن خلدون ان بين خروج بني اسرائيل من مصر وملك داوود (ص) (600) باتفاق • ويوشع انما رأس بني اسرائيل بعد خروجهم من التيه الذي مكثوا فيه (40) سنة •

ومنهم العرب اليمنيون قبيلتا كتامة وصنهاجة اللتان تركهما افريقش بافريقية • وقد علمت ما في زمنه من الاضطراب •

3 ـــ اوصاف البربر واخلاقهم

اذا كان للامكنة دخل في صبغ البشر بما تشاء من الالوان فان منها اوصافا خلقية لا بد للامكنة فيها وانما ترجع الى خاصة جنسية •

وهذا ما دعا بعض المتأخرين الى اضافة هذا المبحث الى مواد البحث عن جنس البربر ولكنه وضع للشيء في غير محله وطلب للنتيجة من غير شكلها فان هذا المبحث انما يفيد في قرابة الامم بعضها من بعض لا في في اصالة امة لاخرى •

والاخلاق من الاشياء التي تتوارث باتفاق الفلاسفة وانما اختلفوا في انها تتوارث عن الاصل ام الوسط ، وهذا الخلاف انما تظهر ثمرته في الاشخاص دون الامم ، لان الامة اصلها هو وسطها ومجتمعها •

اما اوصاف البربر فمنها اوصاف عامة لكل بربري وهي : ان البربري وجهه معتدل ، خط عينيه مستو ليس كبعض الامم التي يكون خطا عينيها عندما يتلاقيان بالانف زاوية منفرجة ، عيناه غير ناتئتين ، انفه متوسط الطول والعرض ، اعضاؤه متناسبة ، قوي البنية ، مستطيع لتحمل الاتعاب وغير سريع التأثر من تغيرات الهواء ، بشرته بيضاء وانما تؤثر فيها الشمس بالسمرة .

1 — ومن الاوصاف ما يختص ببعض الفرق : ففرقة منهم طوال القامة ، مستطيلو الرؤوس والوجوه حواجبهم ناتئة ، انوفهم طوال رقاق . قليلوا شعر اللحية ، اكتافهم عريضة ، خصورهم ضيقة ، ضعاف البنية . وهذه الفرقة موجودة بكثرة .

2 — ومنهم صنف قصير القامة ، طويل الرأس وبه عظام ناتئة ، عريض الوجه ، ناتىء الوجنتين ، عريض الانف ، واسع الفم ، غليظ الشفتين ، ناتىء الذقن ، كثير شعر اللحية ، عريض الصدر والرفغ .

3 — ومنهم صنف ربعة الى القصر ، مستدير الرأس ، عريض الوجه مستدير الجبهة ، غليظ الحاجبين ، قصير الانف ، واسع الفم ، مستدير الذقن ، عريض الصدر . والصنفان الاولان معروفان بالمغرب من قديم الازمنة . وثالثتها توجد بالجزائر وتونس ، والثالث منها مشهور بجربة ومزاب .

واما اخلاق البربري مطلقا فانه فلاح مقيم ، عامل كناز ، تاجر حاذق حربي شجاع ، وقد يكون لصا متمردا ، حار ينتقم معن اغضبه بأكثر مما يستحق . حر متطرف في الحرية الى درجة انه يكره الرآسة عليه ويتقزز منها الى ان تسنح له الفرصة لهدم تلك الرياسة وتخريب سلطانها فخور باصله وعشيرته ، هائم بمسقط رأسه حتى اذا فارقه لضرورة بقي حنينه اليه لا يضعف منه طول الاغتراب بل يزيده قوة التهاب فمتى امكنه العود عاد الى وطنه .

وهذه الاخلاق ترشد الى ان البربري محب لجنسه ووطنه مستكمل لصفات العمل لسعادتهما ودفاع الاجنبي عنهما او على الاقل عدم الرضى عن سلطته ولو طال امدها • وقد ذكر بيروني ــ وعنه اخذنا مادة هذا الفصل ــ ان من اخلاق البربري كونه شحيحا جلفا منقادا للخرافات ومؤثرا لها •

وهذا من هناته فان كونه شحيحا جلفا خلاف الواقع المشاهدوالمتواتر والمسطر في كتب التاريخ ، وسترى ما يقوله ابن خلدون عنهم من صفات الكمال ، وهو رجل عرفهم وعاشرهم في اواخر ايام عزهم ودخل بجاية احدى عواصمهم •

واما انقيادهم للخرافات وايثارهم لها فهو واقع مشاهد في زمننا هذا ولكنه ليس من طبيعتهم بل من طبيعة الجهل الذي ثار منهم وبالغ في الانتقام وامدته في ذلك عوامل من الايام •

وقد كان منهم قبل اليوم عظماء في العلوم والمعارف • منهم بوغورطة الموجود قبل الميلاد ، ابدى في كفاحه للرومان مقدرة فائقة في الحرب والسياسة ، ومنهم يوبا الثاني الموجود قبيل الميلاد ، كان من اعظم الفلاسفة وامهر المؤلفين ،ومنهم القديس اوغسطين الموجود في عصر الانحطاط الروماني ، كان نادرة الوجود علما وفصاحة وتقوى واخلاصا وتفانيا في خدمة دينه وجنسه وغير هؤلاء كثير قبل الاسلام منهم من قصهم علينا التاريخ ومنهم من لم يقصصهم علينا •

اما بعد الاسلام فيكفي المرتاب ان يلقي نظرة على بعض عواصمهم التي كانت من عواصم العلم الكبرى مثل تيهرت وبجاية وتلمسان هذا بالقطر الجزائري فقط • ولا اطيل بذكر المدن الثانوية بله الرجال العظام•

ودونك ما يقوله ابن خلدون عن اخلاق البربر باختصار وتصرف لفظي : واما تخلقهم بالفضائل الانسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة

وما جبلوا عليه من الخلق الكريم فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف • لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون اسوة لمتبعيهم من الامم •

فمن خلقهم عز الجوار وحماية النزيل ورعاية الذمة والوفاء بالعهد وبر الكبير وتوقير اهل العلم ورحمة المسكين وحمل الكل وكسب المعدوم وقرى الضيف والصبر على المكارم والاعانـة على النوائب ومقارعة الخطوب واباية الضيم ومشاقة الدول[1] وقد اطال ابن خلدون في هذا الغرض ولكننا اقتصرنا على ما اليه الحاجة امس •

4 ــ القبائل البربرية الكبرى

البربر أمة ذات قبائل وبطون وعشائر لا ينالها الاحصاء • فانهم كانوا يعمرون افريقية من آخر ايالة مصر الى المحيط الاطلانتيقي ، ويتصلون من ناحية الصحراء بأرض السودان •

وذكر بعض مؤرخي الفرنجة ان البربر في منتصف القرن السادس للميلاد خسروا في حروبهم من البيزنطيين خمسة ملايين من الانفس ، هذا مع انه لم يحارب البيزنطيين جميع البربر كما هو معلوم •

وعلاوة على ذلك فقد جاء العرب عقب هذه الخسارة الفادحة ونزلوا على بقية البربر فالفوهم على غاية العزة والمنعة وذاقوا من بأسهم مـا يحل عزائم غير العرب اولي الاتحاد المتين في ذلك الحين •

لعل هذا الضرب من الاجمال في عظمة البربر وكثرتهم يقيم لي عذرا في عدم تتبع قبائل هذا الجيل ، فلنكتف بذكر القبائل الكبرى التي تعد اصولا لقبائل عديدة • ومتى سنحت لنا فرصة ــ اثناء مرورنا بادوار التاريخ ــ بزيادة تفصيل ودعا المقام الى ضرب من البسط فاننا نشرح ما يحتاج القاريء الى شرحه ونبين ما يفيد المطالع ان شاء الله •

---

(1) ج 6 ص 104

اتفق النسابون من العرب والبربر وتابعهم المحققون من الافرنج — دون المتعثرين في شبه الالفاظ — على ان البربر يجمعهم جذمان عظيمان هما برنس ومادغيس (ويلقب مادغيس بالابتر) ، ويقال في شعوب برنس : البرانس ، وفي شعوب مادغيس الابتر : البتر .

واختلفوا بعد هل هذان الجذمان لاب واحد : فعن بن حزم — وهو من نقدة النسابين — انهما لاب واحد ، والجميع من نسل كنعان بن حام ، وعن بعض نسابه البربر ان البرانس فقط من نسل كنعان ، واما البتر فهم بنو بر ابن قيس بن عيلان بن مضر .

وذكر رين قول من قال ان البربر كلهم من بر وأيد ذلك بأن لفظ برانس كلمة مركبة من ثلاث كلمات وهي : ابير = بر ، ان = اله ، اس = له = بر اله له .

وهذا الضرب من فلسفة رين اللفظية يذكرنا فلسفة العوام في كلمة فرعون ، اذ يقولون : كان اسمه « عون » وفر عن امه فلما سئلت عنه قالت : فر عون ، فعلق به هذا اللفظ وعرف به .

ومنهم من يدعي ان يبارين من الامم الاروبيـــة وانهم هم الذين يسميهم ابن خلدون البرانس . وهذا من البعد بمكان . ذكر ابن خلدون في بطون مكناسة قبيلة « ابا يرون » فلو اعملنا المشابهات اللفظية مطية لادراك حقائق الانساب لقلنا : ان يبارين هي ابايرون وكان ذلك اقرب من دعوى انها البرانس .

والقائلون بان البتر من سلالة بر بن قيس يروون في التحـــاق بر بالبربر روايات واشعارا لا احب ان اطيل بجلبها فليس شيء منها بمطمئنة له النفس ، ومن كان له ذوق سليم ادرك اثر الصنعة في تلك الاشعار .

والصحيح عند حذاق النسابين ان البرانس والبتر جميعا من ولد مازيغ ابن كنعان بن حام .

اما البرانس فيتفرعون الى فروع كثيرة تجمعها سبعة اصول كبيرة وهي : كتامة ، عجيسة ، اوربـة ، صنهاجة ، ازداجـة ، اوريغة ، مصمودة •

قال ابن خلدون : وزاد سابق بن سليم المطماطي وغيره ثلاث قبائل أخر وهي : لمطة ، هسكورة ، كزولة (ويقال لها ايضا جزولة) •

واما البتر فيجمع شعوبهم اربع قبائل كبرى وهي :

ضريسة ، لواتة ، نفوسة ، اداسة •

ومن هذه القبائل او بعض بطونها من يتنصل من البربرية ويعتزى الى العرب • ولكنا تبعنا الجمهور في عدها جميعها بربرية ، ومتى دعانا المقام الى زيادة بسط في انساب بعض القبائل فاننا نفيد القارىء بمبلغ علمنا في نسب تلك القبيلة والله المسؤول في بلوغ المأمول •

5 ــ برابرة وطن الجزائر ومراكزهم بــه

لم يعن المؤرخون اليونانيون واللاتينيون بتفصيل قبائل البربر وبيان مراكزهم • وانما كانوا يميزونهم بأوطانهم : يقولون في أهل نوميديا : نوميد ، وفي أهل موريطانيا : مور ، وفي أهل جيتوليــا : جيتول • وهكذا في أهل بقية اوطان البربر •

ولعل ذلك يرشدنا الى انهم ــ وان كان منهم من استولى على الوطن البربري قرونا طوالا ــ لم يمتزجوا بالبربر امتزاجا يؤهلهم لهذا الضرب من البيان وينير امامهم سبيل هذا النحت من البحث •

ولما جاء العرب امتزجوا بالبربر بسرعة تضاهي سرعة فتوحاتهم ، فأخذوا عن نسابة البربر تفصيل قبائلهم، وجاسوا خلال ديارهم ، فعرفوا مركز كل قبيلة منهم •

كان وطن ليبية او المغرب او افريقية الشمالية وطنا للبربر وقبائلهم،

وكان بعض القبائل مختصا بجهات من شرق هذا الوطن او غربه او وسطه ، وبعضها تعددت بطونه وكثرت شعوبه ، فانتشرت تلك القبيلة بشعوبها وبطونها على الوطن كله ، وكان لها في كل قسم من اقسامه بطن أو شعب •

ونحن نذكر الآن ما كان من تلك القبـائل او البطون والشعوب مستوطنا بالوطن الجزائري مع بيان الجهات التي اختص بها كل قبيل حسبما كان في اول الاستيلاء العربي •

تقدم ان البربر يجمعهم جذمان عظيمان : برنس ومادغيس ، وان الجذم الاول يشتمل على عشر قبائل عظمى والثاني على اربع •

وقد اختص من تلك القبائل العظمى بسكنى الوطن الجزائري دون سواه ثلاث قبائل : كتامة ، عجيسة ، ازداجة •

وكان بهذا الوطن ايضا بطون وشعوب من بقية القبائل الاخرى ما عدا قبيلتين من قبائل البرانس وهما: هسكورة، كزولة، فانهما استوطنتا المغرب الاقصى ، وما عدا قبيلتين من البتر وهما : نفوسة واداسة فانهما اقتصرتا على سكنى طرابلس •

فاما كتامة فهي من اكثر قبائل البربر عددا واشدهم قوة واطولهم باعا في الملك وهي احدى قبائل البرانس عند نسابة البربر ، ونسابةالعرب يقولون : انها من قبائل حمير تركها بالمغرب افريقش احد ملوك التبابعة•

ولهذه القبيلة بطون كثيرة المعروف منها عند ابن خلدون ثمانية عشر بطنا • ومن تلك البطون ما يتفرع الى فروع وافخاذ •

وحوالي القرن العاشر الهجري اختلطت كتامة بمصمودة وامتزجت بها فعفا رسمها واندرست تلك الاسماء التي عرفها ابن خلدون •

من اسماء تلك البطون التي بقيت لعهدنا هذا جميلة •

ومما ذكره ابن خلدون من تلك البطون مصالة • والظاهر انها مزالة

التي صارت اليوم علما لقرية بعد اضافة كلمة فج اليها فيقال فج مزالة. وهي تبعد عن ميلة غربا بأزيد من ثلاثين ميلا .

ومن الافخاذ الصغيرة التي ذكرها ابن خلدون بنو تليلان . وعين مركزهم بقوله : « أهل الجبل المطل على القل ما بينه وبين قسنطينة »[1].

ولم يزل بنو تليلان معروفين بهذا الاسم الى اليوم ومركزهم لهذا العهد بجبال بين قسنطينة والقل كما قال ابن خلدون .

وكتامة بجميع بطونها وافخاذها كانت تقطن الساحل البحري من بونة الى بجاية وتتقدم في داخل الوطن الى حدود جبل اوراس .

ومن مدنها بلزمة ، باغاية ، سطيف ، قسنطينة ، جيجل ، القل ، السكيكدة[2] في مدن اخرى .

واما عجيسة فهي قبيلة عظيمة من قبائل البرانس . كان لها بين البربر كثرة وظهور كان موطنهم شرق صنهاجة وجنوب زواوة بجبال المسيلة وقلعة عجيسة التي صارت من بعد حاضرة آل حماد .

وقد انكسرت شوكتهم في عهد آل حماد وزاحمهم الهلاليون وازاحوهم من مواطنهم فتفرقوا اوزاعا في قبائل البربر منهم من ذهب الى تونس ومنهم من ذهب الى المغرب الاقصى .

وفي ارض بني تليلان اليوم قرية بدوية تدعى عجيسة فلعل اهلها من بعض افخاذ عجيسة ساكنوا بني تليلان .

واما ازداجة (ويقال ايضا وزداجة) فقبيلة عظيمة من قبائل البرانس « وكثير من نسابة البربر يعدونهم في بطون زناتة . وقد يقال : ان

---

(1) ج 6 ص150

(2) ذكر ابن خلدون من مدن كتامة : « السيكرة » واظنها تحريف السكيكدة .

ازداجة من زناتة • وزداجة من هوارة • وانهما بطنان مفترقان • وكان لهم وفور وكثرة (1) » •

ومركزهم بالمغرب الاوسط بنواحي وهران منه •

وفي القرن الرابع للهجرة اضعفتهم الفتن فذهبت ريحهم وانتقل أهل الرياسة منهم الى الاندلس •

واما اوربة فقد كان بعضها بالمغرب الاقصى وبعضها بالمغرب الاوسط ــ على ما يفهم من حديث ابن خلدون عنهم ــ فليست من القبائل المختصة بوطن الجزائر •

وهي ذات بطون كثيرة عد ابن خلدون منها سبعة • وكانت لعهد الفتح العربي اكثر القبائل البربرية عددا واشدها قوة واقواها بأسا وكانوا مستوطنين شمال الزاب • وذكر البكري منهم طائفة حوالي بونة وفي اوائل الفتح العربي ايام عبد الملك ابن مروان دحر الجيش العربي هذه القبيلة الى المغرب الاقصى •

واما صنهاجة فقبيل عظيم من قبائل البرانس • وزعم بعضهم : انها ثلث البربر ونسابة العرب ينسبونهم الى عرب اليمن وانهم تركهم افريقش بالمغرب لما قفل من غزوه • ويقول مرسي وبيروني : انهم من المور والجيتول • وهم ذوو بطون عديدة • نقل ابن خلدون عن بعض مؤرخي البربر انها تنتهي الى سبعين بطنا •

ومواطنهم بالصحراء الى السودان والمغرب الاقصى ، وبالمغرب الاوسط على ساحل البحر من عمالة الجزائر ووهران ويتقدمون في داخل الوطن الى سهول شلف ينتهون غربا بمصب وادي شلف في البحر ويختلطون شرقا بزواوة في سهول حمزة • وذكر البكري او زقور

(1) ابن خلدون ج 6 ص 144 .

شمال المسيلة فقال : « وهي عين عذبة باردة عليها شجرة عظيمة • وهذا آخر حد بلد صهناجة[1] » •

ومن قبائل صنهاجة المعروفة الى اليوم بنو مزغنة اصحاب مدينة الجزائر قبلا وذكر ابن خلدون منها لمدونة ولها مدينة بهذا الاسم • ولعلها لمدية ،واهلها الى اليوم ينسبون اليها بلفظ لمداني •

واما مصمودة فقبيلة عظيمة ذات بطون تبلغ اربعة عشر ولبعض تلك البطون افخاذ وفروع •

مواطنهم بالمغرب الاقصى منذ الاحقاب المتطاولة • وذكر البكري عند الكلام على بونة : ان حولها قبائل كثيرة منها مصمودة •

واما لمطة فقبيلة كبيرة ذات شعوب كثيرة • وهم اخوة صنهاجة ، مواطنهم بالسوس وما يليه من بلاد الصحراء • واكثرهم مجـاورون للملثمين من صنهاجة• قال ابن‌خلدون: ومنهم قبيلة بين تلمسان وافريقية•

واما اوريغة فاحدى قبائل البرانس العظيمة ذات بطون كثيرة منها هوارة • وهم ولد هوارة بن اوريغ بن برنس ، باتفاق نسابة العرب والبربر ويتفرعون الى سبعة فروع •

ومواطن الجمهور من هوارة لاول الفتح بنواحي طرابلس وبرقة •

وذكر البكري قبائل بربرية تسكن حول تاهرت ، منها هوارة تسكن قبلتها وذكر منهم شعبا يسكن مدينة الغدير • وذكر ابن‌خلدون موطنا آخر لهوارة وهو جبل اوراس مع كتامة ولواتة • هذا آخر ما قصدنا اليه من الكلام على قبائل آلبرانس •

وقد كان للواته وضريسة من قبائل البتر بطون استوطنت الجزائر ايضا • ولواتة قبيلة عظيمة تنتسب الى لوا الاصغر ـ وهو نفزاو ـ بن لوا الاكبر بن زحيك • ولها بطون سبعة منها مزاتة وهي اوسعها

---

(1) المغرب ص 65 •

ومنها صدراتة ، ومنها نفزاوة • ومواطن لواتة في القديم بنواحي برقة وطرابلس الى قابس •

قال ابن خلدون : « وكان منهم بجبل اوراس أمة عظيمة •• ولم يزالوا باوراس لهذا العهد مع من به من قبائل هوارة وكتامة[1] » •

وقال أيضا : « وكان من لواتة هؤلاء أمة عظيمة بضواحي تيهرت الى ناحية القبلة وكانوا ظواعن هناك على وادي ميناس » •

وقال أيضا : « ومنهم ايضا بضواحي بجاية قبيلة يعرفون بلواتة ينزلون ببسيط تاكرارت[2] » •

وبطن مزاته منهم كانت له مدينة بلزمه على ما ذكر البكري • وبطن صدراته ذكر البكري انهم حول بسكرة ولصدراته اليوم قرية معروفة بهم في أعالي وادي سيبوس • ونفزاوة هم بنو تطوفت بن نفزاو بن لوا الاكبر بن زحيك •

وكانت لعهد الفتح العربي من القبائل ذات الكثرة والقوة ، ولها تسعة بطون منتشرة في جهات من طرابلس وتونس ومركزها بالجزائر في شرق عمالة قسنطينة •

ومن بطون نفزاوة ولهاصة • وهـي تقطن حيث تقطن كومية • واما ضريسة فمن بطونها بوطن الجزائر : بنو فاتن ، زواغة ، زواوه ، مكناسة ، زناتة •

بنو فاتن هم أبناء فاتن بن ممصيب بن ضريس ، ويتشعبون الى عشرة شعوب : مطغرة ، لماية ، مطماطة ، مديونة ، كومية ، مغيلة ، ملزوزه ، دونة ، كشانة ، صدينة •

وبنو فاتن منتشرون في المغرب تلوله وصحرائه يلون صنهاجة غربا على الساحل الوهراني ومنتشرون في داخل العمالة •

---

(1) ج 6 ص 117 •

(2) ج 6 ص 118 •

فاما مطغرة فقد كانت ذات قوة وكثرة لعهد الفتح العربي تقطن ما بين فاس وتلمسان ، وتتقدم الى جهات شلف وجبل بني راشد .

ومن مدن مطغرة قرية تدعى « جليداسن » وهي على مرحلة من تنس مطلة على فحص شلف ، ومنها تابحريت قرية على البحر الرومي بساحل وجدة ، وذكر ابن خلدون منهم رهطا بالصحراء يقطنون قليعة والي . وهي المعروفة اليوم بالقليعة ويقولون فيها أيضا : المنيعة .

واما لماية فلها افخاذ كثيرة ، كانوا ظواعن بافريقية وجمهورهم بالمغرب الاوسط . ومن مراكزهم به جبل جزول ونواحي وانشريس .

وبطن لماية هو الذي نزل عليه عبد الرحمن بن رستم حينما فر من القيروان الى المغرب الاوسط ، وأسس دولة فيما بعد من غرر دول الجزائر .

وقد انقرضت لماية بانقراض ملك الرستميين وتفرقت اوزاعا في القبائل .

قال ابن خلدون : « ومنهم جربة الذين سميت بهم الجزيرة البحرية تجاه ساحل قابس . وهم بها لهذا العهد [1] » .

واما مطماطة فهم شعوب كثيرة ايضا ومتفرقة في نواحي المغرب كله .و مركزهم بالجزائر بتلول منداس عند جبل وانشريس وجبل جزول من نواحي تيهرت .

واما مديونة فانها تقطن نواحي تلمسان الى جبل مديونة غربا وجبل بني راشد شرقا . وفي جوارهم شرقا بنو يلومي وبنو يفرن ، وغربا مكناسة ، وشمالا على السواحل كومية وولهاصة .

واما كومية ــ ويعرفون قديما بصطفورة ــ فلهم بطون ثلاث : ندرومة ، مغارة ، بنويلول ، ومن هذه البطون تفرعت شعوب كومية

---

(1) ج 6 ص 122 .

وتعـددت قبائلهم ومواطنهم قـال ابن خلدون : على ساحل تلمسان وارسكول •

ولعل ارسكول هي القرية التي ذكرها البكري بلفظ ارشقول عند مصب نهر تافنا في البحر • وذكر البكري من حصونهم حصن هنين على البحر •

واما مغيلة فانها تقطن بالشاطىء الايمن من شلف عند مصبه في البحر ولهم مدينة على البحر تدعى « آسلن » بساحل تلمسان • قال البكري : « وهي مدينة قديمة عليها سور صخر •• ولها نهر يصب في البحر من شرقيها » [1] •

ويساكن مغيلة اخوتهم من ملزوزة ودونة وكشانة • ومن ساحلهم اجتاز عبد الرحمن الداخل الى الاندلس وبذر بذور حضارة كانت من بعد المثل الاعلى •

هذا آخر قول في ابناء فاتن ملتزما فيه الايجاز •

واما زواغة فهم من ولد سمكان بن يحي بن ضري او (ضريس) واقرب ما اليهم من البربر زناتة ، لان ابا زناتة جانا وهو اخو سمكان ابن ابيه • ولزواغة بطون ثلاثة متفرقة في القبائل بطرابلس والجزائر والمغرب الاقصى • وذكر ابن خلدون منهم رهطين بالجزائر : احدهما بجبال وبسائط غرب ميلة على القرب منها ، وهم معروفون حتى اليوم باسم زواغة ، وهذه عبارة ابن خلدون :

« وفي جهات قسنطينة ايضا رهط من زواغة » [2]

ثانيهما بجبال شلف غرب تاهرت • وذكر البكري مدينة شلف فقال : وتعرف بشلف بني واطيل • وهي لزواغة •

واما زواوه فهي قبيلة عظيمة تتشعب الى شعوب عظيمة عرف منها

---

(1) المغرب ص 79 .
(2) ج 7 ص 7 – 8 .

قديما احد عشر بطنا .وهم اخوة زواغة من ولد سمكان بن يحي .
وقال ابن حزم : انهم من قبائل كتامة . قال ابن خلدون : « والصحيح عندي ما ذكره بن حزم . ويشهد له الموطن ونحلة التشيع مع كتامة [1] ».

وقال في موضع آخر : « والمحققون من النسابة مثل ابن حزم وانظاره انما يعدونهم في بطون كتامة . وهو الاصوب والمواطن اوضح دليل عليه . » [2] وغلط من جعلهم اخوة زواغة بان القبيلة التي هي اخت زواغة تدعى زواوة . والقارىء صحف زاي زواوة بواو زواوة فظن زواوة اخت زواغة [3] .

وقد اشتهرت مواطن زواوة باسم القبائل وهذه اللفظة تطلق ايضا حتى اليوم على مواطن كتامة ، وان لم تشتهر فيها اشتهارها في وطن زواوة . وقد يكون هذا الاطلاق عاضدا آخر لما يستصوبه ابن خلدون.

ووطن زواوة بجبال القبائل الكبرى ما بين كتامة شرقا وصنهاجة غربا وعجيسة جنوبا .

واما مكناسة فبطن عظيم من بطون ورسطيف . وورسطيف اخو جانا وسمكان فالثلاثة ابناء يحي بن ضري .

والمعروف قديما من بطون مكناسة ثمانية

وكانت مواطنهم على وادي ملوية من لدن سجلماسة اعلاه الى مصبه في البحر .

وذكر البكري ان من القبائل التي تسكن حول تاهرت مكناسة بجوفيها .

واما زناتة فقبيلة عظيمة من القبائل العريقة في القدم . وبما كان لها من الكثرة تغلبت فيما بعد على بقية بطون ضريسة .

---

(2) ج 6 ص 151 .

(3) المعروف بطرابلس اليوم زوارة بالراء لا بالزاي .

ويرى ديكلوس من متأخري المؤرخين : ان الجيتول اصل صنهاجه زناتة •

قال ابن خلدون : « وكانت مواطن هذا الجيل من لدن جهات طرابلس الى جبل اوراس والزاب الى قبلـــة تلمسان ثم الـــى وادي ملوية •» [1] قال : « والاكثر منهم بالمغرب الاوسط حتى انه ينسب اليهم ويعرف بهم ، فيقال : وطن زناتة »[2] •

قال ابن خلدون : وشعوب هذه القبيلة اكثر من ان تحصى • وعليه فانا نقتصر على ذكر الشعوب التي كانت لها شهرة في التاريخ ، وهي هذه العشرة : جراوة ، اوغمرت ، يفرن ، مغراوة ، واسين ، يرنيان ، ورجلة ، ورنيدين ، يلومي ، ومانو •

اما جراوة فهم ولد كراو بن الديرت بن جانا (وهو زناتة) وكانوا قبل الاسلام أهل كثرة وقوة وفيهم رئاسة زناتة •

موطنهم لعهد الفتح بجبل اوراس • ثم تفرقوا من بعد اوزاعا في قبائل البربر بالمغرب الاقصى وغيره •

واما اوغمرت (ويقال غمرت ايضا) فهم من ولد ورتنيص بن جانا، وكانوا من اوفر بطون زناتة عددا •

قال ابن خلدون : « ومواطنهم متفرقة ، وجمهورهم بالجبال الى قبلة بلاد صنهاجة »[3] وذكر مرسيي من مواطنهم جبل بني راشد •

واما ورجلة (ويقال ايضا وركلة) فهم من ولد وركلة بن فرني بن جانا • وموطنهم بالصحراء جنوب بسكرة • ولهم مصر اختطوه معروف باسمهم الى اليوم •

---

(1) ج 7 ص 7 ـ 8 •
(2) ج 7 ص 2 •
(1) ج 7 ص 50 •

واما يفرن فهم بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا •

وهم من اوسع بطون زناتة • وكانت لهم الرئاسة من بعد جراوة • ومواطنهم فيما بين تلمسان وتاهرت وفي الحضنة وجنوب اوراس •
وكان لهم ملك في العصر الاسلامي بالمغرب الاوسط ثم الاقصى •

واما مغراوة فهم بنو يصلتين بن مسرا • فهم أخوة يفرن كانوا اوسع بطون زناتة وأهل البأس والغلب منهم • وشعوبهم كثيرة • ذكر ابن خلدون منها ثمانية (منها ديغة والاغواط) ثم قال : وغيرهم ممن لم تحضرني أسماؤهم •

وكان لهم في العصر الاسلامي ملك بفاس وسجلماسة (تفيلالت) وتلمسان وطرابلس وغيرها •

وموطنهم بالمغرب الاوسط من شلف الى تلمسان • ولهم مراكز ايضا من اخوانهم بني يفرن بالحضنة وجنوب اوراس •

واما واسين فهم بنو واسين بن يصلتين ابي يفرن ومغراوة • ولهم افخاذ عظمت وصارت ذات كثرة وقوة • منها بنو مرين ملوك المغرب في الاسلام ، وبنو عبد الواد ملوك المغرب الاوسط ، وبنو توجين ، وبنو مصاب (مزاب) ، وبنو راشد ، وبنو رزدال في قبائل آخرى •
ومواطنهم بالزاب ووادي ريغ وجبل راشد الى ملوية •

واما يرنيان فهم اخوة مغراوة • لهم بطون كثيرة وافخاذ عديدة • وهم منبثون في مواطن زناتة ، واختطوا قصورا كثيرة على وادي ملوية
واما ورنيدين فهم بطن من بطون دمر • ولهم شعوب كثيرة وفصائل عديدة منها بنو برزال •

وهم بنو ورنيدين بن وانتن بن واردين بن دمر بن ورسيك بن الديرت •وكانت مواطنهم غرب جبل بني راشد قبلة تلمسان في البسائط

والسهول • ثم انزاحوا عندما غلبهم بنو راشد الى الجبل المطل على تلمسان ، وبنو برزال منهم كانوا بجبل سالات وما اليه من نواحي المسيلة •

واما ومانو فقبيلة من اوفر قبائل زناتة عددا واشدها شوكة • وكانت تقطن الجهة الشرقية من اسافل وادي شلف على نهر ميناس •

واما بنو يلومي فهم أيضا من اوفر قبائل زناتة عددا واشدها بأسا كانوا يقطنون العدوة الغربية من شلف الى جبل هوارة وفحص سيرات ويذهبون جنوبا الى جبل بني راشد •

هذا ما اردنا ايراده من قبائل بربر الجزائر ومواطنهم على ما عرف لهم العرب لاول استيلائهم على المغرب • ولم يزالوا بها الى القرن الخامس الهجري حينما حمل الهلاليون على هذا الوطن حملة ازاحت كثيرا من قبائل البربر عن مواطنها ، وحل الهلاليون محلها •

والظاهر ان المراكز التي ادركها العرب للبربر وعرفوها لهم هي مراكزهم القديمة • اذ لا يعرف التاريخ هاجما غير خريطة افريقية وملك على البربر اوطانهم وحل محلهم بصفة دائمة غير الهلاليين ومن انضاف اليهم من عرب المائة الخامسة • وعندما يحين القول في هؤلاء العرب ونتكلم على شعوبهم ومراكزهم نذكر — ان شاء الله — المراكز الجديدة للبربر • ونزيد القول في شعوبهم وافخاذهم بيانا وشرحا •

6 — الحياة البربرية

عمر البربر وطنهم الثاني ليبية (المغرب) قبل التاريخ • فلا جرم كانت حياتهم في البساطة شبيهة بحياة بقية أهل العصر الحجري في المسكن والملبس والمطعم والمكسب • ولكنهم ترقوا — وفق طبيعة النشوء والارتقاء — في ذلك • وتأثروا بمجاورة الاغريق اولا ثم بمعاشرة

الفينيقيين • وكانوا أسبق مـن الرومان الى الاقتباس مـن حضارتي هاتين الامتين •

عرف البربر ــ كسائر البشر ــ معدن النحاس فانتقلوا من مدنية العصر الحجري الى حضارة العصر النحاسي • ولكنهم لم يلجوا هذا العصر الثاني الا حين اكتشاف معدن الحديد • فاندمج هذان العصران عند البربر في عصر واحد • على أن عصر الحجارة طال امده بدواخل وطنهم • فعاصر الحديد حينا من الدهر •

من الآثار النحاسية المكتشفة بالوطن الجزائري قطع بضواحي مدينة قيصرية ، واخرى بضواحي مدينة اقسيوم • ووجدت ايضا صفائح نحاسية بمنزل في مغارة قرب مدينة صلداي ، ومعها قطع بصددالتكوين لم يزل بها اثر الفحم • وذلك يدل على انها مصنوعة هنالك وليست منقولة من وطن آخر •

1 — المسكن : كان البربر منهم الرحل اهل البيوت التي يخف حملها مهما ارادوا الظعن لانتجاع الكلأ والعشب بمواشيهم ، ومنهم المقيمون اهل القرى والمدن ، يتخذون بيوتهم اما من الخشب واما من الحجارة ويغطون سقوفها بالديس او غيره من النباتات • ولهم في هندسة البيوت اشكال وفي بنائها كيفيات • منها بناء جدارين متوازيين بالحجارة ثم صب الحصا خلالهما حتى يمتليء ما بينهما من الفضاء •

وقد أسس البربر مدنا عظيمة • منها ما طوى عنا التاريخ خبره واعفى كر الغداة والعشي أثره ، ومنها ما بقى ذكره مرعيا لو حوفظ علـى موقعه فلم يزل موضع عمارته مرئيا •

وسنتكلم على ما حفظ التاريخ للبربر من المدن حسبما تدعونا المناسبـات •

2 — الملبس : كان ملابس البربر من الصوف بعـد مـا عرفوا

الحياكة . منها البرنس .وهو ثوب أعلى يسلك في العنق او يوضع على الاكتاف ينسج قطعة واحدة ويترك من أمام مفتوحا ، لا يخاط الا ما يقابل الصدر منه . وهو قديم بينهم ومعروف عند غيرهم ايضا. فقد كان لباسه شائعا بين اليونان والرومان . ووصف ابن‌خلدون برانس البربر بأنها كحل . والبربر معروفون بالمحافظة على العوائد العتيقة فلعل هذا الوصف قديم ايضا . ولم يزالوا حتى اليوم بوطن القبائل ينسجون برانس في غاية المتانة والاحكام . ولونها في الغالب أزرق . فاما ان يكون هذا اللون حدث بعد ابن خلدون واما ان يكون هو الذي تساهل فعبر بالكحولة مكان الزرقة . والعرب تتساهل في الالوان المتقاربة .

ومنها القشابية . وهي ثوب اعلى ايضا له اكمام يسلك في العنق ويخاط من أمام ، لا يترك منه الا الجيب (الرقبة) ولا يلبس البرنس فوقها الا نادرا . وهي قديمة جدا . وكانت من ملابس الرومان أيضا.

ومنها الكساء . وهو قطعة صوف غير مخيطة يشتمل بها الرجال والنساء اشتمال الصماء . وهو قديم أيضا ، ومعروف عند قدماء المصريين .ولم يزل لباسه حتى اليوم شائعا في بعض الجهات . وفي اغلب الوطن الجزائري تفننوا في نسجه ورققوه وزينوه بالحرير فصار من ملابس الزينة يختص به أهل الهيآت ويعبر عنه عرب الجزائر بالحائك .

ومنها السراويل القصيرة او الطويلة ، وهي معروفة ايضا عند الغاليين قدماء الافرنج .

ويلبسون غير ذلك جلود الحيوانات بعد دبغها . وهي من ملابس الغاليين ايضا ما زلنا نشاهدها اليوم عند اعقابهم المتمدنين. أما البربر فقد تركوا هذا اللباس من قديم ، ولم يحافظوا عليه خلافا لعادتهم في غيره .

وقد احسنوا في رفض لباس يقرب صاحبه في المنظر من الحيوانات الوحشية ، ويذكر بأخلاقها في المجتمع صباح مساء •

وكانوا يضعون على رؤوسهم « القنور » • ويرجع عهده الى الالف الثالث او الثاني قبل الميلاد • وقد قدر له ان يعيش — على ثقله حسا ومعنى — هذا العمر الطويل • ولكنه اليوم ادركه الهرم ودب فيه دبيب الفناء ولا ندري متى يحين الوقت الذي يوضع فيه بدار الآثار • وعلى كل حال فلم يكن لباسه عاما • فقد قال ابن خلدون — متحدثا عن عموم البربر — : « ورؤوسهم في الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق » [1] وذكر عن زناتة — وهم من سكان جيتولية على ما سبق — انهم يلبسون العمائم « يلفون الليت والاخدع قبل لبسها ثم يتلثمون بما تحت أذقانهم من فضلها » [2] وكان بربر نوميديا لا يحلقون رؤوسهم ويفرقون شعرها غديرتين يرسلون مع كل جانب غديرة •

واتخذوا الحلي من النحاس والفضة والذهب خواتم واساوروخلاخل وغير ذلك •

ولم يغيروا الى اليوم لباسهم القديم الا يسيرا خصوصا البادين منهم •

3 — المطعم : لا شك ان البربر كانوا قبل معرفتهم للزراعة يقتاتون من لحوم الصيد والحيوانات الانسية وبعض النباتات الطبيعية التي لا تضر بمعدتهم • اما بعد أن عرفوا الزراعة فلا ريب انهماستعملوا من الحبوب ضروبا من الاطعمة ، نقلوا بعضها عن غيرهم من الامم • ومن الاطعمة المنسوبة لهم «الكسكس» وهو اليوم من أهم أغذيتهم • يواظبون عليه للعشاء • وقليلا ما يستعملونه غداء • وقد أثروا على عرب الجزائر في اقتياته فصاروا سواسية في اعتماده غذاء لابدانهم •

---

(1) ج 6 ص 89

(2) ج2 ص15 •

4 — المكسب : كان البربر من قديم يكسبون الغنم والبقر والخيل الغنم والبقر لنتاجها والبانها وغير ذلك من فوائدها ، والخيل لركوبها اما للصيد واللهو واما للحرب والغزو •

واشتهر في الفروسية بربر نوميديا • وخيلهم كانت قصيرة سريعة العدو • تصلح لاستطلاع احوال العدو ورد الفارين من الجيش • يلبس الفارس منهم لباسا خفيفا ويحمل سلاحا خفيفا ايضا ، ويعتلي صهوة فرسه من غير سرج ولا لجام • وانما يمسك بيده قضيبا من خشب يصرف به الفرس طوع ارادته • وهذا دليل على حذقهم في سياسة الخيل ومهارتهم في تربيتها •



ش — ١ — (رسم فارس نوميدي)

ومن مكاسبهم الابل وهي معروفة قديما بآسيا • ولكنها لم تدخل الوطن البربري الا حوالي سنة 66 (ق•م) قال ابن خلدون : وهي من مكاسب أهل النجعة منهم شان العرب •

وكانت لهم معرفة بالصناعات المعدنية وزراعة الحبوب ، فكانوا يزرعون الفول • قال بيروني : ويظهر ان أصله من ارض البربر • ويزرعون الشعير ، وهو اكثر فلاحتهم ، والقمح وحبوبا أخرى • قال بيروني : ولا نعلم أهذه الحبوب محلية ام مجلوبة ؟ وكان بوطنهم العنب والزيتون ، ولكنه طبيعي غير مغروس •

وصنعوا من المعادن ما كانوا يصنعونه من الحجارة وبذلك سقطت الصناعة الحجرية الا بدواخل الوطن فقد عاشت وترقت حتى صارت في غاية الاتقان •

واتفقت كلمة من وقفنا على كلامهم من المؤرخين ان البربر لم يتعلموا الغراسة الا من الفينيقيين • اما الفلاحة واستخراج المعادن فقد قال اغسال : ان البربر تعلموهما من قدماء المصريين وسكان جزر البحر الابيض المتوسط • كانوا اولا يقتنون مصنوعات هذه الامم ويستوردونها ثم تولوا صناعتها بانفسهم •

7 ـــ نظام المجتمع البربري

كان البربر مقتنعين ـــ منذ نزلوا ليبية ـــ في حياتهم بما منحتهم الطبيعة من خصب اراضيهم التي كانت ـــ على كثرتهم ووفور عـــدد قبائلهم ـــ تفي بحاجتهم وحاجة حيواناتهم • فلم يكن لهم من غرض في استعمار وطن آخر ، ولا بلغ بهم الجشع ان يسفكوا دماء محترمة ، ويصبغوا بلونها القاني ترابا تنبسط نفوسهم من بعد للتمتع فوقه بخيراته وجهود ابنائه المظلومين• وانما كانت تقع منهم بعضهم على بعض هجومات

اما لصيانة حرمة انتهكت واما لدالة الشرف حيث يكون منهم ذو عزة بعشيرته فيريد ان يفرض سيادته على جيرانه • وهي سيادة ادبيــة شرفية غير مشوبة بطمع في مغرم او انتزاع ارض •

لذلك لم يكن لهم في القديم ملوك عظام ودول فخام وانما كان منهم امراء على قبائل وسادات على عشائر •

وكانت السلطة المنزلية بيد الرجل ولذلك كانت انسابهم تابعة لآبائهم لا لامهاتهم ، وروى هيرودوتس [1] ـ على ما ذكر الكعاك ـ ان نظام الامومة كان أيضا حالة من حالات المجتمع البربري • تكون السلطة فيه للام ، والاب غير معترف به شرعا والابناء تابعون لخالهم في الميراث ، وعلى هذه الرواية يكون البربر اسبق الامم الى الاعتراف بحرية المرأة • ويؤيدها ان ابن خلدون ذكر قبائل منهم تنتسب الى امهاتها • وذكر رين قبائل عبر عنها بأولاد امهاتهم • وقد بقي أثر ذلك اليوم عند « اليقاشين » فانهم اذا حسبوا لمريض او غيره توصلا للغيب عدوا حروف اسمه واسم امه دون أبيه • وكذلك اذا رقوا لاحد رقيتهم كتبوا بها اسمه واسم امه لا ابيه •

ونحن ـ اذا أيدنا وجود نظام الامومة قديما ـ لا نريد انه عام بين البربر بل خاص ببعض الاوساط ونظام الابوة هو الغالب •

قال مرسيي : « ومن غير شك ان لكل قبيلة قوانين تخضع لها • ولم يزل أثرها الى اليوم في وطن القبائل » •

وقال أغسال : ويؤخذ من الكتابات الحجرية الاثرية ان فراعنة مصر كانت لهم علاقات بالليبيين وكان الليبيون ينتهزون فرصة ضعف الفراعنة ليغيروا على سواحل النيل ويملؤا ايديهم من الغنائم • واحيانا يكونون

---

(1) مؤرخ يوناني شهير يلقبونه شيخ التاريخ وأبا التاريخ عاش قبل الميلاد بنحو 450 سنة .

جندا مرتزقين لدى الفراعنة • وفي القرن الرابععشر والثالثعشر (ق•م) كادوا يستولون على مصر •

هذا كلام أغسال • وهو ــ وان كان تاريخه خاصا بالجزائر ــ لا يصح حمل كلامه هذا على الجزائريين • وان كانت الجزائر مــن ليبية • وانما يصدق على البربر المجاورين لمصر • اما بربر الجزائر فان لهم من وطنهم ما يغنيهم عن مزاحمة القبط على النيل •

لذلك عاشوا دهورا متمتعين بلذة البساطة في مجتمعهم اغنياء عن النظام الدولي ، اذ لا تحتاج اليه الا امة اضطرها ضيق عيشها الى تعدي بعضها على بعض او التوسع على حساب أمة أخرى •

عاش بربر الجزائر ما شاء الله ان يعيشوا في راحة من تحمل عبء الملوك ودالتهم ، اعزاء عن الخنوع لشهوات الامراء وجبروتهم حتى الجأتهم حروب قرطاجنة مع رومة الى تجشم مرارات النظام الدولي • ايقظتهم تلك الحروب الى أن من الامم ما لها مطامع في استعباد غيرها • فضخموا ملكهم ووحدوا امارتهم كي يحفظوا وطنهم من عاديات عشاق الزعامة العامة والسيادة السامة • وكان منهم اذ ذاك ملوك سنأتي ــ ان شاء الله ــ فيما بعد على تفصيل حياتهم وبيان اعمالهم الجليلة بقدر ما تسمح به المادة التي بأيدينا •

8 ــ لغــة البربر وكتابتهم

البربر يسمون لغتهم « تماشغت » ولهم لهجات مختلفة • ففي ابن خلدون :ان زناتة منهم لها رطانة خاصة بها • ونرى اليوم فرقا بين لغة زواوه احدى بطون ضريسة ، ولغة مصاب (مزاب) من زناتة وغيرهم • اما أصلها فهو تابع لاصل الناطقين بها • ويقول بيروني : انها غريبــة مجهولة الاصل ، كما ان البربري نفسه مجهول النسب •

والصواب خلاف ما يقول فقد قدمنا ما عليه محققو المؤرخين من ان البربر جنس حامي • ووطنهم الثاني (ليبية) ساكنهم به طوائف من أمم مختلفة •واذن فاللغة البربرية حامية الاصل مشوبة بعدة ألفاظ من الفينيقية وغيرها من لغات الامم التي جاورتهم او استولت عليهم •

والبربرية تخالف اللغات السامية في انها يسوغ فيها الابتداءبالساكن واجتماع الساكنين فاكثر وتقديم المضاف اليه على المضاف • وتوجد فيها كلمات مركبة تركيبا مزجيا وليست اعلاما • وقد ينقلب فيها الفعل اسما والاسم فعلا • ولا كذلك اللغات السامية •

يقول رين : ان اللغة العربية واللغة الفرنسية استعارتا الفاظا من البربرية • وسرد تلك الالفاظ التي يدعى اصالتها في البربرية • وهو ان كان يريد ذلك في العصور الاخيرة فلا منازعة ، وان كان يدعي ذلك في القديم فلا انازعه في ذلك بالنسبة الى اللغة الفرنسية فقد يساعده التاريخ على ذلك لان بربر نوميديا مكثوا مع حنبعل القرطاجني سنين بالغاليا وغيرها من جنوب اروبا ، واختلطوا بهم في جيش قرطاجنة أيضا واللغات اذ ذاك ضيقة تحتاج الى النقل فلا يبعد ان يكون قدماء فرنسا أخذوا من البربرية •

اما العربية فبعيدة جدا عن البربرية • ولا يعلم في التاريخ وقوع اختلاطبين هاتين الامتين الا ما كان من غزو افريقش لليبية [1] • ولكن ذلك لا يؤيد دعوى رين لان المغلوب هو الذي ينقل عن الغالب • على ان علماء العربية تكلموا في الدخيل واعتنوا بتمييزه حتى خصه بعضهم بالتأليف • ولم يذكروا منه كلمة بربرية •

---

(1) مما يثبت غزو افريقش لليبية ما ذكره ابو يعلى في كتابه تاريخ الزواوة (ص 22) انه راى في المجلة الاسيوية ان علماء الاثر اكتشفوا الخط الحميري منقوشا على حجر في بعض قرى افريقية .

ان من الالفاظ التي ذكرها رين بربرية نقلت الى العربية ما هو عربي حقيقة • فان كان موجودا في البربرية فهو دخيل فيها بعكس دعواه وتكون تلك الالفاظ موروثة عن قبيلتي كتامة وصنهاجة العربيتين •

كانت اللغة البربرية ــ كغيرها ــ ساذجة بسيطة ثم تطورت مع الزمان وتأثرت بما كان يجاورها من اللغات الراقية • وخصوصا الفينيقية • وكان لها ادبها وبلاغتها والفت بها التآليف العلمية قبل الاسلام وبعده •

وكان للبربر خط خاص بهم ، وحروفه تمثل شيئا من اشياء الكون مثل الشمس والهلال والبرق • وتدل على معنى موافق اما لصفة ذلك الشيء مثل السرعة للبرق واما لفائدته مثل الحرارة للشمس •

كان هذا الخط في القديم يتركب من عشرة حروف يسمونها « تيفيناغ » ومعنى هذه اللفظة الحروف المنزلة من عند الاله ، لانهم كانوا يعتقدون انها ليست من وضع البشر • ويتركب من خمسة اشكال يسمونها « تيد باكين » ومعناه : الدليل على العمل والتوسع • ويعتقدون انها من وضع البشر •

حروف تيفيناغ هي التي تفيد المعاني ، وحروف تيدباكين اما لضبط تلك الحروف او توكيد معنى حرف منها •

وكانت حروف الامم قديما مثل الاغريق واللطين عشرة ايضا • وذلك ان الانسان يخترع على قدر حاجته • وفي بدء عهده بالحياة كانت دائرة افكاره ضيقة ، والمعاني التي يعبر عنها قليلة • فكانت هذه الحروف ــ على قلتها ــ وافية بحاجته •

وهذه صورة حروف تيفيناغ القديمة مفسرة بما يوافقها او يقاربها من الحروف العربية :



ت ي س ر م ل ن



د



ج ب وهناك حروف احدث منها وهي :



ز مخرجه بين ز (و) س ث ش وقد يكتب هكذا



وهذه صورة حروف تيد باكين :

1 . هذه الشكلة حركة . والاكثر ان تكون فتحة .

2 : هذه الشكلة واو مد غالبا .

3 ⁝ هذه الشكلة تؤكد معنى حرف الجيم .

4 ⁝ هذه الشكلة لا نظير لها في العربية .

5 ⁝ هذه الشكلة حرف هجائي وحركة معا . ولا نظير لها في

العربية وتوجد غير ما سبق حروف احدث من تلك تختلف باختلاف القبائل معنى ومخرجا • ومن حروف تيفيناغ ما تصرفوا فيه من بعد ، كما ان تلك الاشكال صيروها من بعد كحروف هجائية •

وترتيب الحروف الهجائية في الوضع مجهول لم يهتد اليه الباحثون من طريق النقل ، وانما ظنوا انها كانت ترتب حسب معانيها •

ويقول رين : المظنون ان اللطينيين أخذوا حروفهم عن البربر لانهم يسمون حروفهم الهجائية « المنتا » وحروف ل ، م ، ن ، هي الاولى في الحروف البربرية •

وليس للبربر في القديم نظام في الكتابة : يكتبون من اليمين الى اليسار ، ومن اليسار الى اليمين ، ومن أعلى الى اسفل ، ومن اسفل الى أعلى • ولما جاء العرب أثروا بنظامهم فصاروا يكتبون من اليمين الى اليسار • وبطول المدة نسي المختلطون بهم الحروف البربرية وصاروا يكتبون لغتهم بحروف عربية • ولم تعش حروفهم الا بين الملثمين في مجاهل الصحراء فانهم لم يزالوا يكتبون بها الى هذا العهد•

9 ـ المعتقد البربري

كان قدماء البربر يعتقدون وجود اله يسمونه « عمون » ولكن يرون انه ليس له وجود مستقل ، وانما هو روح تحل ببعض الكائنات مثل الشمس والقمر والرعد والبرق وغيرها •

لذلك كانوا يعبدون تلك المظاهر وهي ترجع الى ثلاثة اصول :

1 ـ الكواكب : كانوا يعبدون منها الشمس والقمر • ويمثلون الشمس بقرني الثور • وقد يتخذون لقرصها تمثالا يضعونه على رأس صورة تيس كما دلت على ذلك الآثار •

2 ـ الحيوانات : كانوا يعبدون منها الثور وهو في المنزلة الاولى

من الاهمية ، والكبش ، وهو في الدرجة الثانية • ويعبدون سواهما الافعى والبوم والحمام والطاووس والسلحفاةوالضفدع والقرد والهر •

3 — الروحانيات : كانوا يعتقدون وجود ارواح كالجن في بعض العناصر الطبيعية كالعيونوالاحجار والاشجار فيعبدونها ويتوسلون بها الى نيل ما عجزت عنه قواهم البشرية •

قال البكري في خاتمة كتابه المغرب : « وبنو ورسيفان من البربر اذا ارادوا الحرب تقربوا بذبح بقرة سوداء للشماريخ • وهي عندهم الشياطين — ويقولون : هذا ذبح للشماريخ • ويفتحون اوعيتهم في تلك الليلة من الطعام والعلف • فلا يكون لها وكاء ولا سداد •ويقولون: هذا طعام وعلف للشماريخ ، فاذا غدوا للقتال توقفوا حتى يروا زوابع الريح • فيقولون قد جاءت الشماريخ اولياؤكم لنصرتكم • فيحملون عند ذلك • فينتصرون بزعمهم ويقولون : ان ذلك لا يخطيهم [1] » •

ونظير ما ذكره البكري ما هو موجود اليوم من ان الناس اذا عز عليهم المطر في فصلي الربيع والخريف لم يستسقوا الاستسقاء الشرعي بل يتقربون بذبح البقر او غيره من الانعام لقبر من القبور التي يعتقدون صلاح صاحبها بالسماع من اسلافهم العوام ، ويطعمون الطعـام • ويسمون ذلك « زردة سيدي فلان ••• » فاذا اغاثهم الله بالمطر نسبوا ذلك لبركة ذلك السيد وانه رضي عنهم • وكثير من عقائد الاقدمين الوثنيين لم تزل رائجة بين الجهال البسطاء وعوام المتعلمين • وانما صبغت بلون آخر •

ان عبادة الكواكب والحيوانات والروحانيات امر شائع بين الامم المتقدمة ، وقدر مشترك بين الوثنيين ، وانما يختلفون في تفـاصيل المعبودات وكيفيات العبادات •

---

(1) المغرب ص 188 — 189 •

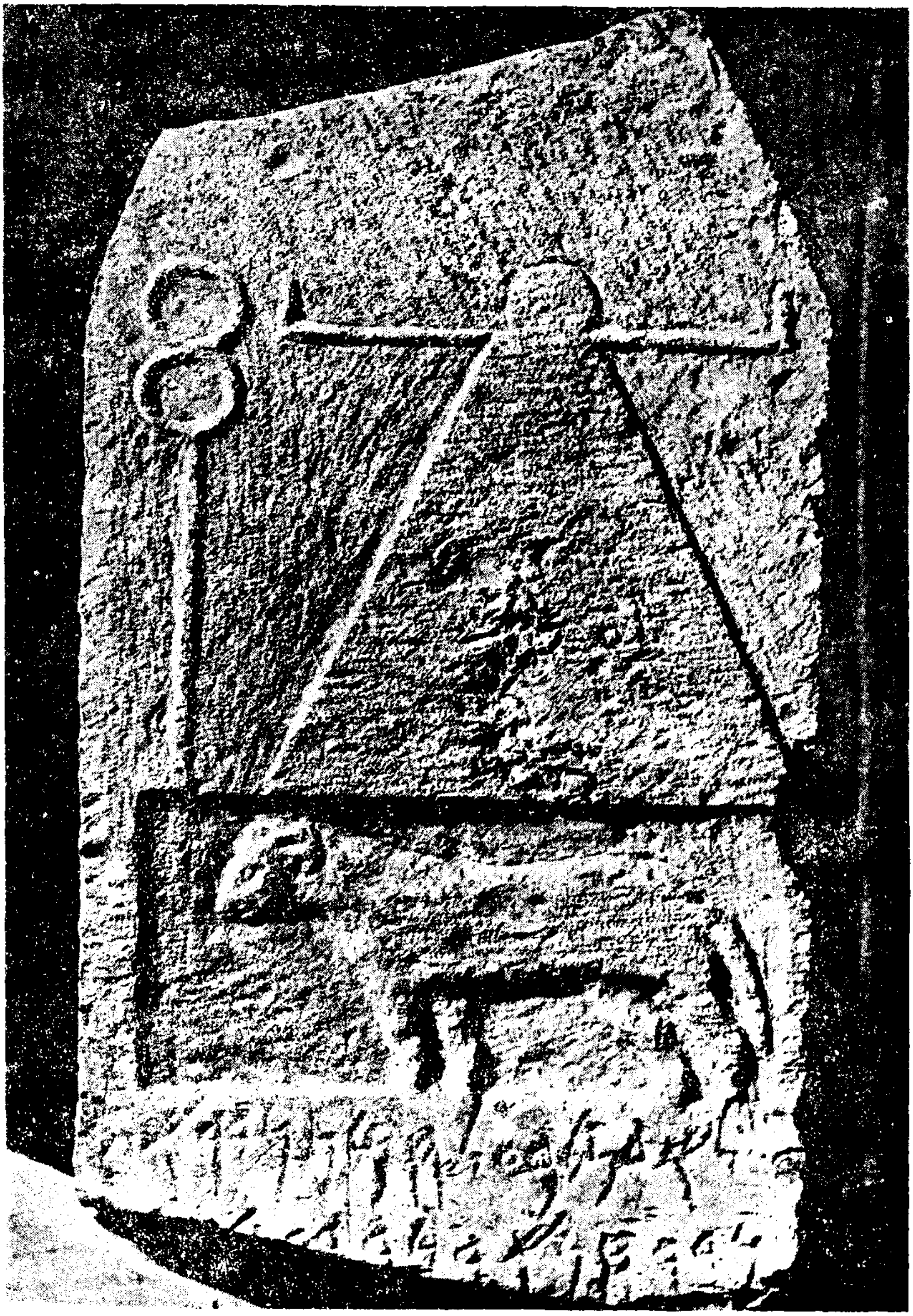
ونحن نجهل ــ لفقدان المصادر التاريخية ــ نظام ديانة البربر وشعائر عبادتهم على وجه التفصيل • ولكن من المحقق انهم كانوا ــ كغيرهم ــ يتقربون الى آلهتهم بالقاء انفسهم في النار •

والوطن البربري ــ كما قدمنا ــ معمور بأمم مختلفة ولغته مزيجة من لهجات • فديانته كذلك مركبة من عدة ديانات • ومنها ما يشبه ديانة قدماء المصريين • ومنها ما أخذوه عن الفينيقيين ومنها ما نقلوه عن الرومان وكلها ديانات وثنية • وكانت بينهم طائفة اسرائيلية غير وثنية • ولكن نظام معابدها ــ كما قدمنا ــ مخالف لنظام يهود المشرق •

ومع انفعال البربر بديانات الامم المجاورة لهم فهم يحافظون على روح عقائدهم الاولى ولا يرفضون منها الا قليلا • ولا يعرف التاريخ دينا غيَّر العقائد وابتعد بها عن الوثنية واعتمد على العقل مثل الدين الاسلامي ومع ذلك لم يطهر البربر من كل ما كانوا عليه • ولكن ما دامت مصادر الدين باقية ومنابعه صافية فليس الذنب ذنب العامة ، بل الوزر كل الوزر على كاهل العلماء الجبناء والمدعين للصلاح من الجهلاء •



(لامبيز)　　　　　　　　افريقية



الحفرة (قسنطينة)

الباب الثالث

في ذكر الفينيقيين

تمهيد

الفينيقيون قوم منسوبون الى وطنهم فينيقيا ، وهي قطعة من الشام ضيقة مستطيلة على سيف البحر ، يفصلها عن بقية الشام جبل لبنان • وهم أمة قليلة جدا ولكنها عملت في التاريخ القديم اعمالا جليلة جدا •

كانوا بطبيعة وطنهم بحريين تجاريين ، فربطوا بين الامم القديمة مواصلات ونشروا بذلك حضارات • وهم أول أمة أجنبية دخلت مصر جاءوها قبل اليونان وكانت لهم حارة معروفة باسمهم في مدينة منفيس[1] قاعدة الأسر العشر الاولى من الفراعنة • وعقدوا مع اولئك الفراعنة اتفاقا تجاريا يسمح لهم بنقل البضائع من مصر للاتجار بها في جزر البحر الابيض المتوسط وشواطئه ليبية واسبانيا • فاصبحوا يشقون بمراكبهم هذا البحر وينقلون الى من حوله حضارات المشرق وهم أول من انقذ الامم الاوروبية من الهمجية •

كانت لهم بفينيقيا مراس عظيمة اشتهرت بالبحرية والتجارة منها عراد وبيبلوس وبيروت وصيدا وصور • وأسسوا باسبانيا وليبية مراكز صارت تعظم كلما نقص عمران مدن فينيقيا بمزاحمة الامم لهم هنالك ومحاربة الملوك اياهم •

وجد الفينيقيون بليبية ضالتهم المنشودة من البحرية والتجارة والاشتغال بوسائل العمران في سلم وأمن • فظلوا على ذلك حتى دخلوا مع اليونان في الحرب على صقلية ، ثم الرومان بصقلية وافريقية • وانتهت تلك الحروب المشؤومة بتخريب عاصمتهم قرطاجنة وذهاب ملكهم وتلاشي أمتهم • فذابوا في غيرهم وعفا رسمهم ولم يبق منهم الا اسمهم

---

(1) سماها البكري منفيش بالشين .

وجلائل اعمالهم التي كلها حسنات للبشرية عامة وللبربر خاصة ، وليس بهم من عيب سوى عفتهم عن الدماء وبعد طبيعتهم عن الحروب •

ا ـ اصل الفينيقيين

الفينيقيون أمة سامية من ولد كنعان بن عمليق بن لاوذ بن سام ابن نوح عليه السلام •

كانوا ـ كبقية الكنعانيين ـ بجزيرة العرب على الخليج الفارسي وانتقلوا الى الشام مع اخوانهم من كنعان واختصوا بفينيقيا وصار الشام يقال له ارض كنعان •

قال ابن خلدون : ومؤرخو بني اسرائيل يقولون ان الكنعانيين الذين كانوا بالشام هم من كنعان بن حام وان العمالقة من ولد العيص ابن اسحاق ابن ابراهيم (ص) وقال في سياق ابناء حام : ومنهم كنعان باتفاق •

فيستفاد منه ان كنعان الذي ينسبه العرب الى عمليق غير كنعان ابن حام ، وان الخلاف بين مؤرخي العرب والاسرائيليين انما هو في نسب كنعانيي الشام : هل هم من كنعان بن عمليق ام من كنعان ابن حام ؟ ويظهر من كلامه في موضع آخر انه يؤيد قول مؤرخي بني اسرائيل حيث قال في الكلام على ابناء كنعان بن حام : ان منه أمة كانت بالشام « وانتقلوا عندما غلبهم عليه يوشع الى افريقية فاقاموا بها » ومنه أمة كانت ببيت المقدس « وهربوا امام داوود عليه السلام حين غلبهم عليه الى افريقية والمغرب واقاموا بها والظاهر ان البربر من هؤلاء المنتقلين اولا وآخرا • الا ان المحققين من نسابتهم على انهم من ولد مازيغ بن كنعان ، فلعل مازيغ ينتسب الى هؤلاء [1] » •

---

(1) ج 2 ص 12 •

واذا ايد ابن خلدون قول مؤرخي بني اسرائيل في كنعانيي الشام فان الفينيقيين ليسوا منهم بل هم ساميون من غير نزاع • غير ان ما استظهره من انتساب البربر الى تينك القبيلتين ليس بظاهر وقد مر في الباب الثاني (2 ، 3) ما يغني عن التعرض هنا لبطلان استظهاره •

والخلاصة ان الفينيقيين اخوان العرب في نسبهم وجيرانهم الاقدمون في وطنهم •

2 ـ الفينيقيون بالجزائر

الفينيقيون أمة تجارية لا شأن لها بالحروب • وقد كانوا ايام ازدهار مدينة صيدا متوجهين في تجارتهم الى المشرق ، واستعمروا فيه — استعمارا تجاريا — جزيرة قبرص وجزر بحر هيجاي • وخاضوا البحر الاسود وبلغوا القفقاس •

وفي القرن الثالث عشر (ق•م) سقطت مدينة صيدا بهجوم الفلستينيين [1] عليها لغنم ثروتها • فورثتها مدينة صور في سعةالعمران وعظمة التجارة • وزاحم اليونان الفينيقيين في المشرق فالتفتوا الى البحر الابيض والمغرب بسفنهم التجارية وأسسوا بجزره مراكز تجارية بصقلية ومالطة وسردانيا والجزائر الشرقية [2] وبلغوا اسبانيا وأسسوا بها مدينة قادس •

صار الفينيقيون يترددون ببضائعهم بين الشام والاندلس • يقطعون مضيق جبل طارق مقتربين من سواحل ليبية حتى اذا بلغوا صقلية ابعدوا عن الساحل الافريقي •

---

(1) غير الفلسطينيين . والظاهر انهم من فلشتين الذين ذكرهم ابن خلدون في ابناء حام .

(2) ثلاث جزر شرق الاندلس وهن ميورقة ، مينورقة ، يابسة .

وكانت تجارتهم مع الليبيين مقايضة : يأخـذون منهم الانعـام والاصواف والجلود وريش النعام والعاج ويدفعون لهم عوض ذلك اقمشة مصبوغة بالحمرة واسلحة وخمرا واواني من الزجاج والطين •

وللاتجار مع الليبيين أسسوا بسواحلهم مراكز يستريحون بها من عناء السفر ويتزودون منها ويصلحون سفنهم • وقد راعوا في موقع مراكزهم أمرين : الامتناع ممن يريدهم بسوء ، والتمكن من نقـل بضائعهم بسهولة • فنزلوا لذلك الجزر القريبة من الساحل الليبي ، والربى الساحلية ، وما قرب من مصب الاودية في البحر •

ومن هذه المراكز حضرموت (سوسة) ، عويتقة (بو شاطر) • وهما بايالة تونس ، ومنها هبون (بونة) ، اجلجي (جيجل) ، صلداي (بجاية) ، وهذه بالوطن الجزائري • ومن المراكز المنسوبة لهم أيضا عوزية • ويقولون انها سور الغزلان وقد غلط اغسال القائلين بذلك مستندا الى انها في دواخل الوطن الجزائري ، ولم يعرف في التاريخ بلوغ الفينيقيين الى تلك النواحي •

وعليه فان صح انعوزية هي سور الغزلان فهي من مؤسسات البربر •وان صحت نسبتها للفينيقيين لم تكن هي سور الغزلان بل مدينة أخرى على السواحل لا ندري مكانها •

ويقال أن مؤسسات الفينيقيين بالساحل الليبي بلغت ثلاثمائةمركز• وهو احصاء قريب من المعقول لان السفن كثيرا ما تحتاج الىالاصلاح وسيرها بطيء • فاهلها مضطرون الى الاستراحة والاستعداد للسفر بعد السير الكثير والمسافة القليلة • وقد يؤسسون مركزا ثم يبدوا لهم ما هو اوفق منه فينتقلون اليه • وبذلك تتقارب المراكز وتكثر •

وقد تحول بعض هذه المراكز من بعد الى مدن ذات فحوصواسعة أو ضيقة • وكثير منها سقط وعفا رسمه •

قال اغسال : « وليس بين دفتي التاريخ ما يرشدنا الى تعيين الوقت الذي وجدت فيه تلك المؤسسات بالضبط • والظاهر انها كانت قبل انتهاء القرن الثاني عشر (ق• م) »

3 ـ تأسيس قرطاجنة

كانت صور (العاصمة الثانية للفينيقيين) بلغت مبلغا عظيما من العمران • وكان بها على عهد داوود وسليمان عليهما السلام ملك يدعى حيرام • سالم هذا الملك الملكين النبيين ، وحسّن علاقاته معهما • وبعد وفاته تأسس بها حزب من عملة الشعب واصبح يشاغب طبقة الاعيان حتى تغلب عليهم ففروا الى ليبية وأسسوا بها مدينة قرطاجنة•

وبعد أمد قليل من تأسيسها بلغت من العظمة والقوة ان صارت تهدد صور نفسها واصبحت هي الحامية للفينيقيين بليبية وصقلية واسبانيا • وكان اليونان قد أخذوا عن الفينيقيين التمدن فانقلبوا عليهم وقادوهم في التجارة حتى اخرجوا من بحر ايجه ، وهددوا مراكزهم بالمغرب فلما تأسست قرطاجنة ثأرت منهم وطردتهم من المغرب•

أسست قرطاجنة على الخليج التونسي قريبا من البحر بحيث تصيب سورها امواجه • ولحسن موقعها حازت السيادة التجارية ، فأمها الفينيقيون من الشام ، والبربر جيرانها الاقربون ، وغيرهم من الامم ، فاستبحر عمرانها وكثرت مبانيها وسكانها ، واختلف في تقدير عدد السكان من (130000) الى (700000) وبلغت اوج عزها في القرن الرابع الى اواخر الثالث (ق•م) ومتوسط سكانها اذ ذاك نحو (300000) .

اصبحت قرطاجنة عاصمة الفينيقيين ومعقل عزهم وحصن سعادتهم

ثم كانت مقبرة عظمتهم ومدفن مجدهم بما جرته عليها حروبها مع الجمهورية الرومانية التي انتهت بتخريبها سنة (146) ق•م •

يقال : ان اسم قرطاجنة بالفينيقية « قرت حدشت » ومعنى هذا العلم : القرية الحديثة •

اما تاريخ تأسيسها وتعيين مؤسسها فقضية كثر حولها الخلاف واضطربت فيها الروايات ، ذكر البكري : « ان الذي بنى قرطاجنة ديدون الملك زمن داوود عليه السلام » [1] وعليه يكون مؤسسها رجلاً وتأسيسها في القرن الحادي عشر (ق•م) لان داوود كان بين سنتي (1055 — 1014) وفي ابن خلدون — نقلا عن المؤرخ الروماني هروشيوش — : ان بناءها كان على يد ديدن بن أليشا ، وانه من نسل عيصو بن اسحا • ومن المؤرخين من يقول أسسها الطبقة العليا من الفينيقيين •

واكثرهم على ان التأسيس كان سنة (814) وقيل سنة (813) وقيل سنة (880) ، على أن المؤسس امرأة تدعى « عليسة ديدون » وعليسة علمها الشخصي ، وديدون وصف لها معناه الفارة •

وسياقة خبرها : انها من بيت ملك وتزوجت بكاهن مشهور ، ولها أخ • ولما توفي ابوهما ورثا ملكه • فعدا اخوها على زوجها وقتله طمعا في كنوزه النفيسة وامواله الطائلة • ولكن عليسة احتفظت باموال زوجها وفرت بها الى ليبية فاشترت من البربر مكان قرطاجنة وأسستها•

4 — ممتلكات قرطاجنة بالجزائر

عرفت ان الفينيقيين امة تجارية بحرية ، فلم يحملها على دخول

---

(1) المغرب ص 41 •

المغرب الطمع في انتزاعه من يد أهله والاستبداد عليهم في وطنهم • ولذلك لم تملك منه غير السواحل اللازمة لحياة بحريتها • وأسست بها مدنا لترويج بضائعها بين الاهالي • واقامت حينا من الدهر جارة للبربر تستخدمهم في مدنها بأجور يرضونها • وتستألف امراءهم بالاموال خوفا من غاراتهم •

ولما تأسست قرطاجنة اقتطع الفينيقيون من داخل الوطن البربري قطعة استوطنوها ودخل اهاها تحت طاعتهم • واطلق على هذا القسم اسم « ليبيا فينيقيا » وعرف الفينيقيون الذين به باسم البونيقيين •

ومن مدن الفينيقين بالساحل الجزائري : هبون (بونة) ، روسفاد (السكيكدة) ، شولو (القل) ، اجلجلي (جيجل) ، صلداي(بجاية) روسوقورو (تاقصبت او دلس او تقزيزن) ، رسجونيا (مطيفو) ، اقسيوم (الجزائر) ، تباسا ، يول (شرشال) ، صيعة (ارشقول على الظاهر) •

ولم يتجاوز البونيقيون السواحل الى دواخل الجزائر الا في الجهة الشرقية حيث كانت نوميديا الشرقية تحت حمايتهم ـ باشرف معنى الحماية ـ ومن مدن هذا القسم : تغاست ـ Thagaste (سوق اهراس) مدوروس ـ Madoure ـ (مداوروش) ، تيفيست ـ Thèvesté ـ « تبسة » •

ولهذا القسم الداخل تحت اشراف قرطاجنة حدود تفصله عن ليبيا فينيقيا وتلك الحدود خنادق تعرف بالخنادق الفينيقية •

وبلغت حماية قرطاجنة في الشمال الشرقي لنوميديا الى رأس بوقرعون « ناحية القل » وجهة ميلة • ومن المحقق ان قرطاجنة لم تدخل تبسة « بالجنوب الشرقي النوميدي » الا سنة 250 (ق•م) ولم تبق بها الا خمسين سنة •

وبما ان الحماية القرطاجنية لم تكن مصحوبة باحتلال عسكري يفرض على المحتمين طاعة الحامي ، ويعمل لالحاقهم بمستعمراته ــ استطاع النوميديون طرد البونيقيين بعد من وطنهم والتمتع بالاستقلال والتنفس في هواء غير مشوب بجراثيم السيادة الاجنبية •

ولا يعلم تاريخ زوال السيادة القرطاجنية عن نوميديا بالضبط • ولكن من المحقق ان مدوروس كانت اواخر القرن الثالث (ق•م) تحت تصرف صيفاقس البربري • ومنذ سنة (149) ق•م لم تبق لقرطاجنة يد على نوميديا وجميع السواحل والشواطىء الجزائرية • ودخلت المدن الفينيقية بتلك الجهات في حوزة ملوك البربر وبقي لها اسمها الفينيقي الى ان خربت •

وهذا خلاف ما نراه في عصر المدنية الغربية من تغيير دولها لاسم بعض المدن التي استولت عليها ، وابداله باسم عظيم من عظمائها قد يكون لم يدخل تلك المدينة المنسوبة اليه او لم يسمع بها فضلا عن ان يعمل بها عملا يبرر نسبتها اليه • اما تسمية الانهج والشوارع بهذا الوجه من التسمية فمن المألوف الذي ينبو الذهن عند مشاهدته عن التفكير في وجه المناسبة بين الاسم والمسمى • وهكذا يفعل الذين يحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا •

5 ــ اللغة الفينيقية وخطها

سترى في الباب التالي تأثير الفينيقيين على البربر في اللغة فمن المناسب ان نقدم ههنا البحث عنها :

الفينيقيون أمة سامية ، فلغتهم كذلك سامية ، اخت العربية والعبرانية وبما انهم تجاريون لم تكن لغتهم لغة ادب وانما كانت لغة علم •

ولما انتقل الفينيقيون الى ليبية دخلت لغتهم مفردات من اللغة الليبية فازدادت ثروة ، ولكنها تغيرت ـ طبعا ـ عن أصلها فلقيت بالبونيقية •

وقد اضمحل الفينيقيون وماتت من بعدهم لغتهم • وما بقي منهـا باللسان البربري دخلت عليه العربية من بعد فتعذر تمييزه •

ولكون هذه الامة تجارية يلزمها ان تتعلم الكتابة والحساب فتعلمت عن السريانيين الحساب وأخذت عن المصريين حروف الهجاء واستعملتها في لغتها بعد ما هذبتها وقربتها للفهم •

كانت الحروف المصرية فيها صعوبة من حيث ان منها ما يدل على كلمة ، ومنها ما يدل على جزء كلمة ، ومنها ما يدل على حرف واحد • وفيها حروف مختلفة المعنى متحدة المخرج • فازال الفينيقيون منها تلك الصعوبة وصيروها بسيطة سهلة التناول •

اختار الفينيقيون من الحروف المصرية اثنين وعشرين حرفا لكل حرف مخرج • ثم قلدهم فيها الاغريق فمن بعدهم من الامم • وقسموها الى حروف هجائية واشكال للضبط •

ولما دخل هذا الخط ليبية مع اصحابه ووجد امامه الخط الليبي تأثر به وتغير عن اصله فسمي الخط البونيقي •

وقد ألف بهذا الخط وتلك اللغة تآليف في الفلاحة والملاحة والاسفار منها رحلة حنون الذي ارتحل حول افريقية وبلغ شواطىء غينيا ومنها رحلة عملقون الذي بلغ سواحل انكلترا ، ومنها كتاب ماغون في الفلاحة الذي اخذه اليونان والرومان الى لغتهم واعتمدوه خصوصا في تنميـة النباتات بافريقية •

وللبونيقيين غير هذه الكتب بلغتهم وخطهم ضاعت بضياع ملكهم • ولم يبق منها الا نتف مترجمة ومبعثرة في كتب اللطينيين واكثرها ضاع

في حريق قرطاجنة ، فضاع بذلك على الباحث الخط البونيقي واللغة البونيقية معاه وتلك عاقبة ذهاب مميزات هذه الامة ومشخصات وجودها .

6 ـ الديانة الفينيقية

كان الفينيقيون وثنيين يعبدون الشمس والقمر . الشمس يتخذون لها تمثالا يدعى « بعلا » والقمر يتخذون له تمثالا يسمونه «استارتي» أو « بعليت » (مؤنث بعل) . وكانوا يقيمون لهذين الالهين تماثيل بكل مدينة من مدنهم .

والشمس عندهم اله السماء والارض ، يرونه غضوبا شديد الانتقام فيتوسلون لرضاه بتقريب القرابين له . وقد تكون تلك القرابين أناسي واكثر ما تكون من ابناء الملوك وسراة الامة .

يحضرون القربان البشري امام التمثال ومعهم آلات الطرب يغنون عليها ، ثم يلقونه في النار المقدسة التي تجعل لذلك التمثال ، وقد تكون ام هذا القربان حاضرة تنظر اليه من غير جزع يلحقها .

والاله يمثلونه تارة بثور ، واخرى برجل ، واخرى برجل رأسه رأس ثور .

والقمر لديهم اله الحب والجمال ، يتصرف في كل ما يحدث وما يفنى ولذلك يعبدونه تارة بالفرح واخرى بالحزن . وكانوا يمثلون القمر بصورة امرأة بيدها حمامة وعلى رأسها من شعرها صورة هلال .

ولهم غير هذين الالهين آلهة اخرى ولها شبه قوي بآلهة الكلدان . وقد أخذوا عن غيرهم في الديانة . ولما نزلوا ليبية تأثروا بعقائد البربر .

وأخذوا الههم « عمون » وسموه بعلهمون وعبدوه حسب تقاليدهم ، وصنعوا له تماثيل أخرى •



ش2 رسم الاله بعلهمون

وكانت لهم أعياد يحتفلون فيها بآلهتهم ، ويقربون لها القرابين من البشر والبقر والغنم والديكة ومما يتقربون به أيضا الصيام •

واذا كان البربر أثروا على الفينيقيين في المعتقد فـان هؤلاء أثروا عليهم في ذلك أيضا ، وسترى ذلك في الباب التالي ان شاء الله •

ونحن نرى للعامة اليوم عقائد لها شبه ببعض عقائد البونيقيين ولكن يبعد ان تكون موروثة عنهم لقدم العهد جدا ووجود الدين الاسلامي • وانما الجهل باصول الدين يجر في كل عصر الى التمسك باوهام وخيالات

قد تتشابه مع تباعد الاعصار • واذا كان مرجع الديانة الى الخيالات كانت من قبيل الشعر ، والشعر ــ كما قيل ــ ميدان والشعراء فرسان فقد يقع الخاطر على الخاطر كما يقع الحافر على الحافر •

7 ـ نظام الدولة القرطاجنيـة

الدولة بنظامها الاداري والسياسي ، فقوتها وضعفها وقدرتها وعجزها على حسب ذلك النظام ودرجة احكامه واتقانه •

ولم يكن للفينيقيين بفينيقيا دولة تجمع تحتها مدنهم وتتخذ من بنيها جيشا حربيا تهاجم به الضعفة او تدافع به الاعداء • بل كانت مدنهم هنالك مستقلة بعضها عن بعض يحكم تلك المدن رؤساء يعرفون بالاشفاط (القضاة)•

ولما تأسست قرطاجنة قامت بها دولة عظيمة ذات دستور ، ان لم يكن احسن دساتير ذلك العصر فهو من احسنها • ناهيك ان ارسطو الفيلسوف اليوناني واضع علم المنطق اعجب به واثنى عليه • وقد ادرك هذا الفيلسوف قرطاجنة في ايام عظمتها اذ كان في القرن الرابع (ق•م) •

لم تكن قرطاجنة شاذة عن الدول المعاصرة لها في تقسيم الامة الى طبقتين : السراة والسوقة • بل كانت مثلها في ذلك واشتهر بها من طبقة السراة أسرتان : الماغونيون والحنونيون ، ومن طبقة السوقة البرقيون•

(1) شكل الحكومة : كانت حكومة قرطاجنة جمهورية على رأسها أسرتان تدير احداهما الجندية وسائر الشئون الحربية ، وتقوم الاخرى بالعمل والاقتصاد وسائر وجوه العمران •

وللحكومة مجلسان : احدهما مجلس القدماء او الشيوخ به (28)

عضوا منتخبا من طرف الامة • ويشترط في عضو هذا المجلس ان يكون من الاسر الاصيلة في البونيقية • فهو متركب من الاعيـان ويؤازره ارباب رؤوس الاموال واصحاب التجارة والصناعةوالفلاحة•

وهو مجلس ارستقراطي(1) يؤيد نفوذ الطبقة العليا من الامة على الصعاليك منها ومتوسطي الحال •

ثانيهما مجلس السوقة : يتألف من صغار الماليين تجارهم ومزارعيهم ومن العملة واصحاب الحرف ، ونفوذه ضعيف • وقد يكون وجوده صوريا • فان الحكومات الارستوقراطية لا تنظر الى افراد الشعب الذين قعدت بهم قلة ذات اليد عن الظهور في مظهر النعمة والترف الا بعين الاستخفاف ، ولا تراهم الا آلة مسخرة لقضاء مصالح المترفين وتوفير سعادتهم • فوجود العملة ومن في درجتهم ــ عندها ــ ليس وجودا مستقلا وانما هو تكميل لوجود الاعيان والمثرين •

والى ذينك المجلسين مجلس القضاء يدعى « مجلس المائة والاربعة» وقضاته من الاشراف • ويعبر عنهم « الاشفاط » ــ وهي قريبة من الاسباط ــ وقوتهم التنفيذية مستمدة من ذينك المجلسين •

(2) ــ الجيش : اتخذت قرطاجنة جيشا ولكن لم تقصد به استعباد المستضعفين وترويع الآمنين والاستحواذ على ثروة اراضي الجانين على المدنية بكونهم عزلا من الصواعق المحرقة • بل كان قصدها هو حفظ حريتها التجارية • لانها امة كان شغلها ركوب متون البحار لترويج البضائع وربط الصلات بين الامم شرقا وغربا ونقل حضارات بعضها الى بعض • وقد عارضها في سبيلها تلاميذها من اليونان والرومان • وارادوا صدها عن وجهتها بالقوة العسكرية • فاضطرت الى اتخاذ

(1) يقال دولة ارستقراطية ، وهي مركبة من كلمتين : قراطية معناها حكومة ، وارست معناها النبلاء ، فمعنى ارستقراطية حكومة النبلاء •

جيش لحماية تجارتها • فهو جيش لحفظ الحرية لا لسلبهـا وجبر الضعيف على الرضا بالعبودية •

لم يتجاوز جيش قرطاجنة خمسين الفا اكثرها من البربر والاسبان ويمدها زيادة على ذلك ايام الحرب بجنود كثيرة امراء البربر الذين تربطهم بها معاهدات •

وينقسم هذا الجيش الى ثلاثة أقسام :

1 — الجنود القرطاجنية وهم قليلون وغير حربيين •

2 — الجنود المرتزقة : وهم من امم مختلفة • من اسبانيا مشاة ، ومن الجزائر الشرقية رماة ، ومن الغاليا والكورص وايطالية وصقلية•

3 — الجنود الليبية والنوميدية • والاولون مشاة مجبورون على التجنيد • لان ليبية [1] وطنهم كانت في قبضة قرطاجنة وتحت نفوذها الفعلي • والاخيرون فرسان متطوعون • لان وطنهم نوميديا لم يكن تحت سيطرة قرطاجنة •

وكلا الجندين الليبي والنوميـدي صبار على الشـدائد شجاع مقدامله سلاح خفيف : نبل وخنجر وترس من جلد • وليس له سيف ولا مغفر ولا درع •

وهذا القسم الثالث هو الذي كون تاريخ قرطاجنة الحربي • خصوصا الجند النوميدي • فلولاه ما ذاقت قرطاجنـة لـذة الفوز والانتصار ، ولا هدد حنبعل رومة ورام فتحها •

لذلك كان للنوميديين ميزة لم تكن لبقية الجيش القرطاجني • وكانوا لا يسمحون لها بالتقصير في حقوقهم • وقد ثاروا عليها مرارا لعجزها عن أداء واجباتهم •

---

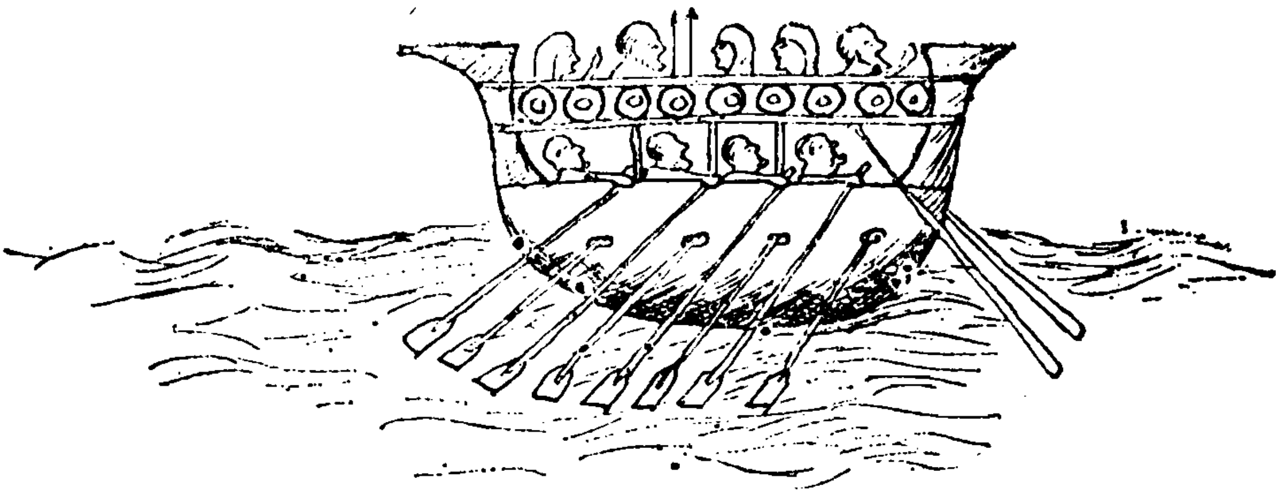
(1) كانت ليبية تطلق على شمال افريقية . وبعـد مجيء الفينيقيين اختصت بما يلي نوميديا شرقا . وليس المراد ليبية المعروفة اليوم جنوب طرابلس .

كان للجيش القرطاجني رؤساء وقواد من أسرة البرقيين • واشتهر منهم عدة قواد باسم هملقار • ومنهم حنبعل وصدربعل وغيرهم ممن خلدت ذكرهم حروب صقلية والحروب البونيقية •

3 — الاسطول • كان لقرطاجنة أسطول لا تضاهيه أساطيل الدول الاخرى • والبحرية هي العمل الخاص للفينيقيين • وقد دامت لهم السيادة البحرية من غير منازع امدا طويلا •

كانت سفنهم فلكا كبيرة • وفي كل جانب منها مقاذيف • واذا ساعدتهم الرياح استعانوا بالشراع •

وسفنهم نوعان : تجارية وحربية • اما التجارية فحيزومها مستدير •



ش — 3 رسم سفينية فينيقية تجارية

وقد خاضوا بها قبل قرطاجنة وبعدها عباب البحر الابيض على طوله ، والبحر الاسود حتى بلغوا القفقاس ، والمحيط الاطلانتيكي حتى بلغوا انكلترا من جهة وأغادير من اخرى •

كانوا يبعدون السير وليس لهم بوصلة لعدم اختراعها اذ ذاك • فكانوا يهتدون في سيرهم ليلا بنجمة القطب الشمالي • واكثر مسيرهم بالنهار : ولا يبعدون قن الشاطىء • فاذا أمسى المساء استكنوا بخليج • وقد ينزلون الى البر ويسحبون مراكبهم في الرمل • فاذا أصبح الصباح استأنفوا سيرهم محاذين للشاطىء •

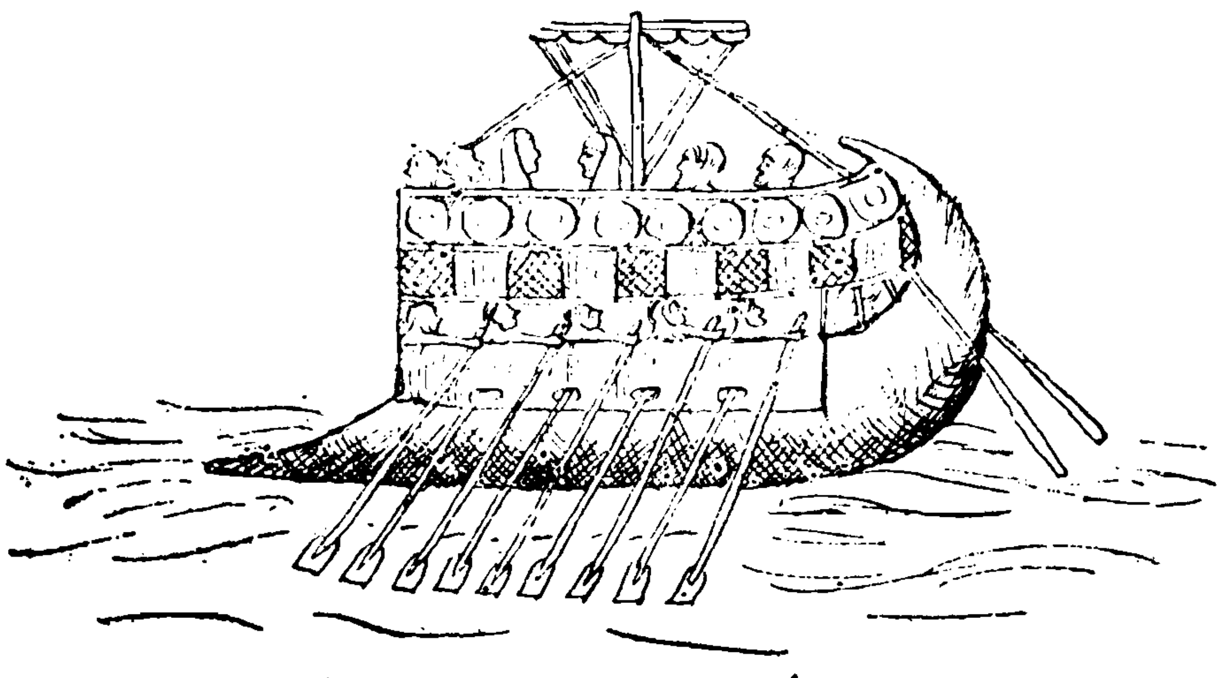
وكانوا يحملون في سفراتهم الى كل أمة البضائع التي تروج بها ، يستبدلونها بما لتلك الامة من البضائع • ويتنقلون على هذه الصفة من وطن الى آخر • حتى انهم احيانا لا يرجعون الى وطنهم الا بعد سنين •

وقد كان البحر الابيض المتوسط تحت نفوذ قرطاجنة • أسست على شواطئه المراسي من خليج طرابلس شرقا الى المحيط الاطلاتيقي غربا • وكان لها على هذا المحيط مراس أيضا الى قرب آغادير •

واما المراكب الحربية فهي معقربة الصدر • وكان لقرطاجنة قبل استفحال امرها سفن ضعيفة من نوع السفينة ذات الخمسين مقذافا • ثم أخذت تترقى في سلم العظمة حتى بلغ اسطولها مائة سفينة • فيها من العملة أربعة وعشرون الفا غير من يحمل السلاح •

وقد كانت السفن الحربية على انواع : سفن ذات ثلاثة صفوف من المقاذيف ، وذات اربعة صفوف ، وذات خمسة •

وهذه الانواع الثلاثة كثيرة • وهناك انواع ثلاثة أخرى قليلة الاستعمال • وهي ذوات (6 ، 7 ، 9)



ش ـ 4 رسم سفينة فينيقية حربية

وجعلت قرطاجنة لصناعة السفن دورا يعمل فيها عملة من المحتلين والمحتمين •

8 ـ العمل القرطاجني في العمران والحضارة

علمت ان الفينيقيين أمة كثيرة الاسفار في البرور والبحار لكسب الثروة بالاتجار •• فلم تكن لها حضارة خاصة بها • ولكن اليها يرجع الفضل في نقل حضارات الامم بعضها الى بعض بما تروجه بينها من البضائع المختلفة •

آثارهم تدل على تقليدهم للمصريين في بناء البيوت وحفر القبور • فان قبور الفينيقيين وجدت بالجبال مثل قبور قدماء المصريين • وبيوتهم مبنية بالحجارة ، ولها سوار تتصل بالسقف من غير قوس ، وخطوط أساساتها مستقيمة •

واكثر اعمال الفينيقيين في التجارة والفلاحة وبعض الصناعات • وكانوا اذا نزلوا أرضا عرفوا فوائدها الخاصة فاعتنوا باستثمارها • وارض ليبية ارض فلاحة فاعتنوا فيها بالفلاحة علاوة على التجارة البحرية •

وقد جعلت قرطاجنة في نظام دولتها اسرتين : احداهما للحرب والاخرى للعمل • وكانت أسرة العمل هي أسرة ماغون •

ماغون مؤسس هذه الاسرة كان بين سنتي 550—500 (ق•م) والف كتابا حافلا في الفلاحة • تكلم فيه على الفلاحة وتربية الحيوان من خيل وبغال وبقر وحمام ودجاج ونحل وغير ذلك •

ولأهمية هذا الكتاب لم تستغن عنه رومة رغم عداوتهاللبونيقيين وتخريبها لقرطاجنة • فاهتم شيوخ رومة به واستدعوا له مترجمين ترجموه الى اللطينية •

ومن حكمهم الفلاحية : « يجب ان تكون الارض اضعف من الفلاح • لانه اذا اراد ان يقاومها فتغلبت عليه حطمته » •

وقد اتخذوا للدراس آلة وعمموا نشر الحبوب المعروفة بالوطن البربري وجلبوا لهبذورا أخرى مثل الكتان لم تكن معروفة به من قبل •

وكان بليبية (بالمعنى العام) أشجار ذات ثمار الا انها طبيعية • فاعتنى البونيقيون بغراستها وجلبوا ضروبا أخرى من الاشجار منها النخيل والتين والزيتون والرمان والجوز واللوز والكرم •

وزرعوا البقول والخضر حوالي المدن • وعصروا الزيتون والخمور وهم أول من روج الخمر بين البربر • واول من افادهم الغراسة •

ازدهى الوطن على عهدهم بحقول الحبوب والخضر وجنات النخيل والاعناب وبساتين التين والزيتون وضروب الفواكه •

وقد شارك في هذه الاعمال العمرانية كل الطبقات البونيقية : ارباب الاموال الواسعة يقتطعون الاراضي الشاسعة ويبنون بها القصور وليقضوا بها بعض فصول العام • وصغار الفلاحين يشتغلون بماحوالي المدن من الاراضي الصالحة فيعمرونها على نسبة مقدرتهم المالية •

وسوى عناية القرطاجنيين بالفلاحة وتربية المواشي كانوا يعتنون باستخراج المعادن من حديد ونحاس ورصاص وغيرها • ويصنعون منها الآلات وضروب الزينة من حلي واقراط •

وكانوا ينحتون الحجارة النفيسة • واخذوا عن المصريين صناعة الزجاج فاتقنوها وصنعوا منها الاواني الرفيعة ولونوها بالوان قوس قزح•
وكانت لهم يد في الحياكة والصباغة ودباغة الجلود • وكان لهم من الصناعات الدقيقة النقش على الصخور والخشب ، ونحت الدمي وغيرها من العاج والعظام • وقطروا العطور • وركبوا الادوية •

9 ـ الحروب القرطاجنيــة

جاورت قرطاجنة البربر واحسنت جوارهم بما كانت تنقل الى وطنهم من حضارات الامم • وما كانت تنشره بينهم من جهود ابنائها التجارية والفلاحية والصناعية وغيرها • وكان في استطاعتها ان تكون من شمال افريقية دولة عظيمة ثابتة الاركان بسلاحي الترغيب والترهيب• كما فعل من بعدها الرومان • وكانت هي أقوى منهم واقرب • ولكن الجنس السامي ـ وخصوصا الفينيقيين أسمى من ان يكون سفاكا للدماء غدارا بالوعود •

حاولت قرطاجنة ان تتوسع في وطن البربر • ولكن من غير اراقة دماء غزيرة • فتوسعت حيث لم تجد معارضة حربية قوية • واكتفت بربط الصلات حيث وجدت صلابة • وقد رأت من صلابة نوميديا انها لا تخضع الا بعد اهوال وحروب طوال • فلم تتعنت في فتحها تعنت الرومان من بعد • واكتفت باستجلاب مودة اهلها كي تستعين بهم عند الاقتضاء • فنظمت من فرسانهم جيشا كان له الاثر المحمود في حروبها •

وليس لقرطاجنة حروب مذكورة مع البربر الا ما كان من ثورة الجند والانتصار لاعدائها الرومان •

والمذكور من حروب قرطاجنة هي حروبها مع اليونان بصقلية ، وحروبها من بعد مع الرومان •

ولم يكن البربر بعداء عن هذه الحروب خصوصا النوميديين • بل كانوا يخوضون لججها لفائدة قرطاجنة • وقد ينقسمون الى مناصر لها ونصير لاعدائها •

ونحن نقص خبر هذه الحروب بايجاز لانها لم يقع منها بالوطن

الجزائري الا القليل • فعلاقتها بتاريخ الجزائر من هذه الجهة من حيث وجود اليد النوميدية فيها ومن حيث ان عاقبتها مجيء الرومان مكان قرطاجنة واستيلاؤهم على الجزائر •

نقتصر في هذه الفصول على أهم حوادث تلك الحروب • وفي الباب التالي — ان شاء الله — نبسط ما كان منها بالوطن الجزائري •

تعرف حروب قرطاجنة مع اليونان بحروب صقلية ، وحروبها مع الرومان بالحروب البونيقية •

أ ـ حروب صقلية (536 — 306) ق•م

وقعت هذه الحروب بين اليونان وقرطاجنة • ودامت سنين كثيرة تتخللها هدنات قصيرة الاجل •

1 — في سنة (536) وضعت قرطاجنة قدمها بصقلية بقصد فتحها• وارسلت اليها جنودا كثيرة بقيادة عملقرض بن ماغون • فانهزم اولئك الجنود انهزاما فادحا • وذلك حوالي سنة (480) • ولكن قرطاجنة لم تفشل من هذا الانهزام ، ووالت حروبها • وفي آخر القرن الخامس فتحت نحو ثلث صقلية بقيادتي حنبل وحملقون من أسرة حنون • وختمت المعارك الاولى بعقد هدنة بين قرطاجنة ودونيس امير سرقوسة وذلك سنة (404) •

2 — في سنة (399) هجم دونيس على بعض مستعمرات قرطاجنة بصقلية • فارسلت اليه جيشا بحريا بقيادة حملقون • فبلغ الجيش سرقوسة • وحاصرها بحرا • واغرق سفنها ، وذلك عام (396) وفي العام التالي عاد حملقون الى صقلية بجنود كثيرة • واستولى على اكثر جزرها • وانتهى الى سرقوسة وحاصرها واصبح النصر منه على قاب قوسين ، ولكن لم يساعده القدر ، فاصاب المرض جنوده ، ووجد

دونيس الفرصة متأتية • فانقض على جنود حملقون • وهزمهم برا وبحرا • وانتهى الدور الثاني لهذه الحروب بعد اتفاق بين المتحاربين يقضي بخروج قرطاجنة من جميع جزر صقلية • اضطرت قرطاجنة الى هذا الاتفاق لما كان بوطنها من ثورات البربر التي صيرت قرطاجنة في أضيق حال •

3 — انجلت عن قرطاجنة أزمة الثورة • فعادت الى حرب صقلية• ووجهت اليها جيشا بقيادة ماغون • فطالت الحرب بين الفريقين • وتوفي ماغون • فخلفه ابنه ماغون • ثم توفي دونيس سنة (363) وخلفه ابنه وسميه ايضا • واخيرا ظن ماغون الثاني انه مغلوب ففر الى قرطاجنة وقتل نفسه اتقاء من تعذيب دولته له • ولا اعجب من حال من يفر من الموت الشريف وهو مظنون ويقتل نفسه بعد ما جر لدولته عارالانهزام• وبعد ماغون في سنة (340) وجهت قرطاجنة جنودا اخرى لصقليــة بقيادتي حنبعل وهملكار • فانهزموا ايضا على كثرتهم • وتم الدور الثالث بعد اتفاق بين المتحاربين لفائدة صقلية • وذلك سنة (338) •

4 — كان رجل يدعى أغاثوقليس من بيت وضيع • ولكنه قوي الارادة طموح الى المعالي • فانتهز فرصة وجود هملكار بصقلية • واستعان به على ان يكون ملكا بسرقوسة • فاعانه بعد ما حلف له ايمانا على مسالمته لقرطاجنة • وانتصب ملكا بسرقوسة سنة (319) •

وبعد وفاة هملكار رأى أغاثوكليس انه في حل من ايمانه • فهجم على ما تحت يد قرطاجنة بصقلية • فوجهت اليه جيشا جرارا يقوده هملكار بن جسقون • وانتصرت عليه انتصارا غزيرا • وتقدم الجيش الى سرقوسة فحاصرها • ورأى أغاثوقليس موقفه حرجا • فتخلص بنقل الحرب الى افريقية • بعد ما حرض السرقوسيين على الثبات ودبر مكيدة ابعد بها سفن قرطاجنة عــن مرسى سرقوسة وركب اسطوله

وتوجه الى افريقية • شعر به الاسطول القرطاجني فتبعه • ولكن لم يدركه • قضى أغاثوقليس في سيره ستة ايام • ونزل بافريقية • واحرق أسطوله لئلا يطمع جيشه في العودة الى صقلية• وذلك سنة(310) وهكذا سيفعل طارق بن زياد بعد عشرة قرون • بقي هملكار محاصرا لسرقوسة وفي سنة (309) الزمه السرقوسيون برفع الحصار عن مدينتهم • وفي العام التالي حاول الاستيلاء على سرقوسة ، فلم ينجح • وأسره الاغريقيون ، ومات معذبا • أما أغاثوقليس فانه نجح في افريقية وخضعت له مدن كثيرة ، وبلغ ابواب قرطاجنة وشدد عليها الحصار •

ولما رأى أغاثوقليس انه تمكنت قدمه بافريقية ارتحل عنها سنة (306) الى صقلية • وترك ولده بافريقية • فتنفس القرطاجنيون وصاروا يحاصرون الاغريق في المدن التي احتلوها • فعاد أغاثوقليس • ولكن النصر لا يكون دائما حليف الفاتح • فذاق مرارة سوء الحظ في هذا العود • وعاد الى صقلية يتعثر في اذيال الخيبة • ومكن سلطته بسرقوسة • وتوفى سنة (289) •

وبارتحال أغاثوقليس عن افريقية للمرة الاولى انتهت حروب صقلية•

ب ـ الحروب البونيقيــة

قرطاجنة دولة بحرية لها أسطول عظيم • وأبناؤها قليلو الغناء في الحرب • فكانت تعتمد في حروبها على الاجانب •

ورومة دولة برية لا اسطول لها • ولكن لها من أبنائها جيش قوي الايمان بمحبة الوطن • ولذلك كان النجاح في الحروب البونيقية للثانية على الاولى •

ابتدأ النزاع بين هاتين الدولتين على البحر الابيض المتوسط •

وفي سنة (348) عقدتا اتفاقا يمنع رومة من التجارة مع افريقية ، ويحدد لها في البحر حدودا لا تتجاوزها .

ولما توفي أغاثوقليس بقيت صقلية في فوضى دامت عشر سنين . وطمعت قرطاجنة خلالها باعادتها اليها . فاستدعى السرقوسيون الملك بيروس ليحفظهم منها . فلبى طلبهم . ووقعت بينه وبين قرطاجنة معارك لم ينجح فيها . فعاد الى ايطاليا سنة (276) .

وكانت رومة تخشى بيروس . فعقدت مع قرطاجنة محالفة دفاعية تستلزم اعانة احدى الدولتين للاخرى في أي حرب دخلت فيها . وغرضهما الاتحاد ضد بيروس . وفي سنة (272) توفي هذا الملك . فتنفست رومة . ونقصت لديها أهمية المحالفة .

رجعت صقلية الى الفوضى بعد خروج بيروس منها . وكان بها جنود مرتزقة بعضهم من عهد أغاثوقليس ، وبعضهم خلفهم بها بيروس . فانقسموا أحزابا . وعين السرقوسيون منهم ييرو رئيسا عليهم . فحارب قرطاجنة سبع سنوات . وكان أعظم الاحزاب مقيما بمسينا . ولقب هذا الحزب نفسه « جنود المريخ » وهو إله الحرب . وبلغ من عظمته أن خشيته اليونان وصقلية والرومان والقرطاجنيون .

وفي سنة (268) ساءت حالة المريخيين . ورأوا لزوم خضوعهم لرومة أو لقرطاجنة . وافترقوا لذلك فرقتين . وقدمت الطائفة المتشيعة لرومة مطلبها لمجلس الشيوخ . فقبلوه واعتمدوه سببا للدخول في محاربة قرطاجنة التي لا ترضى بتسليم صقلية . فوقعت الحرب بين الدولتين . ودامت سنين كثيرة . وهي المعروفة بالحروب البونيقية .

ج ـ الحـــرب البونيقية الاولـــى (264 — 241)

للرومان رغبة شديدة في امتلاك صقلية لقربها منهم • وللقرطاجنيين حق البقاء بهـا لنفس تلك العـلة • ويزيدون بأنهم السابقون الى استعمارها ، وبأنهم مهروها دماء غزيرة ، وبأنهم أمة بحرية • واستظهرت رومة بطلب بعض المريخيين لحمايتها • والقـول الفصل في قضيـة الاستعمار للقـوة • فدخلت الدولتان محكمة الحـرب لفض هـذا المشكل • ورأت رومة عجزها البحري • فسدت هـذا الخلل قبل الشروع في الحـرب • وشرعت في صناعة سفن على شـكل سفن قرطاجنة • وتم لها في مدة شهرين صنع (130) سفينة •

ابتدأت الحرب على مسينا فدخلها الرومان • وكان الامير ييرو أولا مـع قرطاجنة ثم انضم للرومان سنة (263) • ثم دحرت رومة قرطاجنة في حرب جرجنتي حتى فر القائد القرطاجني وأسر بعض جيشه وبيعوا بيع العبيد • وذلك سنة (262) •

وفي سنة (256) وقعت معركة بحرية بـين الاسطولين انجلت بانهزام الاسـطول القرطاجني • ودخل الرومان أثـر ذلك افريقية وحاصروا قرطاجنة • فاضطر القرطاجنيون الى طلب الصلح • فاشترط الرومان عليهم شروطا رأوا الموت دونها • فشمروا عن ساعد الجد وأخرجوا الرومان من افريقية •

وفي سنة (242 — أو — 241) خضـع الجيش القرطـاجني للجيش الروماني • وكان كل من المتحاربين قد سئم الحرب • ولكن الماليين القرطاجنيين كانوا أسبق الى طلب الصلح حرصا منهم على الثروة التي يرون في استمرار الحرب ضررا لها •

انعقد الصلح بين المتحاربين على شروط لفائدة رومة وهي :

1 — رد الاسرى من غير فداء •

2 — خروج قرطاجنة من صقلية •

3 — التزامها مسـالمة ييرو •

4 — دفعها غرامة حربية عظمى • قدرها بعض المؤرخين بعشرين مليونا فرنكـا • وهي بعضها معجل وبعضها مؤجـل بآجال تنتهي بعشرين سنة •

والقائد القرطاجني في هذه الحرب هو أملقار برقة • وهو قائد عظيم أدى لدولته خدمات جليلة • وكان رئيس حزب وطني غرضه أن تكون قرطاجنة دولة ديموقراطية[1] ذات جيش وطني يحميها من رومة • وكان الماليون الذين همهم في ملء الخزائن لا في نثر الكنائن يرون في هذا القائد الحربي ضررا على ماليتهم فأبعدوه الى اسبانيا برسم فتحها في الظاهر • ففتحها وأسس بها دولة هو رئيسها • وسمى عاصمته قرطجنة الحديثة • وتوفي سنة (228 — أو — 220) •

د ــ الحـرب البونيقيـة الثانيـة (218 — 202)

لما توفي أملقار باسبانيا ترك جيشا منظما منقادا له كل الانقياد • فورثه ابنه حنبعل في الحكم والجيش • وكان ابن سبع وعشرين سنة •

حنبعل هذا رجل عظيم اعترف له اعداؤه الرومان بالدهاء الخارق للعادة • وتعجب نابليون الاول من دهائه الحربي • ومجمل القول

---

(1) ديموقراطية مركبة من كلمتين: قراطية معناهاحكومة وديمو معناه الناس . فمعنى هذا المركب حكومة الشـعب .

فيه أنه عالم متبصر في الامور ، ذو عزيمة ثابتة ووطنية نارية ، محبوب من جيشه وكلاهما واثق بالآخر •

كان يحمل حقدا حارا لرومة ، وينوي تجديد عز قرطاجنة • فتوسل لاثارة الحرب بينه وبين رومة بأن هجم على مدينة باسبانيا تحت حمايتها ، كما أنها هجمت قبل ذلك أثناء الصلح على جزيرتي سردانيا والكورص ، وانتزعتهما من قرطاجنة •

وبهجوم حنبعل انقضت أيام الصلح التي دامت اثنتين وعشرين سنة استعادت فيها كلتا الدولتين قوتها •

أرسلت رومة الى قرطاجنة وفدا يطلب منها تكفير تعدي حنبعل واختيار الصلح أو الحرب • فردت اليها قرطاجنة أمر الاختيار •

اختارت رومة الحرب • فكان ذلك بردا وسلاما على قلب حنبعل • فأراد أن يحاربها في عقر دارها • فاختار من جنوده خمسين ألفا بين مشاة وفرسان • وقيل مائة ألف • وتوجه الى ايطاليا وكان يريد أن يموت هو أو تموت رومة •

وأكثر فرسانه نوميديون • وهم معروفون بالفروسية المبهتة • حتى أن فرسان الرومان لم يستطيعوا مقابلتهم • فترجلوا عن خيولهم •

وقعت بين الفريقين معارك في ميادين كان النصر فيها لحنبعل • وهلك من الرومان آلاف مؤلفة • وطالت اقامة جنبعل بايطاليا فقل جنده وخرج عنه كثير من الامم التي أخضعها أولا لطاعته • وإذ ذاك استنجد قرطاجنة فلم تنجده جريا على عادة أعيانها من حب السلم لترويج التجارة • هنالك أرسل الى أخيه صدر بعل الذي تركه باسبانيا • فاضطر صدر بعل في طريقه الى خوض معركة قضت على أجله سنة (207) •

بعد ذلك تحصن حنبعل بجبال كلابر من ايطاليا • وعجز الرومان عن مقاومته بها •• فنقلوا الحرب الى افريقية بتدبير سبيون •

لما رأى سبيون[1] ان ينقل الحرب الى افريقية — كما فعل من قبله أغاثوقلس — وجد نفسه في حاجة الى استمالة النوميديين • فذهب الى افريقية • وتمكن من عقد محالفة مع صيفاقس ملك مصيصليا ضد قرطاجنة • وبذل صدر بعل ابن جسقون جهوده لابقاء صيفاقس على ولائه لقرطاجنة فلم يفلح أولا • ثم عاد سبيون الى الاندلس • وبها مصينيسا مع صدر بعل على الرومان فاستماله أيضا • وكان عدو صيفاقس • فوجد صدر بعل بذلك سبيلا الى ايغار صدر صيفاقس على الرومان • فانتزعه منهم وأعاده في صف قرطاجنة •

جمع سبيون لفتح افريقية جيشا يشتمل على ثلاثين ألفا • وكان مصينيسيا قد وقعت له حروب مع صيفاقس انهزم فيها وصار متشردا بالصحراء • فلما حل سبيون بافريقية جاءه نجدة له • وجاء صيفاقس منتصرا لصدر بعل • ووقعت بين الفريقين معركة أولى انهزم فيها سبيون مكيدة • وأظهر رغبته في الصلح • وبينما هم في المفاوضة إذ هجم سبيون على صدر بعل ومصينيسا على صيفاقس ليلا وحرقوهم بالنار وعلوهم بالسيوف • فكانت على القرطاجينيين وقيعة شنعاء وذلك سنة (203) وخضعت إذ ذاك قرطاجنة لسبيون طالبة منه الصلح • كل ذلك وحنبعل بايطاليا • ولما بلغه ما حل بدولته عاد الى وطنه سنة (202) •

---

(1) سبيون هذا هو قائد الجيش الروماني المحارب لقرطاجنة بالاندلس . وأبوه يقال له أيضا سبيون . وكان أيضا قائدا . وانتصر عليه جنبعل في طريقه الى ايطاليا . ويعرف سبيون الابن بسبيون الافريقي . ولعل هذه النسبة جاءته من قبل اقامته بافريقية في هذه الحرب .

لما بلغ حنبعل قرطاجنة تقوت به القلوب بعد الضعف • ولم يقبل الصلح • وعاد الى الحرب • فوقعت بينه وبين سبيون معركة زامة • مات فيها من الرومان عدد كبير • ولكن خيالة نوميديا كانوا مـع سبيون فكان الغلب له • وعاد حنبعل الى قرطاجنة آيسا من ربح الحرب راضيا بالصلح • وكانت معركة زامـة هـذه خاتمة الحرب البونيقية الثانية ، عقد المتحاربان بعدها هدنة الى ثلاثة أشـهر • ثم اتفقوا سنة (201) على مواد الصلح الآتية :

1 — سراح الاسرى الرومان من غير فداء •

2 — تسليم قرطاجنة في جميع أفيالها للرومان •

3 — تسليمها لهم جميع سفنها إلا عشرا •

4 — يبقى لها ما تحت يدها من التراب ما عدا الجزر •

5 — تدفع لهم غرامة مالية • قدرها ابن خلدون بثلاثة آلاف قنطار من الفضة [1] وقدرها غيره من مؤرخي الافرنج بأربعة وخمسين مليونا فرنكا ، وهي منجَمَة : قال مرسيي على عشر سنوات ، وقال ماليت على خمسين سنة •

6 — تعترف بسلطنة مصينيسا على مصيليا ، وقاعدته قرطة ، وتتعهد بأن لا تحاربه •

7 — لا تجند جنـدا إلا برخصـة من رومة •

8 — لتنفيذ هذه المواد تأخذ رومة مائة من أبناء قرطاجنة رهنا •

تم الصلح على هذا الوجه • وأخـذ سبيون خمسمائة سفينة أحرقها بميناء قرطاجنة • ورد عليه أربعة آلاف أسير • وعاد الى رومة ظافرا منصورا •

---

(1) ج 2 ص 189 •

أما حنبعل فانه عاد الى قرطاجنة وهو يرجو أن يأتي يوم تقبل فيه رومة شروطا كالتي قبلتها اليوم قرطاجنة . وظهرت طلائع الفوضى بقرطاجنة . واتهم حنبعل بالتقصير في فتح رومة فحكم عليه بالقتل . ولكنه استمال الجند وقلب النظام وأصبح هو الآمر الناهي . وذلك سنة (195) وأخذ في رتق ما فتقته الحرب . فدرب الجنود ونشط الفلاحة . ولم يرق ذلك للرومان فبعثوا اليه بالكف عن تلك النهضة التي تعيد لقرطاجنة شبابها ، وتخشى منها رومة خرابها . ولم يستمع اليهم حنبعل على كثرة الحاحهم . ولما أعياهم اعراضه عن موافقتهم عزموا على اغتياله بمساعدة أرباب الاموال التي استحوذت على قلوب أصحابها فلم تبق بها منفذا لحب الوطن . وإذ ذاك أيس حنبعل من خدمة أمته بقرطاجنة . ففر الى الشام ونزل على ملك السريان « أنطيوكيس » وأراد أن يشغل رومة ويخدم وطنه من الخارج . فطلب من ذلك الملك المدد لمحاربة رومة في المشرق . فأمده . وأخيرا أيس من أن تكون لهذه المحاولات ثمرة . فسم نفسه سنة (183) .

وهكذا انتهت حياة هذا البطل العظيم والقائد الكبير الذي لم يهزمه غير الخائنين من قومه عبدة المنفعة الشخصية . فمضى ولسان حاله ينشد :

أنا لولا أن لي من أمتي خاذلا ما بت أشكو النوبا

هـ ــ الحرب البونيقية الثالثة (149 — 146)

خرجت قرطاجنة من الحرب الثانية على تلك الصفة القاضية عليها بالموت . ولكنها أمة تجارية نشيطة فتحسنت حالها وانتعشت . وكان مصينيسا يقلقها بغاراته على حدودها . وقام بها ثلاثة أحزاب : حزب مالي غرضه السلم ومداراة رومة ، وحزب وطني غرضه تأييد

سيادة قرطاجنة بالجيش والحرب ، وحزب بربري غرضه الاحتماء من رومة بالخضوع لمصينيسا • ولو قدر لهذا الحزب الاخير النجاح ما رأى الجزائريون وجوه الرومان وفخفختهم •

لم يكف مصينيسا عن ازعاج قرطاجنة • فرفعت عقيرتها مرارا بالشكوى منه الى رومة التي لم يخف عليها تعدي مصينيسا • وأخيرا خشيت رومة أن يستولي مصينيسا على قرطاجنة ، ويقطع آمالها في امتلاك افريقية • فوجهت الى افريقية ثلاثة من الخبراء للبحث في قضية قرطاجنة مع مصينيسا وانصافها منه • فلما بلغوها ورأوا حسن حال قرطاجنة عدلوا عن انصافها خشية أن تعود الى قوتها وتحتفظ بسيادتها على وطن همهم في امتلاكه • حتى أن أحد الخبراء المدعو قاطون CATON لما عاد الى رومة حمل معه تينات طرية من شجرتها ودخل بها مجلس الشيوخ قائلا : « ان الارض التي تنبت هذه الثمرة ليس بينها وبين رومة الا مسير ثلاثة أيام « ومن كلامه أيضا : « ان رأيي ان نهدم قرطاجنة » ولم يزل يكرر هذا المعنى في خطبه • وبعد قليل أصبحت رومة تلفق أسبابا واهية لتبرير حرب قرطاجنة •

أدركت قرطاجنة جور أولئك الخبراء وعرفت أنه لا ينصفها غير قوتها • فكانت للحزب الوطني فرصة لم يضيعها • إذ قام من رجاله جسقون ونظم جيشا جعله تحت امارة أريو برزان حفيد صيفاقس عدو مصينيسا • واخرج حزب مصينيسا مـن قرطاجنة سنة (152) فاحتج مصينيسا على ذلك أمام قرطاجنة وروجة • وأخيرا هجم على الحدود فخرج اليه صدر بعل في جيش كثير • وانتهت المعركة بفوز مصينيسا • وذلك سنة (150) •

بلغ خبر هذه الحرب الى رومة فاعتمدتها سببا لحرب قرطاجنة بدعوى أنها نقضت الفصل السادس من مواد الصلح السابق • وشرعت

في تجهيز جيوشها للدخول في الحرب البونيقية الثالثة • وما أجدرها أن تسمى حرب التين !

في سنة (149) وجهت رومة جيشا الى افريقية • ولما نزل بصقلية جاءته رسل قرطاجنة معترفين بالجناية على الصلح مع أنهم كانـوا مدافعين لا هاجمين • وقدم أولئك الرسل لضباط الجيش (300) من أعيان قومهم رهنا • ولكن الجيش سـار لطيته وكان عدده ثمانين ألفا • ولما نزل بتراب قرطاجنة طلب منها — تكفيرا عن جناية نقض الصلح ! — تسليم جميع المـواد الحربية وآلات الصناعة • فلبت الطلب ! وكان مما استلمه الجيش الروماني مائتا ألف درع ، وثلاثة آلاف مقلاع ، عدا المراكب وغيرها • وبعد استلام ما طلبه الجيش الروماني أولا طلب ثانيا منها أن تتخلى له عن خمسة عشر ميلا من ترابها • فطلبت تأجيل الجواب عن ذلك الى شهر • ووافقها الجيش على هذا الطلب لاعتقاده أنها عاجزة عن أي مقاومة •

أثار هذا السلوك الممقوت والخداع الخبيث حمية القرطاجنيين • فهاجموا وثاروا في وجوه الذين مكنوا الرومان من قوتهم • وجمعوا عشرين ألف جندي تحت قيادة صدر بعل • وتهيأ السكان أجمعون للدفاع عن المدينة • وكان عددهم سبعمائة ألف • وخرج صدر بعل بجيشه من المدينة ليتمكن من تموينها • واستعد الباقون للحصار تحت رئاسة حفيد مصينيسا المسمي صدر بعل • ونهضوا أثناء ذلك الشهر للعمل بنشاط غريب حتى أنهم هدموا الديار ليأخذوا أخشابها ويصنعوا منها السفن وآلاتها وحلقت النساء شعورهن ليفتل منها الحبال •

وعندما تم الامد جاء الجيش الروماني ليدخل المدينة فوجدها على غاية الحصانة • وتحرج موقفه • ثم فشا فيه المرض والعصيان • وكان القرطاجنيون بخلاف ذلك تزداد حرارتهم الوطنية بطول الحصار •

ولم يجد الرومان مساعدة مــن مصينيسا الذي لزم الحياد رجاء أن يستفيد من ضعف الدولتين كلتيهما •

مكث القرطاجنيون في الحصار عامين • واشــتد عليهم تحت رئاسة سبيون الأميلي اذ حفر خندقا أحاط بالمدينة ، وأقام سدا بينها وبين المرسى ، وطارد الجيش القرطاجني المقيم خارج المدينة • وبذلك انقطعت عن المحصورين مادة التموين • وذلك سنه (147) • وحاول المحصورون النفوذ الى المرسى بأتخاذ نفق تحت الجبل • فشعر بهم المحاصرون وردوهم الى الحصار فاستمروا فيه متزودين بالصبر •

لما أحكم سبيون حصار قرطاجنة وقطع عنها المؤنــة برا وبحرا عزم على فتحها • فقصد مكانا ليدخل منه على غرة من أهلها • ففطن به صدر بعل حفيد مصينيسا وصده بايقاد النيران في وجهه • وأخيرا دخل سبيون المدينة من ناحية المرسى • فشد عليه السكان شدة عنيفة • وأرسلوا عليه كل ما لديهم من مهلكات ومحرقات • ولكنه صبر لها وفتك بمن ساقه القدر اليه من شيوخ ونساء وصبية وأحرق كل ما مر به • ودامت الحال على شدتها ستة أيام بلياليها • والتجأ المحصورون الى هضبة برسة • وهم مع ذلك لا يسلمون قدما إلا بحقها • وكثرت الأموات حتى صاروا يرمونها من طريقهم بالمذاري •

وكان المحصورون بجبل برسة[1] ثلاثين ألفا • فلما أيسوا من النجاة ونفذ ما لديهم مــن وسائل الدفاع ومعدات الحصار أسلموا أنفسهم — ومعهم صدر بعل — لسبيون على أن يحفظ لهم أرواحهم • وكانت زوج صدر بعل أقوى منه جأشا فربأت بنفسها عن أن تحتمل

---

(1) جبل برسة هضبة بمدينة قرطاجنة . شاد بها الفرنسيون اليوم كنيسة ومتحفا وضريحا للقديس لويس التاسع ملك فرنسا الذي هلك في حربه ضد المستنصر بالله الحفصي بالوباء سنة 669هـ 1270م •

منة سبيون • فأوقدت النار بمعبدهم وألقت نفسها فيها • وفعل فعلها ألف قرطاجني • وذلك سنة (146) •

واتهت الحروب البونيقية بفتح قرطاجنة التي خلد البونيقيون بدفاعهم عنها لانفسهم كل الفخر والشرف وللرومان الغادرين كل خزي وعار • وانه لفتح فتح على الجزائريين كل النوائب والمصائب وسد عليهم طريق الاحسان السامي فلم يروه إلا بعد ثمانية قرون عندما جاءهم العرب اخوان الفينيقيين يحملون لهم دينا فطريا وأحكاما عادلة وحضارة طاهرة •

عندما تم فتح قرطاجنة احتفلت رومة بآلهتها وقربت لها القرابين • ثم وجهت عشرة من أعيانها لينظروا مع سبيون في مصير قرطاجنة • فحملتهم الكراهية والبغضاء لمؤسسيها رجال العمران على اختيار هدمها وتخريبها ففعلوا وبئس ما صنعوا • ولعنوا مكانها • وأخذوا من تراب حكومة قرطاجنة قطعة ضيقة أضافوها الى مستعمراتهم وأطلقوا عليها اسم « مملكة الرومان في افريقية » وجعلوا لها واليا مقره عوتيقة •

الباب الرابع

في ذكر البربر

على عهد قرطاجنة وجمهورية رومة

١ ـ علاقات البربر مع القرطاجنيين

ليس لقرطاجنة مطامع استعمارية — بالمعنى العصري — في بربر الجزائر • فلم تكن تخدعهم بالوعود الكاذبة أو تمنيهم الاماني الباطلة • فتتظاهر — وهي تسر حسوا في ارتغاء — بأنها جاءت لخيرهم ، وانها تحكمهم ريثما يصيرون قادرين على ادارة شؤونهم ، رشداء في تصرفهم ، ثم تقلع عنهم ، وتنفض يدها من التحكم عليهم متى بلغوا تلك الغاية •

وقد عاب على قرطاجنة هذا الخلق السامي ستيفان اغسال ونقل كلامه بيروني • وهاك ترجمته :

رومة ملكت أوطانا شاسعة ومع ذلك عرفت كيف تحفظ سيادتها : فالمكان الذي تنتصر فيه تحصنه بالجنود ، وتمني المحكومين بأنها تدعهم وشأنهم متى رشدوا • وقرطاجنة بعكس ذلك : متى ملكت ناحية لم تحصن مركزها فيها ، ولم تعد أهلها بالاقلاع عنهم يوما ما • الى أن قال : فلو شاءت قرطاجنة ان تكون من افريقية دولة ثابتة لسهل الامر عليها • ولكنها فرطت في الاستثمار والاستغلال •

وان عيب على قرطاجنة تفريطها في استغلال البربر فانما يعيب عليها ذلك أهل المطامع الاستعمارية • اما من لم تدنس عقولهم تلك المطامع فانهم لا يرون عيبا على قرطاجنة ان لم تكن ذات خداع سياسي • بل يعترفون بفضل أعمالها العمرانية وما أحسنت به الى بربر الجزائر من جلب البضائع لوطنهم وتعليمهم الحرف والصنائع •

وقد كانت تستميل الرؤساء والامراء بالاموال وتتقرب اليهم بالمصاهرة ، لا لان تخدعهم في استقلالهم بـل ليكفوا عنها هجومات قومهم ورعاياهم أو تستعين بهم في حروبها •

أملقار برقة أعظم قواد قرطاجنة وعد نارفاس من رؤساء البربر بابنته لاعانته له على اخماد ثورة المرتزقة ، وحنبعل الشهير كانت له ابنة أخ تزوجت من اصالساس بن نارفاس ، وصفر نيسب الشهيرة بنت صدر بعل كانت تحت صيفاقس ، ومصينيسا كانت له بنت تزوجت بأحد سراة قرطاجنة وكان منها صدر بعل حامل رايـة الدفاع عن المحصورين بقرطاجنة •

وكان لقرطاجنة منذ أواخر القرن الخامس (ق•م) جنود مرتزقة من نوميديا وموريطانيا • والنوميديون هم الذين أعانـوا حنبعل بأوربا • واليهم يرجع الفضل في انتصاراته الكثيرة الباهرة •

وكانت بين قرطاجنة وبعض أمـراء البربر بالوطـن الجزائري معاهدات تقضي باعانة أولئك الامراء لقرطاجنة أيام الحرب •

فانت ترى أن بـين قرطاجنة وبربر الجزائر روابط بالمصـاهرة والمعاهدة ، واختلاط في الجندية •

2 ـ الحضارة القرطاجنية بالجزائر

كان البربر قد اجتازوا العصر الحجري وعرفوا الزراعة قبل تأسيس قرطاجنـة • ولكنهم اسـتفادوا مـن القرطاجنيين فوائـد كثـيرة وجليلة بحيث يصدق عليهم أنهم تلاميذهم في العمران والحضارة •

كان شجر الكروم والزيتون بأرض البربر من النباتات الطبيعية ولم يهتدوا الى وجه استثماره • فلما جاورهم القرطاجنيون أخـذوا

عنهم صناعة عصر العنب للخمر وحب الزيتون للزيت • وكانوا قد عرفوا الفلاحة • فاستفادوا من القرطاجنيين ضروبا أخر من البذور لم تكن بوطنهم ، وأخذوا عنهم أيضا آلة لدرس الحبوب • ولم تكن للبربر دراية بالغراسة • فاستفادوا من القرطاجنيين غراسة الاشجار على اختلافها • وتعلموا منهم تربية الحيوانات • وعرفوا منهم المعادن فاستخرجوها • من ذلك النحاس • استخرجوه قبل الفتح الروماني • ويظن بعض الباحثين أن ذلك كان بناحية تنس • وتعلموا منهم صنع الرصاص والحلي ونحت الحجارة النفيسة • ولم ترج صناعة الحديد بين البربر إلا على يد القرطاجنيين [1] • وتعلموا منهم صناعة الاواني المطلية وفنهم في البناء • فكانوا يبنون القباب على شكل الاهرام • وعرفوا الفن الاغريقي أيضا في البناء • ولكن بواسطة القرطاجنيين •

وقد عثر الباحثون في الوطن الجزائري على اطلال من بناءات البربر حكوا فيها الفن الفينيقي • وكثيرا ما يجدون أطلالا مركبة من الفنين الفينيقي والاغريقي •

وليس لقرطاجنة من حيث أنها حكومة يد في انتشار هذه الحضارة لأنها كانت في نواح لم تكن لقرطاجنة عليها سلطة • وانما كان انتشارها ناشئا عن أسباب مرجعها الى ما كان بين الامتين من الروابط • وهاك أهمها :

1 — المدن البونيقية : ذلك أن البربر كانوا يقصدون تلك المدن

---

(1) تأخر رواج صناعة الحديد بين البربر الى ذلك العهد لا يدل على بعدهم عن الحضارة لان مجيء القرطاجنيين كان لاول العصر الحديدي فيما يظهر . فقد قال تعالى في شأن داوود : « وانزلنا له الحديد » وذلك يدل على أن عصر داوود هو بداية العصر الحديدي . وقد علمنا الخلاف في تأسيس قرطاجنة هل كان في عصر داوود او بعده ، وان تأسيسها كان بعد تعرفهم بهذا الوطن على كل حال .

يشترون منها بضائع بونيقية ويشاهدون بها حضارة بونيقية • فينقلونها داخل وطنهم باختيارهم • وما أسرع البربري الى الاخذ بالجميل إذا لم يكن مبغضا لأهله •

2 — الجنود المرتزقة : ذلك أن قرطاجنة كان لها من البربر جنود مرتزقة • وهؤلاء الجنود يختلطون بالبونيقيين ويتأثرون بحضارتهم • فبعد أن يقضوا بينهم زمنا يعودون الى أوطانهم ناشرين لتلك الحضارة •

3 — أمراء البربر : ذلك أن لكثير من أمراء البربر ولوعا بترقية وطنهم • فكانوا يقتبسون من جيرانهم البونيقيين ما يبلغون به أمنيتهم • فيأخذون من مدنيتهم وحضارتهم أمثلة صالحة ينشرونها بين رعاياهم بهمة وعناية ، ويسيرون بها في مساكنهم واداراتهم شوطا بعيدا • والناس — كما قيل — على دين ملوكهم •

ولكون البربر هم الذين جلبوا الى وطنهم الحضارة القرطاجنية ونشروها بينهم باختيارهم لم تسقط هذه الحضارة بسقوط قرطاجنة بل عاشت في العصر الروماني ، ولم يضرها جوار الحضارة الرومانية •

قال بيروني :

بدلا من أن يقضي الرومان على حضارة قرطاجنة نشروها ومدوا في عمرها ، مع عدم المناسبة بين الفينيقيين والرومان أصلا وحضارة • ولكن طول مكث الفينيقيين بافريقية غرس حضارتهم في نفوس البربر غرسا لا يزول بزوال ملكها • حتى أن الرومان لما صاروا يملكون وينشرون حضارتهم لم يفهم ذلك البربر إلا أنها حضارة قرطاجنية • ولم يزل ذلك من أفكارهم إلا الفتح العربي • فكان عمر هذه الحضارة (17) قرنا •

هذا كلام بيروني سقناه لما فيه من الشهادات العادلة • وفيه

سبب لانتشار حضارة قرطاجنة بين البربر وطول أمدها غير الاسباب التي قدمنا • ولكن ما قدمناه هي الاسباب الحقيقية أما طول المكث وحده فغير كاف • وسترى ان طول مكث الرومان لم يتسبب عنه بقاء حضارتهم بعد ذهاب سيادتهم ، ولم ينتج عنه انتشارها حتى أيام سيطرتهم • بل في كلام بيروني هذا ما يغني في رد ما جعله سببا لبقاء حضارة قرطاجنة عن انتظار ما يأتي في آخر الباب التالي •

3 ــ تأثير قرطاجنة على البربر في الخط واللغة

كانت للبربر حروف هجائية كما كانت لهم لغة • ولكنها لم تكن لغة آداب وعلم • فلما خالطوا الفينيقيين تأثروا بلغتهم ومالوا الى خطهم • حتى صاروا بقرطة لا يتكلمون بغير الفينيقية • وأصبحت هي اللغة الرسمية بدواوين الحكومة على عهد مصينيسا فمن بعده من الملوك • وظهر ذلك على نقودهم الدولية التي عاشت بعيش دولتهم الى أواسط القرن الاول للميلاد •

وعلى أيدي الملوك والامراء انتشرت هـذه اللغة بين العامـة خصوصا في الجهات التي تجاور مملكة قرطاجنة • ولم تزل حيـة بنواحي قالمة وبونة الى أيام القديس أغسطين • غير أنها لم تكن إذ ذاك لغة مدرسية ، والبلغاء يترفعون عنها ويتظاهرون بجهلها ، وانما هي لغة البوادي الذين كانوا يجهلون اللغة اللطينية الى ذلك العهد • فكان الرومان يحتاجون في ذلك الحين الى مترجم عارف بالفينيقية عندما يضطرون الى مخاطبة البداة من البربر •

وقد وجدت كتابات بقالمة ونواحيها وقسنطينة وميلة على قبور بهذه اللغـة • ويرجع تاريخ هـذه الكتابات الى ما بعد سقوط قرطاجنـة •

ومن اللغة الاعلام • وقـــد اتخذ البربر لبعض مدنهم أعلاما فينيقية • ومن ملوك نوميديا من سمى أبناءه باعلام فينيقية • فقد كان لمصينيسيا ابن يدعى منستبعل وابن آخر يدعى آذر بعل • واقتفت السوقة أثر الملوك في ذلك قرونا • ويوجـــد بجهات سطيف وجبل أوراس وسور الغزلان كتابات بحروف لطينية لاعلام فينيقية • منها نمفامو ، صدر بعل ، بريق بعل ، بو ملكار ، مع أن هذه الجهات لم تدخلها قرطاجنة قط •

فأنت ترى أن اللغـــة الفينيقية عاشت بالجزائر بعـــد قرطاجنة قرونا ، ولم تقض عليها أو تذهب بأغلبيتها لغة الامم التي جاءت بعد القرطاجنيين ، الى أن جاء العرب فقضت لغتهم على هذه اللغة •

قال بيروني : اتفق المؤرخون على أنه لا يمكن معرفة ما بقي من آثار هذه اللغـــة لانها لغـــة سامية وقـــد دخلت عليها أختها العربية وحلت محلها •

هذا وان انتشار الفينيقية بتلك الدرجـــة ودوام عمرها قرونا لا يفيدان أن اللسان البربري حفظها كما هي • بل لا بد أن تكون قد تغيرت وامتزجت بالبربرية • وهذا وجه آخر عندي لعدم امكان معرفة ما بقي من آثارها •

4 ـــ تأثير قرطاجنة على البربر في العقيدة

كانت للبربر دياناتهم التي لا تختلف عن ديانات الامم القديمة الوثنية إلا من حيث تفاصيل العبادات وتماثيل المعبودات وأسماؤها التي هي من توابع اللغات •

ولما جاورهم القرطاجنيون تأثـــروا بهم في عقيدتهم وقلدوهم في

كثير من طرائق عبادتهم وغيروا بعض ما ورثوه عـن أسلافهم بما شاهدوه عند جيرانهم •

عبد الفينيقيون إله البربر « أمون » لكن حسب تقاليدهم وبعد تسميته « بعلهمون » وبعد صنع تماثيل له غير تمثالي التيس والكبش • فقلدهم البربر في تلك التماثيل أيضا وشادوا ــ اجلالا لبعلهمون ــ تماثيل بقرطة وميلة وقالمة • وعبدوا من آلهة الفينيقيين « استارتي » و « جليست » • ومن الآلهة التي بقي اسمها الى ما بعد الاستيلاء الروماني « بليدير » ومعناه الرب العظيم • وكان معبودا بسيقوس وجوار قالمه •

قال اغسال : « وثم آلهة فينيقية تحت حجاب اللغة الفينيقية » •

ولم تزل ديانة الفينيقيين التي أدمجها البربر مـع دياناتهم حتى جاءت وثنية الرومان فتعاشر الثلاث ثم ظهر الدين المسيحي فتدثر به جانب من البربر مستبطنا لوثنيته الملفقة من الوثنيات الثلاث وبقي أكثرهم وثنيا صريحا حتى جـاء الدين الاسلامي على ايدي فاتحي افريقية من العرب فقضى على الجميع • على أنه لم تزل الى اليوم عوائد متخذة عقائد لا تتفق مع روح الدين الاسلامي ، ويبعد أن تكون من بقايا الوثنية الاولى ، فان الاسلام قـد تمكن من قلوب البربر حتى ان تلك العقائد الفاسدة انما عاشت بينهم لاحتمائها بالاسلام وتسترها بجداره ، فلو وجد من العلماء المخلصين لدينهم وقومهم عدد كاف لحمل العامة على الثقة بما يقولون ، وأخذوا في رفـع الستار عن فساد تلك العقائد لنفض مسلموا اليوم أيديهم منها ، ولكن ما لم يكن اليوم فعسى أن يوجد غدا • ان رحمة الله قريب من المحسنين •

وقد اتضح لك من هذا الفصل وما قبله ان القرطاجنيين أثروا في البربر تأثيرا بعيد الاثر ، لا يحوي تاريخهم نظيرا له إلا ما كان

من تأثير العرب في العصر الاسلامي • وسر ذلك ان البربر يأنفون ممن يعبث باستقلالهم ويتذرع الى ذلك بوسائل الخداع السياسي والنفاق الاستعماري • وإذا أنفوا من أمة هذه خلالها رفضوا مدنيتها وهجروا أخلاقها وعقائدها • والفينيقيون كالعرب من الجنس السامي جنس الصراحة الصادقة والكلمة الثابتة • فلذلك أثروا في البربر ذلك التأثير ونفذوا الى قلوبهم فغيروا من أخلاقهم وعوائدهم ولغتهم وعقائدهم •

5 ـ نشوء الممالك البربرية العظمى

إذا ألقى المرء نظرة على خريطة الجزائر الطبيعية ألفاها ذات أقسام مختلفة : جبال وهضاب وحقول وصحار • ولاهل كل قسم من هذه الاقسام طبائع وعادات يختلف بعضها عن بعض تبعا لاختلاف الامكنة • ولكنهم لم يكونوا من الاختلاف بحيث لا يتعارفون ولا يتعاملون • فقد كان بالوطن الجزائري طرق تخترقه وتربط بين هاتيك الاقسام ، وتسهل المواصلة بين السكان • ففي كل عام ينتقل أهل الصحراء بمواشيهم الى التل — كما هي الحالة اليوم — وتقع المعاملة بين الفريقين : يأخذ التلي الصوف والتمر ، والصحراوي الحبوب •

وبذلك تكونت علاقات بين الشعوب الجزائرية منذ أقدم العصور التاريخية ، وتأسست منهم ممالك كبرى ذات نظام وعمران وحضارة •

صيفاقس من ملوك البربر استطاع أن يجند (60) ألفا لمحاربة سبيون الافريقي ، ويوبا الاول جمع لحرب قيصر (30) ألفا راجلا و (20) ألفا فارسا • وفي القرن الثاني (ق•م) كان مصينيسا

ومصيبسا ويوغورطا ملوكا على ما بين طرابلس ومراكش ، وقد يمتد حكم بعضهم الى المحيط الاطلانتيقي •

وقد بلغ من عظمة ملوك البربر أن كانـوا احدى العوامل في سقوط قرطاجنة ، وغصت بهم رومة رغم اتساع بلعومها لكثير من الاوطـان •

وقد كان هؤلاء الملوك يحبون الاستبداد بالسلطة والاستقلال بالارادة والادارة ، لذلك أسلموا قرطاجنة للسـقوط وقاوموا رومة حينا من الدهر •

وللملوك البربر نواب في مختلف الجهات يسمون ملوكا أيضا • ويرسلون للمدن عمالا • ومن المدن ما منحوها الاستقلال ، ونظمت حسب نظام المدن القرطاجنية ، وكان لها قضاة كقضاة مدن قرطاجنة الذين يعرفون بالاشفاط SUFFETE • ومنحت تلك المدن حق ضرب النقود ، فكتبت عليها باللسان الفينيقي •

والحكومات البربرية وراثية محصورة في بيوت منهم سواء في ذلك الملوك ونوابهم •

وقد كان بقرطة تجار وعمنة من الاغريق والايطاليين • وكان نطاق العمران متسعا • ولكن شمال قرطة كان أوفر حظا • فكانت المدن بتلك الناحية كثيرة عامرة • وتوجد مدن عامرة أيضا وهي في الجنوب منها تفيست ، وقد بلغ من عمرانها وكثرة سكانها أنها في سنة (250) ق•م تمكنت من اعطاء ثلاثين ألفا من رجالها رهنا على الطاعة لقائد قرطاجني •

وانتشرت الفلاحة على يـد مصينيسا • وكثيرا ما مون ملوك نوميديا جنود الرومان بالقمح والشعير في حروبهم بالمشرق أو باسبانيا أو بجزيرة سردانيا •

ولم تزل الجزائر من ذلك الحين صالحة للفلاحة وتربية الحيوانات التي تكلم عليها سالوست • والعمارة الفلاحية كانت تمتد الى حد الجزائر الغـربي • وكانت مصيصيليا أغنى مـن مصيليا رجـالا وتنائج أرض •

وكان البربر يفتخرون بكثرة النسل • قال اغسال : « ويرون افريقيه أكثر من غيرها في ولادة التوأم » ومراده بافريقية ما يشـمل الجزائر • ولم يزل هـذا الخلق الى اليوم بزواوة • قال أبو يعلى الزواوي : ومن عادات زواوة أنهم « يقلدون المرأة التي أَذْكَرَتْ نوعا من الحلي خاصا بالجبهة »[1] •

وبتقدم العمران تقدمت الحضارة • قال اغسال : « ولم يكن جميع من تحت هؤلاء الملوك متوحشين » فقد شيدت المباني العجيبة من منازل وصوامع وقصور وقباب ومعابد • كل ذلك على نمط الفن الفينيقي أو الفن الافريقي المركب من الفنين الفينيقي والاغريقي •

6 ــ ذكر بعض رؤساء البربر

لم تظهر بالوطن البربري دول عظام وملوك فخام إلا عندما أخذ الطمع الاشعبي يدفع رومة لامتلاك وطنهم ، واصطدمت بقرطاجنة • فحينما دب الهرم في دولة قرطاجنة ونخرت أعظمها من حروب اليونان والرومان أراد البربر أن يحفظوا استقلالهم فكان منهم ملوك سنرى أخبارهم فيما يلي هذا الفصل •

واستغناء البربر أولا عن تأسيس دولة ثم التجاؤهم ثانيا يظهر سره فيما أجاب به النعمان بن المنذر كسرى وقد عاب أمامه العرب

(1) تاريخ الزواوة ص 34 •

بعيوب منها عدم انقيادهم لرجل يسوسهم • وهذا جوابه : « وأما تركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل ذلك من يفعله من الامم إذا آنست من نفسها ضعفا وتخوفت نهوض عدوها اليها بالزحف » •

حقا حفظ البربر استقلالهم بتأسيس تلك الممالك مدة • وقد كانوا ينجحون في اقصاء عدوهم لولا انقسامهم على رؤساء وامراء كل يحارب الآخر • ولا أضر على الامم من الحروب الداخلية والتهالك على الرياسـة •

قبل ظهور الملوك العظام كـان لعشائر البربر رؤساء هم نواة الملك الذي عظم من بعدهم • ونحن نذكر مـن أولئك الرؤساء ما اهتدينا الى خبره ، ثم نقفي بذكـر الملوك العظام الذين قلما تجود بهم الايام •

1 ـــ **مطوس** : كان زعيم العساكر المرتزقة التي ثارت عـلى قرطاجنة سنة 238 (ق•م) •

وذلك أن قرطاجنة كان لها من العساكر المرتزقة عشرون ألفـا عجزت عن أداء أرزاقها بعد خروجها من الحرب البونيقية الاولى على ذلك الوجه المضـر بها • فلم تعذرها تلك العساكر وثارت مطالبة بأرزاقها • فمنحت كل واحد دينارا (صرفه مجهول) فلم يرضهم ذلك • فوجهت لهم ضابطا يدعى حنون فعجز عن مقاومتهم • ثم عينت لكسر شوكتهم أملقار القائد العظيم (1)•

---

(1) منهم من يسميه عملكرض أو هملكار . وما اثبتناه في الاصل هو ما في ابن خلدون . غير انه قال املقا . والظاهر ان الراء سقطت في التصنيف فقط .

2 — **نارفاس** كان ملكا بمصيليا • ولما اشتدت ثورة العساكر المرتزقة وحاصروا عدة مدن منها بنزرت وعين أملقار لحربهم رأى أنه لا يقوى عليهم إلا بمساعدة نارفاس • فاستماله ووعده بابنته • فاعانه وتمكن بذلك أملقار من محاربة الثوار • أخمد أولا ثورتهم فجددوها وبلغوا أن حاصروا قرطاجنة • فتمكن لأملقار أن يدافع طائفة منهم حتى حصرها بين جبلين • ولما ضعفت استأمنت له لكنه استأصلها عن آخرها • وبقي مطوس بمن معه محاصرا لقرطاجنة • فضاعف القرطاجنيون قوتهم حتى غلبوا مطوس وجنده •

3 — **غولة** : هو ابن نارفاس خلف أباه على ملك مصيليا • وكانت عاصمته قرطة • فجري على سياسة والده من مصادقة قرطاجنة الى أن توفي سنة (206) ق•م •

4 — **اصالساس** : هو ابن نارفاس أيضا • خلف أخاه على ملكه في عاصمته • وكان معه مصينيسا بصفة أمير • وبعد قليل توفي وترك ولدين هما : قولوسا ، لكومسيس •

5 — **قولوسا** : كان هو الاكبر سنا فانتصب مكان أبيه حسب نظامهم في ارث العرش • وثار عليه ثائر من الاسرة المالكة • لكنه — حسب القانون الوراثي — لا حق له في الولاية • ويدعى هذا الثائر مزوطيل • نشبت الحرب بين الملك والثائر وجموعهما • وانتهت بهلاك قولوسا •

6 — **لكومسيس** : بعد أن فاز مزوطيل تنازل عن الملك لمن له الحق فيه وهو لكومسيس • وانتصب وكيلا عنه وكافلا له • فكان تنازله اسميا • وفي الواقع هو الملك •

كان من الواجب على قرطاجنة ان تتداخل في هذه الثورة لفائدة من له الحق في الولاية • لكنها وقفت موقف المتفرج • وكان مصينيسا

ابن غولة بالاندلس مع القرطاجنيين في حرب الرومان • فلما بلغه خبر مزوطيل واعراض قرطاجنة عن ثورته خرج من الاندلس مغاضبا للقرطاجنيين ومحالفا للرومان • قصد مصيليا ليطرد من عرشها مزوطيل ويتسلم هو مقاليد الحكم • فمر بمصيصيليا مملكة عدوه صيفاقس في شرذمة من الجند • وبلغه أن مزوطيل ذاهب لزيارة صيفاقس • فكمن له في بعض السبل وانقض عليه وعلى من معه • وتقاتلا حينا وحكمت المعركة لمصينيسا • ففر مزوطيل بمن بقي من جنده • واستقر مصينيسا بعرش آبائه ملوك مصيليا •

7 — صيفاقس (230 — 202) ق•م

صيفاقس من أعظم ملوك البربر • كان ملكا على مصيصيليا • وعاصمته صيغة ، كان هذا الملك معاصرا لغولة • ومن أخلاق ملوك البربر التنافس والتخاذل والاستعانة بالاجنبي • ولولا ذلك لكان الوطن البربري أمنع على مريد اغتصابه من عقاب الجو •

ولهذا السبب كان هذان الملكان مختلفين : غولة حليف للقرطاجنيين ، وصيفاقس حليف للرومان •

وفي سنة (213) أرسل اليه الرومان ضباطا يعلمون جنوده • وسار صيفاقس ضد غولة • فوقعت الحرب بينهما • وكان رئيس جيش غولة هو ابنه مصينيسا • وعمره إذ ذاك سبع عشرة سنة • فانتصر مصينيسا وأخرج صيفاقس من عاصمته صيغة • فذهب الى موريطانيا الغربية وجمع من أهلها جيشا ساقه لحرب مصينيسا • فعادت عليه الكرة أيضا • وذلك سنة (212) •

بعد انتصار مصينيسا صارت مملكة غولة تمتد الى ملوشات

غربا • فكان بذلك ملكا على مصيليا ومصيصيليا • وكان صدر بعل القرطاجني بالاندلس فجاء مددا لمصينيسا على صيفاقس • وبعد الانتصار عاد اليها بجيوش كثيرة تحت قيادة مصينيسا •

ولما توفي غولة واعقبته ثورة مزوطيل ولم تتداخل فيها قرطاجنة غضب مصينيسا وخالف قرطاجنة وحالف رومة •

كانت قرطاجنة تخطب ود صيفاقس وهو معرض عنها • ولعل تغافلها عن ثورة مزوطيل التي فيها فائدة صيفاقس كان بقصد استمالته • ولكنها خسرت بهذه السياسة صداقة مصينيسا • وإذ كان مصينيسا مع الرومان خالفهم القرطاجنيون الى استمالة صيفاقس • فكانت عليهم هذه المرة سهلة • وكان لصدر بعل بنت شهيرة تدعى « صفو نيسب » وعد بها مصينيسا فلما أيس من مناصرته عدل عن مصاهرته وزوجها من صيفاقس عدو مصينيسا •

اتخذ القائد القرطاجني هذه الوسيلة شفيعا له في صداقة صيفاقس فنجح • وكيف لا ينجح بمثل هذه الشفاعة التي يقول فيها الفرزدق :

ليس الشفيع الذي يأتيك متزرا

مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

صدق صيفاقس في صداقته لقرطاجنة • وابتدأ عمله بمحاربة مصينيسا الذي انتصب بقرطة ملكا على مصيليا • فانتصر عليه وانتزع منه أغلب مملكته • ففر مصينيسا واعتصم ببعض الجبال • وذلك سنة (205) ومن معتصمه صار يغير على تراب قرطاجنة فأقلقها • وإذ ذاك رغبت من صيفاقس أن ينهي قضية مصينيسا انهاء حاسما • فلباها وأرسل جيشا تحت قيادة بوكار • فشد الخناق على مصينيسا وفتك

برجاله ولحقته هو جراحات عميقة أعجزته عن أي مقاومة • فرمى بنفسه في واد ونجا الى الضفة الاخرى • وذلك ناحيـة قليبية من التراب التونسي •

بعد هذه الخيبة آوى الى مغارة بسفح جبل ريثما يلتئم جرحه ، ويستعيد قواه • وذاع أنه توفي • ولكنه كان يسعى سرا في جمع الجنود • وبعد استراحته ظهر لاهل مصيليا • فسرتهم رؤيته وابتهجوا بوجوده ، فانجدوه • وبعـد قليـل جمع (6000) مـن المشـاة و (4100) من الفرسان •

ولم يكن صيفاقس بغافل عنه فجمع جموعه الكثيرة وقسـمها جيشين أحدهما برئاسته والآخر بقيادة ابنه فرمينة • وكان مصينيسا بالجبال التي بين قرطة وهبون • فقصـده صيفاقس • واصطدمت الجيوش وحمي وطيس الحرب • وأسفرت عن نجاح صيفاقس وهزيمة مصينيسا • ففر الى بلاد السرت الاصغر (قابس) •

إذ ذاك استقل صيفاقس بملك مصيليا ومصيصيليا بعدما كان استقل بهما غولة • وهكذا الدنيا اقبال وادبار •

اتسع نطاق مملكة صيفاقس فاتخذ قرطـة عاصمته سنة (204) وبينما هو متمتع بملكه العريض ومصينيسا شريد في الجبال والفيافي إذ نزل سبيون الافريقي بجموعه في افريقية ، فلاح بذلك بارق الامل لمصينيسا • وجاء بمن كان في صحبته نجدة لسبيون •

هنالك أرسل صدر بعل بن جسقون الى صهره وحليفه صيفاقس فجاءه بستين ألفا مقاتلا ونزل في مركز خاص ولم يختلط بصدر بعل • نشبت الحرب بـين القرطاجنيين والرومان • فأظهر سبيون الانهزام مكيدة وخاطب محاربيه في الصلح • وبينما هم يتفاوضون إذا بسبيون دخل بين الجيشين المتحالفين وحال دون اتصالهما بعضهما ببعض •

وفي الليل هجم هو مع قومه على صــدر بعل ، ومصينيسا في رهطه على صيفاقس • وأحرقا عساكر العدو بالنيران ومن بقي عن النار ألحقته السيوف • فكانت على القرطاجنيين وأنصارهم وقيعة كبرى وذلك سنة (203) •

شجع هذا الانتصار سبيون على فتح قرطاجنة • ولكن لم يرد أن يورط نفسه فيه قبل استئصال أنصارها من البربر • فجهز جيشا لحرب صيفاقس بقيادة مصينيسا • فالتقى الملكان البربريان بجموعهما • فكبا بصيفاقس جواده في المعركة فأخذه مصينيسا أسيرا • وذهب به الى قرطة واحتال لدخولها فدخلها • وأتى صفو نيسب وأراد التزوج بها • فلم يرق ذلك لسبيون خشية أن تستميله عنه الى قومها • ولكنها أنهت الخلاف بينهما بقتل نفسها !

وبعث بصيفاقس الى رومــة • ومات بها سجينا ســنة (201) وهكذا ختمت سعادته بالسيادة [1] وبسطته في السلطة • فمات سجينا بعيدا عن الاهل والولد • وذلــك مآل سياسته في منافسته لابن وطنه ، واستعانته عليه بالرومان أولا • ويسرني — وأيم الله — أن تكون هذه عاقبة كل من سعى في جلب الاجنبي الى وطنه ليتقوى به على منافسه من أبناء جنسه •



(ش ـ 5)
نقود صيفاقس . وعليها رسمه وكلمة صيفاقس ملك

---

(1) بالسيادة يتعلق بالسعادة .

8 ـــ فرمينــة (201 ـــ 158)

فرمينة هو ابن صيفاقس • قسمت رومة مملكة والده بينه وبين مصينيسا • وأعطته هو مصيصيليا مملكة والده الاصلية •

فرمينة ابن عدو الرومان ووارثه في أحقاده وضغائنه ، ومع ذلك يعطونه مصيصيليا ولا يزيدونها لمصينيسا صديقهم ونصيرهم • قد يكون هذا شيئا عجابا • ولكن لا عجب مع السياسة • ولا صداقة ولا عداوة فيها • لو بسط مصينيسا نفوذه على مصيليا ومصيصيليا لكان ذلك مما يضر بنفوذ الرومان ويضعف من آمالهم في افريقية • وليس في وجود أميرين بربريين ما يخشى منه ذلك • لانهما إذا لم يكونا جميعا تحت نفوذهم فلا أقل من واحد يخلص لهم طمعا في الانتقام من الآخر •

ولم أعثر على ما ينير لي حياة هذا الملك وما قام به أيام ملكه من الاعمال • ولا عثرت على نهاية ملكه سوى أن بعض المؤرخين ذكر أن مصينيسا استقل بمصيليا ومصيصيليا سنة (158) فيظهر أن تلك السنة هي التي انقضى فيها ملك فرمينة إذ لا يعرف بعده ملك على مصيصيليا قبل مصينيسا •

وهكذا بعدما عثر جد صيفاقس بعثار جواده وأخذ منه الدهر ما كان من طريف عزه وتلاده لم يكن لخلفــه صيت ولا سمع له حسيس أو صوت •



(ش ـــ 6)
نقود فرمينة . وعليها رسمه وكلمة فرمينة ملك

9 ـــ مصينيسيا (201 — 149)

مصينيسا بن غولة بن نارفاس • ربي بقرطاجنة • وكان سلفه حليفا لدولتها • فخاض مع القرطاجنيين حروبهم مع الرومان بالاندلس •

وقائد الرومان بالاندلس سبيون الافريقي • وقد شاهد ما لمصينيسيا من المقدرة الحربية • فصار يخاطبه في ولاء رومة • واتفق أن وقع مصيفا ابن أخي مصينيسا أسيرا بيد سبيون سنة (207) فسرحه تقربا من عمه • كل هذا ومصينيسا محافظ على ولائه لقرطاجنة •

وفي سنة (206) توفي غولة وأعقبته ثورة مزوطيل • فلم تحافظ قرطاجنة على أمواله ومملكته • وذلك استخفافا بمصينيسا الذي لولا اشتغاله بخدمتها لم يقع ما وقع بمملكته • فغضب لذلك واضطر لمحالفة الرومان •

رجع مصينيسا من الاندلس ومر بموريطانيا وطلب من ملكها بوكار شرذمة من الرجال لحمايته في طريقه • فأمده مصانعة • وأغذ السير حتى دخل وطنه • فهرع اليه أنصاره •

وبدخوله وطنه دخل في حرب قريبه مزوطيل والملك الصوري لكومسيس • فكان النصر حليفه وفر ابن عمه لكومسيس الى صيفاقس فأمده وأعاد الحرب ثانية • فعادت عليه الهزيمة • وبعد أن رأى مصينيسا عجز ابن عمه عن الحرب رق له وقربه وأشركه في الحكم • فجمع بذلك شمل أسرته وأعرب عن دهائه وحكمته •

لم يكن صيفاقس ولا القرطاجنيون ليرضوا بوجود مصينيسا على رأس حكومة مصيليا • ولم يجدوا سبيلا لاخذه من ناحية التفرقة والمشاغبة عليه برجل من عشيرته • لانه سد هذا الثلم بالتساهل مع

ابن عمه • فرأوا أن يبادروا اليه قبل استفحال أمره • فجمع لــه صيفاقس الجموع وحاربه مرارا حتى أخرجه من مصيليا والتجأ الى السرت الاصغر •

أخرج صيفاقس مصينيسا من عاصمته كما أخرجه هو قبل ذلك بنحو ثماني سنوات • واشتغل بالسرت في طائفة من أصحابه بشن الغارات في تلك الجهات الى أن جاء سبيون الى افريقية فانضم له وحارب معه حتى سقط صيفاقس في يده وعاد منصورا ودخل قرطة عاصمة سلفه • واعترف له الرومان بالسيادة على مصيليا • ومنحت مصيصيليا لفرمينة • وفي سنة (158) استقل بملك مصيليا ومصيصيليا كما كان والده استقل بهما قبل •

اتسعت من ذلك الحين مملكته وصارت تشمل ما بين طرابلس ومراكش خلا ما كان من التراب التونسي تحت قرطاجنة • وبقي على محالفته لرومة • فكان يعينها في حروبها خلف البحار بالرجال والافيال والحبوب ، يرسلها مع أبنائه ليتعرفوا الى الرومان ويقفوا على طبائعهم في وطنهم وسياستهم في عاصمتهم • وكان شيوخ رومة يجازونه على اعاناته المادية بهدايا شرفية من تبجان ذهبية وقضبان عاجية وكراسي عاجية ، وعلائل مطرزة بالذهب وحلل •

وكما كان يعينها تلك الاعانات كان يعترف بسيادتها ويقول : « ان رومــة هــي المملكة الحقيقية • وليس لــي مــن مملكتي الا الاستغلال » •

وكل هذا منه مصانعة وخداع اقتضته السياسة • أما غايتــه الحقيقية فهي الاستقلال بملك افريقية الشــمالية والقضــاء عــلى القرطاجنيين وطرد المطامع الرومانية • وقد أدرك الرومان منه هذه الغاية فاستخدموه في اضعاف قرطاجنة عدوتهم القوية • ولما فتحوا

مقدونيا طلب مصينيسا من شيوخ رومة الاذن في زيارة عاصمتهم ليقدم قربانا للالهة « جوبيتر » (كوكب المشتري) • فلم يرضوا ذلك الطلب ـ أظن لأسرار سياسية ـ وأجابوه بأن بوطنه آلهة فليتقرب لها ان شـاء •

كانت اعانة مصينيسا لرومة على ضربين : اعانات خارج افريقية غرضه بها مخادعة رومة بابداء صداقته لها ، واعانات بافريقية غرضه بها اضعاف قرطاجنة كي يتمكن مـن تنفيذ برنامجه الاستقلالي • فأعانها في حرب زامة التي كانت للرومان على القرطاجنيين • ووقع بينهما ذلك الصلح الذي اشتمل على المادة السادسة لفائدة مصينيسا • ومن ذلك الحين أخذ في تنفيذ برنامجه • واستعد له بتنظيم الجيش وتنشيط الفلاحة والتجارة • وصار يتقدم نحو قرطاجنة ويختزل من أراضيها • فرفعت شكواها منه الى رومة • وكررتها مرارا • فكانت رومة تغضي عن الاجابة أحيانا ، وتعد على قرطاجنة مساعدة حنبعل لامير الشام أخرى • وأخيرا وجهت ثلاثة من الخبراء لينظروا في قضية قرطاجنة ومصينيسا • فلم ينصفوها وأبقوا له ما ملك من أراضيها •

وما زال مصينيسا على غاراته في تراب قرطاجنة • وهي تكـرر شكواها منه لرومة حتى استمعت لها ووجهت ثلاثة خبراء أيضا • وكانوا يريدون تأييد قرطاجنة لانهم يخشون من استفحال سـلطان مصينيسا والقضاء على مطامعهم في افريقيـة اذ كانوا لا تخفى عليهم غايته • وكانوا يظنون قرطاجنة في حالة بؤس وضعف بحيث لا يخشون جانبها • فلما نزلوا بها وشاهدوا حسن حالتها خلاف ما كانوا يظنون رأوا أن انصافها يعزز قوتها • وذلك مما يدفعها في المستقبل لتجديد الحرب مع دولتهم • فعدلوا عن قصدهم وتركوا ما كان على ما كان •

إذ ذاك عزمت قرطاجنة على أن تنصف نفسها بنفسها • فسعت

في لم شعثها • وأخرجت من عاصمتها شيعة مصينيسا الذين كانوا يدعون الى حماية التراب القرطاجني من الرومان بالدخول في طاعته والاستظلال برايته •

غضب مصينيسا من طـرد حزبه • وأرسـل الى قرطاجنة اثنين من أولاده احتجاجا على ذلك • فقوبلا بكل ازدراء وامتهان • إذ ذاك أرسل ولده غولوسة الى رومة مخبرا لدولتها بما صنعت قرطاجنة • فأرسلت رومة اليها تهددها بالحرب ان هي نقضت اليوم ما أبرمته بالامس •

لم تحفل قرطاجنة بهذا التهديد • ولم يترقب مصينيسا ما يكون من رومة • فهجم على الحدود • وخرج اليه صدر بعل بخمسة وعشرين ألفا من المشاة وأربعة آلاف فارس • فاقتتل الفريقان • وبرق لصدر بعل بارق الانتصار أولا • ثم استحر القتال • ولم يتبين غالب من مغلوب • فأراد صدر بعل أن يخاطب — وهو قوي — عدوه في الصلح • فأجابه مصينيسا بطلب رد الاسرى • فامتنع من ذلك • وعاد الفريقان للقتال • فانجلت المعارك عن هزيمة صدر بعل • فطلب الصلح من جديد • وتم على الصفة الآتية :

1 — رد الاسرى من غير فـداء •

2 — اعادة المنفيين من حزبه لقرطاجنة •

3 — غرامة حربية مقدارها خمسمائة حمل من الفضة في مدة خمسين سنة •

4 — وضع السـلاح •

عاد القرطاجنيون بعد ذلك الى عاصمتهم • وبينما هم سائرون اذ هجم عليهم غولوسة • ففتك بهم فتكا ذريعا • وذلك سنة (150) •

بلغ خبر هذه الحرب الى رومة • فادعت على قرطاجنة انها لم تحترم مواد الصلح الواقع بعد حرب زامة • حيث تعهدت إذ ذاك أن لا تحارب مصينيسا • ووجدت بذلك وجها لفتح حرب عليها • تلك الحـــرب التي انتهت بتدمـــير قرطاجنـــة وذوبان القرطاجنيين في غيرهم •

لزم مصينيسا في هذه الحرب البونيقية الاخيرة الحياد • فلم يعن الرومان • وهو الذي كان يعينهم في حروبهم خلف البحار • ذلك أنـــه كان يأمل أن يكون هـــو المالك لقرطاجنة تتميما لبرنامجه في الاستقلال بشمال افريقية • فان لم يحصل ذلك عاجلا فجوار قرطاجنة السلمية الضعيفة خير له ولجنسه من جوار الرومان الحربيين الاقوياء •

في سنة (149) أحس مصينيسا بدنو أجله • فأرسل الى سبيون الاميلي — الذي سيكون فاتح قرطاجنة — ليوصيه على أولاده • فتوفي قبل وصوله •

كان مصينيسا ملكا عظيما ذا سياسة ودهاء وادارة ونظام وعناية بالفلاحة والتجارة ، صبورا على الشدائد ثابت العزيمة ، خاض غمرات الاهوال ولجج الخطوب بقوة جنان ورباطة جأش ، حتى تغلب على أعدائه وأورث بنيه ملكا ثابتا ونفوذا عريضا • كان لا يفرط في حظه من الملاذ ان ابتسم له الدهر ، ولكن مع يقظة وحذر ، فلا يغفل عن أحوال مملكته خوفا من تدبير ثورة • وكان له أسطول وجنود منظمة وسكة مطبوعة باسمه • وتلك آية الاستقلال • اذ لـــو كان تحت الرومان لكانت السكة باسمهم •

تعلم الفينيقية أيام كان بقرطاجنة في صباه • فكان ولوعا بها • واتخذها لغـــته الرســـمية ونشرها في مملكتـــه • ومع ذلك لم يكن

أيام ملكه ميالا الى الفينيقيين ولا متساهلا معهم في استقلاله • بل كان يراهم شامة سوداء في أديم مملكته • فلذلك حاربهم وطمع فيما تحت تصرفهم •

وهكذا فليكن حب الجنس • فلا يستبدل الحر بجنسه جنسا تعلم لغته وآدابه • وانما عليه أن ينشر ما راق له من آداب تلك اللغة بين قومه مع المحافظة على جنسيته •

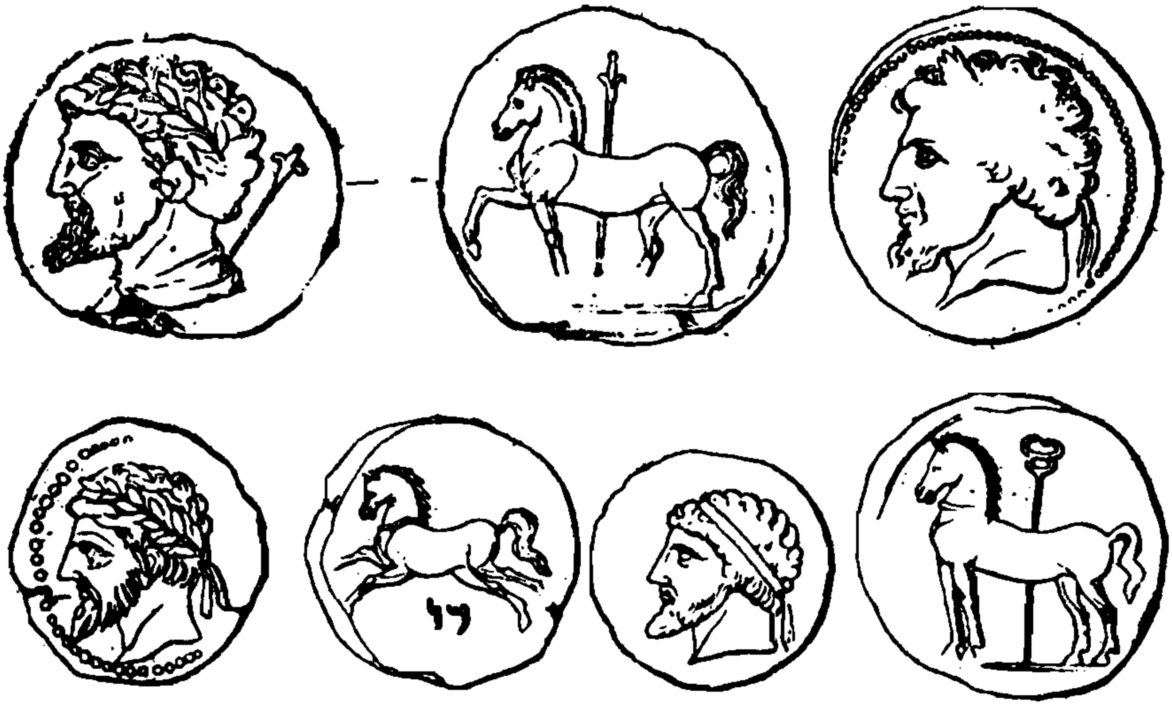
كان هذا الملك حلو الفكاهة رقيق القلب مع الصبيان مر الجد شديدا على من يمس استقلاله ، متقشفا في نفسه متأنفا في مظاهر ملكه ، فقد اتخذ بدار المملكة الخدم والحشم والخيل ، ليبهر العامة حتى لا تطمع في خلع طاعته •

وكان قوي البنية : ولد لـه وهو في سن (86) وتولى رئاسة الجند والحرب وهو في سن (88) ومات بعد ماجاوز المائة • وقيل بلغ من العمر (89) • وعلى رواية انـه حارب صيفاقس سنة (212) وعمره آنذاك سبع عشرة سنة فتكون ولادته سنة (228) ويكون عمره (79) فقط •

واختلف في سنة ولايته أيضا : فقيل سنة (201) وقيل سنة (207) • والظاهر ان صاحب الرواية الثانية اعتمد بما كان من ولايته قبل سقوط صيفاقس • ولكن من المتفق عليه بين صاحبي الروايتين أن مصينيسا لم يرجع من الاندلس إلا سنة (206) • وهي السنة التي جلس فيها على عرش قرطة حتى شرده صيفاقس •

والخلاصة أن جمهور المؤرخين اتفقوا على مدحه ووصفه بالعظمة واستحقاقه للملك • قال بيروني عن فرنال : « ان مصينيسا لم يعن الرومان إلا بقصد اسقاط قرطاجنة عدوته القريبة • ولو قدر له أن يعيش أكثر مما عاش خمسين سنة لحارب الرومان أيضا مثل ما فعل يوغورطة » •

وبالخروب قبر أحد ملوك نوميديا • ويظنه مؤرخو الافرنج لهذا العهد أنه قبر مصينيسا • حدثني بذلك مرسي أحد المؤرخين وأساتذة الكلية بمدينة الجزائر •



(ش — 7)
نقود الملك مصينيسا وعليها رسمه

10 — مصيبسا MICIPSA (149 — 119)

مصيبسا بن مصينيسا جلس على عرش المملكة بعد أبيه • وكان اعطاه خاتمه ترشيحا منه لخلافته • وأوصاه وبقية ابنائه بمسالمة الرومان لما يعلمه من قوتهم •

ولما وصل سبيون الى قرطة ووجد مصينيسا قد توفي انتخب ثلاثة من ابنائه • فأجلس على كرسي المملكة مصيبسا وعين غولوسة قائدا عاما للجيش وعين منستابعل [1] وزيرا للقضاء • ولم يفعل سبيون

(1) سماه اغســـال والكعاك مصتنا بعل .

بذلك سوى ما يتفق ورغبة مصينيسا • حيث أنه هو الذي رشح مصيبسا للملك وكـان يعطي رئاسة الجنـد لولده غولوسة منذ كان حيـا •

ولما سقطت قرطاجنة في يد الرومان بقي مصيبسا على عرشه لم يضره ذلك السقوط ولم يزعجه جوار الرومان لحدوثه • ثم مات أخواه فاستقل بالملك سـنة (145) • واعتاض عنهما بابنيه آذر بعل وهيمصال • وكان لاخيه منستابعل ابن تلوح عليـه آيات الفطانة والشجاعة يدعى يورغوطة • فأضـافه الى ولديـه ونزله منزلتهما • ووجهه مرة سفيرا عنه الى رومة •

كان مصيبسا مسالما للرومان جريا على سياسة والده ووصيته • وكان يعين رومة في حروبها • ففي سنة (133) كانت مشتغلة بحرب ضروس • فأعانها بجيش جعله تحت قيادة يوغورطة • يقول بعض المؤرخين : ولعله كان يريد من ارسال يوغورطة الى هذه الحرب هلاكه والاستراحة منه • لانه كان يخشى منه مناهضة ابنائه •

كانت مملكـة مصيبسا تشـمل ما بـين ملوشات [1] غربـا والسرت [2] شرقا • فهي عبارة عن وطن الجزائر اليوم وبعض تراب مراكش غربا • ان قلنا — كما هو الصحيح — ان ملوشات هو ملوية • وتمتد شرقا الى تراب طرابلس لا ينقص منها إلا الولاية الرومانية الضيقة بعمالة تونس •

وقد سار هذا الملك بهذه الدولة الواسعة سيرة محمودة • ودبرها

---

(1) هو ملويـة وقيـل المقطـع .

(2) السرت اسم لخليجين احدهما خليـج قابس وثانيهما خليـج طرابلس . والثاني هو المراد حسبما تفيده عبارات المؤرخين في غير موضع .

تدبيرا رشيدا • فعاش البربر تحت عنايته بسعادتهم عيشا رغدا • لم يرم بهم في الحروب تلذذا بسعة النفوذ • ولا كان يعتني بشخصه ويهمل شأن أمته • فيعم الفقر ويقل الامن • ولا كان ظلوما جائراً • فيضطر الناس الى الثورة • بل كان سياسيا حكيما وحاكما عادلا •

كان محافظا على عاصمته قرطة وعاملا لترقيتها وتحصينها • فجلب اليها أهل العلم والفن من الاجانب • وأصبحت على عهده مدينة علم وجمال ورفاهية • قال بارس في كتابه قرطة : « ويذكر المؤرخ ابيان ان مصيبسا حصنها تحصينا لا يمكن معه لاحد أن يفتحها عنوة • وجلب لها طائفة من اليونان • وزاد في تحصينها وخصبها حتى صارت يمكنها أن تجند عشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل • وبعد وفاته وانتصاب آذر بعل بها حاصرها يوغرطة ولم يتمكن من فتحها إلا بعد أن أضرت المجاعة بأهلها » •

وقد كان مصيبسا نفسه مكبا على العلم • فاشتغل بالعلوم اليونانية ، والرومانية حتى برز فيها ، وأصبح عالما مضطلعا بالفلسفة • وما أسعد أمة يحكمها ملك عالم غير متأثر بأمة أساتذته من الاجانب ولا مقدم لها على قومه •

ولما أحس بدنو أجله جمع ابنيه وابن أخيه وأوصاهم بالاتحاد في السلم والتعاون على حفظ المملكة ، حتى لا ينفرط عقد عزهم وتذهب دولتهم ضحية الشقاق •

وفي سنة (119) أدركه حمامه بعدما أدار دولته أحسن ادارة ثلاثين سنة • وترك مملكته الواسعة في هناء واطمئنان ذات عمران مستبحر لم تنقصه الثورات الداخلية ولا عطلته الحروب الخارجية •

11 — هيمصال الاول HIEMSAL I (118)

لما توفي مصيبسا لم يأخذ ابناه وابن اخيه بوصيته • فاختلفوا وتنازعوا أمرهم بينهم • ثم اصطلحوا واقتسموا الاموال وفرقوا وحدة المملكة : أخذ يوغورطة القسم الغربي منها من صلداي الى ملوشات • واقتسم الاخوان الباقي بينهما وهو أوسع نطاقا وأوفر عمرانا •

لم يكن هذا الصلح مرضيا للمتنازعين • وانما هو ظاهري وفي الباطن كل ينوي نقضه متى أمكنه النقض • ابنا مصيبسا يريان الحق لهما في ارث عرش ابيهما ، فهما يعدان ما أخذه ابن عمهما ظلما ، ويتربصان به غرة لقتله أو فرصة لحربه كي يسترجعا حقهما المغصوب ؛ ويوغورطة يرى أنهما جارا عليه في القسمة ، فهو لم يقبلها ظاهرا إلا بنية اكتساب قوة يستعملها — متى سنحت الفرصة — ضـد ابني عمـه •

كان هيمصال أقدر من أخيه • فكان يوغورطة يخشى منه ما لا يخشى من آذر بعل • فاستعمل الحيلة للاستراحة منه : لم يكن إلا أمد قليل حتى دس يوغورطة من قتل هيمصال في مدينة ترمدة من مدن ولاية رومة الحديثة • وذلك سنة (118) فلم تطل مدته حتى تتعرف، سيرته في رعيته ، وأعماله في العمران والحضارة وسياسته مع الرومان •

12 — آذر بعل ADHERBAL (118 — 112)

انتصب آذر بعل ملكا بقرطة بعد وفاة والده واقتسام مملكته • وبعد أن قتل يوغورطة أخاه هجم عليه وأخرجه من عاصمته لاول معركة وقعت بينهما •

ذهب إذ ذاك آذر بعل الى الولاية الرومانية بافريقية مستنجدا بواليها على ابن عمه فلم ينجده • فسار الى رومة • ولما بلغها وجد بها رسلا من قبل يوغورطة • وجههم بأموال ليستميلوا اليه بعض عظماء الرومان • أبدى آذر بعل فصاحـــة نادرة ومنطقا محكما في الاحتجاج لنفسه واظهار جور ابن عمه وخبثه • ولكن لم تجد عليه فصاحته عطف الرومان حيث ان ابن عمه اشتراهم بالاصفر الرنان • ولما ألح على رومة في طلب النظر في قضيته عين شيوخها عشرة من الخبراء تحت رئاسة لسيوس أبميوس ليفصلوا القضية • وكان هذا الرئيس يميل الى يوغورطة • نظر الخبراء القضية بمرآة الاغراض فأنتج بحثهم خلاف ما يريد آذر بعل • وذلك أنهم أعطوه نوميديا الاصلية ، وأعطوا يوغورطة نوميديا الغربية وذلك سنة (114) •

صار يوغورطة بهذا الفصل أقوى منه قبله • وصار آذر بعل أضعف من حاله سابقا • وهذا لم يخف على الخبراء ولكنهم تعمدوا اعزاز جانب يوغورطة الذي سد مجرى الحق بصرة من الدنانير •

لم يكن يوغورطة ليقنع بشيء دون الاستقلال بمملكة عمه • ولم يكن هناك ما يقف في سبيله : البربر يحبونه ، وان عمه ضعيف عن مقاومته ، ورومة لا يصعب عليه استمالة رجالها • ففكر في ايجاد سبيل لبلوغ أمنيته وتحقيق برنامجه • ولم يشأ أن يقدم على حرب ابن عمه لانه لا يجهل ان رومة لا تسمح له الاستقلال دون ابن عمه حيث أن سياستها تقضي عليها بالاكثار من الملوك البربريين واذكـــاء نار المنافسة بينهم •

رأى يوغورطة أن أحسن ما يبلغ به أمنيته التوقي من مشاغبة رومة عليـــه بملوك البربر • وكـــان يجاوره بوكوس الاول ملك موريطانيا • فسبقها اليه واستماله اليه قبل الدخول في حرب آذر بعل

وتقرب منه بالمصاهرة فتزوج ابنته • وبهذه الوسيلة أمن يوغورطة ناحية بوكوس •

إذ ذاك أخذ يغير على حدود مملكة آذر بعل كي يستفزه لحربه • ويتخذ ذلك سببا لحربه يقطع به معاكسة رومة له • ولكن آذر بعل تحمل تلك الغارات واصطبر لها لعجزه عن مقاومة يوغورطة وخيبته سابقا في الاستنجاد برومة • رأى يوغورطة استكانة ابن عمه فعزم على تنفيذ برنامجه وهجم عليه • واجتاز الحدود بجنود كثيرة • هنالك رأى آذر بعل لزوم الحرب • فتهيأ لها بما لديه من الجنود وخرج لملاقاة يوغورطة •

تقابل الجيشان ولم يتبارزا • وكان آذر بعل ينوي محاربة ابن عمه من الغد • ولكن يوغورطة كان أشد حزما وأمضى عزما • فأمر جنوده بالهجوم ليلا • فدارت الحرب بين الفريقين • وبعد قتال شديد انهزم آذر بعل وفر الى قرطة • فلحقه يوغورطة وحاصره بها • وكانت المدينة في غاية الحصانة بموقعها وعناية مصيبسا بتحصينها • وكان بها صناع وتجار ايطاليون • فتحزبوا لآذر بعل •

بلغ خبر هذه الحرب الى رومة فلم يرق لها صنيع يوغورطة • وأرسلت اليه في رفع الحصار والكف عن محاربة ابن عمه مع ثلاثة من النواب • فقابل يوغورطة هؤلاء النواب مظهرا لهم احترامه لرومة • ولكنه لم يمتثل نهيها واستمر محاصرا لقرطة • فأرسلت اليه رومة رسلا آخرين • وتعين الاجتماع بعوتيقة • فذهب اليها • وأوعز لجنوده بتشديد الحصار • ولما اجتمع برسل رومة اكتفى باظهار احترامها أيضا •

دام حصار قرطة عامين وبلغت المجاعة بأهلها مبلغها وعلموا خيبة رسل رومة في المفاوضة مع يوغورطة • فرأى آذر بعل ان يفتح الكلام

مع ابن عمه • ففاوضه في رفع الحصار وأذعن لحكمه واستأمنه على نفسه • فآمنه ودخل المدينة • ولكنه خان العهد • فقتل ابن عمه ومن فيها من شيعته حتى الايطاليين •

وهكذا انتهت حياة هذا الملك الذي يظهر من التجائه الى رومة في كل ما يعرض له من الصعوبات انه وقدته الحضارة • فأصبح لا يريد الا استغلال جهود آبائه • وان وطنا كالوطن البربري جعلته دولة قوية كرومة نصب عينها لاستعماره لا يصلح أن يكون على رأس حكومته إلا مثل يوغورطة شجاعة حربية ودهاء سياسيا •

23 — يوغورطة JUGURTHA (118 — 104)

يوغورطة بن منستابعل ، يقول مرسيي : انه لغية • كان فارسا من أشهر فرسان البربر وقائدا من أعظم قوادهم • وقد عرف له عمه مصيبسا مقدرته وغناءه فقربه اليه وأشركه مع ولديه في شؤون الدولة • ثم عرف جرأته وخشيه على ابنيه فوجهه ذات مرة قائد جيش بعثه الى رومة اعانة لها في بعض حروبها • ورجا أن يهلك في تلك الحرب ويستريح منه •

خاطر يوغورطة بنفسه في هذه الحرب وأظهر شجاعة نادرة • وعرف كيف ينجو بنفسه من الهلاك مع المحافظة على عظمته • فأعجب به الناس كلهم في هذه الحرب • وأحبه البربر حبا شديدا • ورجع الى وطنه يحمل لقب بطل عظيم • فزاده ذلك تأثيرا على البربر • واكتسب شرفه وصيته من حيث أراد عمه حتفه •

كان هذا البطل العظيم متقمصا روح مصينيسا وعاملا على تحقيق برنامج كان ذلك السلف يعمل له • وهو الاستقلال بالوطن البربري

في حدود مملكة أسلافه وطرد الرومان من افريقية نظير ما كان ينويه مصينيسا من طرد قرطاجنة • فلما توفي عمه لم يسر في ابنيه أهلية لتحقيق هذا البرنامج • لانهما لم يعرفا رومة كما عرفها • فهما يخشيان سطوتها • ويريدان التمتع بلذة الملك تحت ظلها •

ابتدأ يوغورطة في تحقيق برنامجه الاستقلالي بمنازعة ابني عمه على الملك حتى اقتسموه بينهم • ثم اغتال هيمصال • وتخلص لحرب آذر بعل حتى قتله سنة (112) واستقل إذ ذاك بملك سلفه • وأصبح لا يد فوق يده •

لم تكن مقاصد يوغورطة في الاستقلال بوطنه وطرد النفوذ الروماني منه واضحة للرومان • فانه كان يسترها أحيانا بالخداع السياسي وأخرى باشتراء ذمم رجالهم • فلما دخل قرطة واستأصل منها شيعة ابن عمه من البربر والايطاليين الذين هم في الواقع شيعة رومة اتضحت للرومان مقاصده وأدركوا أنه كان يسوسهم بالختل والمراوغة • فعزموا على المبادرة لحربه وعدم امهاله في هدم آماله •

لما عزمت رومة على حربه أرسل إليها ولده واثنين من خواصه لعرض طاعته • فلم يأذن شيوخها بمقابلة رسله ولا قبلوا طاعته لعلمهم أن ذلك خداع سياسي فقط لا حقيقة له •

كان بوكوس مصافيا لصهره • فلما بلغه ما آل اليه أمره مع رومة خشي أن يكون له على ولائه له حظ من غضبها • فمال عنه وأظهر طاعته للرومان •

أرسلت رومة جنودها تحت قيادة بستيا • فجاء هذا القائد على طريق صقلية • ودخل في الحرب مع يوغورطة • واشتبكت القوتان

بجهات باجة • وانتصر بستيا في تلك المعارك انتصارات باهرة • فازداد خوف بوكوس من غضب رومة • وأرسل اليها يؤكد طاعته لها •

كان يوغورطة يعتقد — عن بصيرة — أن رجال رومة خربوا الذمم لا يمتنعون من الرشوة • فكان إذا أعجزته القوة التجأ الى المال • فاستمال بهذا الوجه بستيا لما انتصر عليه • فتساهل معه هذا القائد في الصلح • واتفق معه على أن يأخذ منه أفيالا وخيلا وأنعاما وأموالا • وخرج يوغورطة من ورطة هذه الحرب بسلاح الرشوة • وذلك سنة (111) •

علمت رومة بالصلح فلم ترضه • وأرسلت الى يوغورطة بالحضور ليشرح لدى مجلس شيوخها حقيقة هذا الصلح • ووجهت لسيوس كيوس اليه ليستصحبه معه • فذهب يوغورطة الى رومة ولم يمتنع عن الحضور أمام مجلس شيوخها بعد ما كان محاربا لجنودها • ولما بلغها وجد حوله دسائس شتى • ولكنه أبرع رجل يحسن العوم في مثل هذه اللجج • فتوصل الى استمالة نائب من نواب الشعب • ولما مثل بين يدي مجلس الشيوخ لم يكتف هذا النائب بالمحاماة عنه • بل أمره باحتقار التهم الموجهة اليه وعدم الاجابة عنها • وذلك لئلا يطالب بالبينة على صحة ما يقول • وهو ما لا يجده بحال •

لم يجد شيوخ رومة من استحضار يوغورطة ادنى فائدة • ولم يضره هو حضوره بل استفاد منه • وذلك أنه كان لعمه غولوسة ابن يدعى مصيفا ذهب الى رومة مطالبا بحقه في المملكة ، ومشاغبا عليه • فدس له من قتله بواسطة بوملكار • ونجا من تبعته أيضا • وسهل لبوملكار طريق الفرار •

بعد ذلك أمر يوغورطة بالخروج من ايطاليا • فقال عند خروجه من رومة كلمته الخالدة : « ان رومة مدينة مباعة لمن يريد

اشتراءها »[1] وزاد بنجاته من بطش رومة بعد ما مثل بين يديها جرأة وأصبح لا حد لاقدامه •

بقيت صدور الرومان وغـرة علـى يوغورطة • فأرسلوا الى ألوس — وكان قائدا بافريقية — يأمرونه بالهجوم على يوغورطة ، وأنهم لم يرتضوا الاتفاق الواقع بينه وبين بستيا • امتثل هذا القائد وهجم على يوغورطة • ولكن ذلك الهجوم أعقبه انهزام • فان يوغورطة هجم بجنوده على ألوس وجيوشه على حين غفلة وقد كان ألوس طامعا في فتح ستول (قالمة) وأخذ ما فيها من أموال يوغورطة ومؤنه وذخائره • خاب أمل ألوس وخضع ليوغورطة خضوعا شائنا لشرف رومة : إذ أجله عشرة أيام للخروج من نوميديا ، وأبقى جنده تحت الذمة • وذلك سنة (109) • واعتذر لخيبة ذلك القائد بأنـه كان ضعيف الرأي والوقت وقت شتاء • وارى ان ضعفه انما هو بالقياس الى يوغورطة ، والا فكيف تعتمده دولته لقيادة حرب ضد رجل لا تخفى عليها مهارته الحربية ؟

ساء رومة انكسار قائدها وبقاء جنودها تحت ذمة من كانت ترجو أن يكون تحت ذمتها • فعين شيوخ دولتها مكان ألوس أخاه ألبينوس • فلم يجد هذا القائد أيضا نفعا لعجزه أو جهله أو تقصيره •

بعد هذه الخيبات التي كل واحدة منها تربو على ما قبلها جد جد الدولة • فاختارت من بين رجالها رجلا مخلصا لدولته نزيها عن الرشوة عارفا بمهمته الحربية من أهل الطبقة العليا • هذا الرجل هو ميتلوس • وكان يوغورطة يعرفه ويعرف منه تلك الصفات • وكانت

---

(1) المباعة من اباع الشيء عرضه للبيع . وعلى هذا المعنى حمل قول الشاعر :

ورضيت آلاء الكميت فمن يبع فرسا فليس جوادنا بمباع

الدولة تريد باختيارها لهذا الرجل أن تغسل عنها عار تلك الانهزامات وتحافظ على شرف عظمتها وتؤيد سمعتها الرهيبة •

نزل ميتلوس عوتيقة • فوجد الجنود قد ساءت حالتهم الادبية وتمردوا عن الطاعة • فأخذ في تنظيمهم • وأراد يوغورطة — على معرفته به — أن يعجم عوده • فأرسل اليه يلاطفه ويداهنه • فلم تكن بضاعته هذه المرة رائجة لاخلاص ويقظة هذا الروماني • ولم يكن هو يعتقد رواجها فاستعد للحرب •

جمع يوغورطة بكل نشـــاط جنوده وقسمهم الى فرسان تحت قيادته ومشـــاة معهم الافيال تحت قيـــادة بوملكار • وكان الجيش الروماني على قسمين أيضـــا : أحدهما برئاسة ميتلوس ، والآخر برئاسة مريوس •

في سنة (108) تقابل الجيشان بشمال تبسة ، بعدما استولى ميتلوس على باجة ، واشتد القتال من الجانبين • وأخيرا دارت الدائرة على يوغورطة • وشعر بعجزه عن مقاومة الرومان بالقوة • فجبر عجزه ذلك بقوة دهائه • وأخذ يتقهقر بانتظام نحو الصحراء والقفر • وعلم البربر ضربا جديدا في القتال لئلا يجر عليه تقهقره انهزاما عاجلا : أوصاهم بعدم الكف عن اقلاق الرومان بالغارات من دون انقطاع ، وان لا يصطفوا لهم بل يكونون جماعات متفرقة تكر إذا رأت في العدو غرة وتفر ان رأت الفر خيرا • ومن هذا الحين تعلم البربر حرب الكر والفر • وبهذا الاسلوب الحربي الجديد لم يتمكن لميتلوس أن يتمادى في انتصاراته على يوغورطة •

جبر يوغورطة انهزامه باختراع حرب الكر والفر • وصار يتأخر نحو الصحراء ، كي يبعد عدوه في القفر ثم ينقلب عليه فيشتت شمله • ولكن ميتلوس شعر بذلك • فلم يتتبعه • وبقي جيشه بشمال تبسة

مشتغلا بتخريب عمران البربر وافساد فلاحتهم وحصار المدن التي لم تخضع لقوتهم • وقد ثبت أهل زامة في مقاومة الرومان حتى أدركهم يوغورطة واجلاهم عنهم وفك حصارهم • ولم تثبت المدن التي احتلها الرومان في هذه الحرب تحت نفوذهم بل خرجت من قبضتهم •

ولما رأى ميتلوس ان قوته لا تجديه أمام دهاء يوغورطة ، وان انتصاره عليه لم يجن منه أي فائدة عدل عن الهجوم واختار أن يقابل دهاء يوغورطة بالخداع وان يأخذه بسلاح الخيانة • وكان الشتاء قد حل وحال بينه وبين أعماله التخريبية • فعاد الى الولاية الرومانية • وتفرغ لتدبير مكيدة ليوغورطة • فأرسل الى قائده بوملكار يطمعه في دولة ملكه ان هـو أعانه على خديعته • فحدثت بوملكار نفسه بخلافة يوغورطة في عظمته • وانخدع ليتلوس • وطابت نفسه بخيانة ملكه ووطنه • فأخذ يشير على يوغورطة بترك الحرب وطلب المفاوضة في الصلح حتى أثر عليه وتفاوض مـع الرومان • وتمت المفاوضة بالاتفاق على مواد الصلح • وأخذوا في تنفيذها • وكان منها تسليم عدد عظيم من الافيال والاموال والاسلحة ، ورد الفارين من الجيش الروماني • ونفذت هذه المواد • ثم صار ميتلوس يلح على يوغورطة في زيارة مركزه • وإذ ذاك شعر بالمكيدة واتضحت له خيانة بوملكار • فمثل به وقتله • وهكذا فليكن سلم الخيانة : لا يبعد صاحبه فيه المرتقى حتى يسقط على أم رأسه من غير أن يفوز بأمنيته •

ولما خاب ميتلوس في هذه السياسة ولم يقع بشركه قنصه عاد الى الحرب • واستأنف أعمال التخريب والتدمير • فذهب الى باجة وافتتحها من جديد ومثل بأهلها •

وفي سنة (107) هجم ميتلوس على نوميديا وفر أمامه يوغورطة الى قرطة • فلحقه وافتتحها • ففر يوغورطة الى الجنوب • ثم عاد

بأهله وأمواله الى تالة • فتحصن بها • فذهب اليه ميتلوس وأخرجه منها • فلحق بالجيتوليين وتحصن بهم • وأخذ في تنظيمهم • وأرسل الى صهره بوكوس — وكان ميالا للرومان — يستميله اليه • ففتل له في الذروة والغارب • وخوفه استيلاء الرومان على مملكته ان هم جاوروه بنوميديا • فجلبه اليه • وجعلا موعدا للملاقاة • فالتقيا واتفقا على حرب الرومان • فقصدا بجنودهما قرطة • وبلغ الخبر ميتلوس • فخرج منها • ونزل مركزا يليق للدفاع عنها وعن سائر نوميديا •

وفي هذا الحين بلغ ميتلوس ان مريوس رفعته الامة الى رتبة قنصل بافريقية • وأعطي رجالا وأموالا ليتمم حرب يوغورطة • فترك الجنود على حالها • وذهب الى رومة • ولم نزل أثناء سنة (107) •

جاء مريوس بطائفة من العساكر • ونزل عوتيقة • وانضافت جنوده الى الجنود التي بافريقية من قبل • فبلغ جيشه نحو خمسين ألفا • وباشر الحرب حينا •

لم يخرج ميتلوس من افريقية حتى أفسد بوكوس على يوغورطة فصار غير واثق بنصرته • فلما برز له مريوس لم يصطف له • بل استمر على حرب الكر والفر : يهجم بفرسان جيتوليا على الرومان حتى يصل الى مراكزهم ، ثم يعود الى أماكن بعيدة قبل أن يستعدوا لمقاومته • وفي هذا الوقت كان خط الصحراء جميعه تحت طاعته • ووضع أمواله وذخائره بقفصة • فعلم بها مريوس • فذهب اليها ودخلها وأخذ تلك الاموال والذخائر وأحرق المدينة •

كان غرض مريوس أن يلجيء يوغورطة الى الناحية الغربية لتكون قرطة تحت يده ويتخذها مركزا عاما للجيش • فلما احتل قفصة نال غرضه • وانتقل يوغورطة الى الناحية الغربية • فسار مريوس اثره

وحاربه بالزاب والحضنة وجبالهما شمالا وغربا • حتى أنه استولى على مدينة حصينة فوق جبل عال • وهي من قلاع البربر التي يحسنون وضعها على الكهوف الصعبة المرتقى • وكان بهذه المدينة بقية أموال يوغورطة • كل هذا وبوكوس على الحياد •

لما انتقلت الحرب الى الناحية الغربية أعاد يوغورطة خطـابه لبوكوس في التعاون ضد الرومان • ووعده على نصرته ثلث نوميديا • فلباه والتقيا • واجتمع باتحادهما عدد عديد مـن الجنود بارزا بها جنود مريوس • واشـتد القتال يوما كامـلا • وأحاط البربر ليلا بالرومان • وأوقدوا النيران يغنون عليها ويرقصون واثقين بانتصارهم على عدوهم • وفي الغـد أخذهم تعب السهر • فهجم عليهم الرومان في هذه الحال • وفتكوا بهم فتكا ذريعا • ومن نجا من الموت ركب متن الفـرار •

ذهب مريوس الى قرطة بعد هذا الانتصار • فاعترضه البربر في الطريق • وهم من جنود يوغورطة وبوكوس • وانقسموا أربعـة أقسام • ودامت المعركة بشدة ثلاثة أيـام • وكانت غرب سطيف • وجاء صيلة لددا لمريوس • وأسفرت هذه الواقعة عن انتصار مريوس • فأتم سيره حتى دخل قرطة • كل هذا ولم تتم سنة (107) •

لم ير بوكوس انتصارا يشجعه وهو من رجال الاستغلال من أبطال الاستقلال • فأرسل رسله الى مريوس في طلب الصلح • ولما بلغوا قرطة وجههم مريوس الى رومة ليقدموا مطلب أميرهم الى مجلس الشيوخ • ووجه صيلة رسولا الى بوكوس • وبعد مسير صيلة خمسة أيام التقى في الطريق بفولوكس بن بوكوس الذي وجهه والده لملاقاة رسول مريوس •

لما وصل صيلة الى بوكوس وجد عنده رسولا من قبل يوغورطة • فأوجس في نفسه خيفة • ولكنـه فاز بدهائه وجبن بوكوس على

رسول يوغورطة • واتفق هذا الرسول الروماني وذلك الملك البربري على خديعة يوغورطة • وتجدد بذلك دور ميتلوس وبوملكار • واذا كان يوغورطة قد نجا إذ ذاك فقد قدر عليه أن لا ينجو هذه المرة • ولا ينفع حذر من قدر •

ابتدأ دور الخداع بمراسلة يوغورطة بطلب الاجتماع للمفاوضة في الصلح • فلم ينس دور ميتلوس وبوملكار • وأراد أن يتوثق لنفسه • فأرسل الى بوكوس يجيبه الى المفاوضة بشرط تسليم صيلة له بصفة ضمان • فتردد بوكوس أياما بين أن يسلم صيلة ليوغورطة أو يوغورطة لصيلة • وأخيرا اختار — وبئسما اختار — أن يسلم ابن جنسه وبعل ابنته للرومان ترضية لهم • فاقتطع ليوغورطة عهودا على الامان • فانخدع له • وما كان لينخدع لمن هو أدهى منه لولا المصاهرة والجنسية •

اتفق الاثنان على الاجتماع بصيلة بشرط أن يكون الجميع مجردين من السلاح • ودس صيلة عساكر مسلحة • ولما اجتمعوا انهالت تلك العساكر على يوغورطة وأوثقوه ! ثم ذهبوا به الى مريوس • وذلك سنة (106) •

وفي أول سنة (104) ذهب مريوس الى رومة في أبهة النصر وأمامه يوغورطة بلباسه الملوكي موثقا بالاغلال • فأودع السجن الى أن مات به من شدة الجوع وكلب البرد ! •

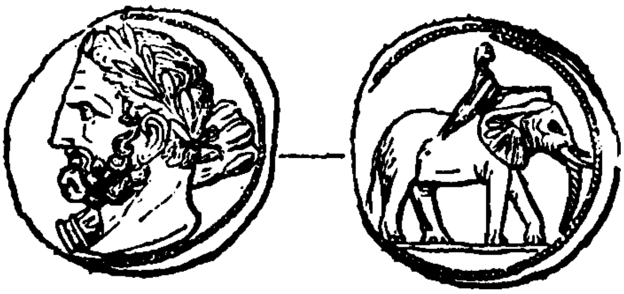
وهكذا ختمت حياة بطل الحرب وداهية السياسة ورجل الاستقلال • شغل رومة مدة نحو سبع سنوات بحروب تعبت فيها تعبا شديدا • ولم تر منذ نزلت بافريقية حروبا تضاهي حروب يوغورطة التي اشتهرت في عالم التاريخ القديم حتى خصت بالتأليف • ولم تحصل من خوضها لغمرات هذه الحروب على طائل سوى أخذ شخص يوغورطة بالخديعة والخيانة •

وكما شغل هو رومة شغلته هي أيضا عن ترقية وطنه • فان ذلك الذكاء النادر لو وجد في عصره هناء مصيبسا لأربى عليه في رفع مستوى دولته من حيث العمران والحضارة ولحصن استقلالها بأكثر مما حصن به سلفه قرطة •

ليس في انتصار رومة على يوغورطة أدنى شرف لها أو ضعة له • بل ما لها فيه إلا العار والشنار ، وما له منه إلا المجد والفخار •

وقد جلب بوكوس بمصافاته للرومان تكدير حياة البربر بالقضاء على زعيم استقلالهم وتشجيع الرومان على امتلاك وطنهم • ومن نظر خاتمة يوغورطة مع صهره وجده أحق الناس بقول الشاعر العربي :

واخوان حسبتهمو دروعا فكانوها ، ولكن للاعادي
وخلتهمو سهاما صائبات فكانوها ، ولكن في فؤادي



(ش ــ 8)
نقود الملك يوغورطة . وعليها صورة بطل



(ش ــ 9)
نقود الملك يوغورطة . وعليها رسمه

غودا هو ابن منستابعل • وأخو يورغوطة • تولى الملك بعد اعتقال أخيه • وذلك أن رومة لم تجسر — بعد القاء القبض عـلى يوغورطة — على ابتلاع مملكته خيفة العجز عن الهضم وسوء المغبة • فأرجأت تملكها الى حين • وأخذت تمهد لذلك بتفرقة البربر على الأمراء ، واضعافهم بالفتن الداخلية التي تكثر بكثرة الأمراء •

وقد نجحت في هذه السياسة • فأصبح أمراء البربر مشاركين لرومة فيما يقع بها من الفتن الداخلية ، ومنقسمين على زعمائها : كل يؤيد زعيما برجاله وأمواله • فما من هول يقع برومة إلا وكان صداه بالوطن البربري حتى أن الزعيم الروماني الذي يكتب له الفوز هو الذي يكون له النجاح بافريقية الشمالية •

اقتضت تلك السياسة أن لا تتملك رومة مملكة يوغورطة ولا تدعها تحت أمير واحد • فقسمتها بين غودا وبوكوس صهره • وكانت نوميديا الاصلية نصيب غودا • وهي تنتهي غربا بصلداي • ولكنه لم يتمتع بها كثيرا إذ توفي بعد ذلك بقليل واقتسم ابناؤه مملكته •

جلس غودا على عرش نوميديا وهو شيخ كبير السن ولم تطل مدته ولا كان له في عنفوان شبابه عمل يشتهر به • ناهيك أنه لم يكن له ذكر في حروب أخيه • وهذا ما تركنا نجهل غودا ولا نعلم شيئا عن أعماله • بل ان عصره كان فاتحة عصـر مظلم • قال مرسيي : « وهذا العصر كله مظلم أمام المؤرخ لفقدان الوثائق التاريخية عنه » وغاية ما علم عن غودا أنه كان رجلا ضعيف الرأي مسالما للرومان خادما لمطامعهم • ومثل هذا هو الذي تقدمه رومـة للملك اضعافا للاحرار واخفاتا لصوت الوطنية •

15 — بوكوس الاول (104 — 80)

بوكوس الاول كان ملكا على موريطانيا الغربيــة (مراكش) حوالي سنة (116) ومسالما للرومان • ولما كان يوغورطة يعلم منه ذلك ويعلم من نفسه عداوته لهم أراد أن يجلبه اليه قبل الشروع في تنفيذ برنامج عداوته • وقد نجح في ذلك فحارب بــه الرومان بعد ما حذره اياهم ونفخ فيه نسما من روحه • ولكن « ليس التكحل في العينين كالكحل » فعاد أخيرا الى نصرة الرومان وأعانهم على القاء القبض على يوغورطة بالخديعة والخيانة • ولولاه ما أمكن الرومان أن ينالوا شيئا من يوغورطة • وقد ترك بفعلته تلك في تاريخه نقطة سوداء بل بحيرة حمئة • ويصعب علي الاعتقاد بانه شارك الرومان في بشاعة هذه الخيانة • ويظهر لي أنه كان قليل التدبير فانطلت عليــه حيل صيلة واغتر به فغر غيره • وحينما شاهد الخيانة اغضى عنها ضعفا وجبنا •

وعلى كل حال فان رومة منحته — جزاء ذلك — جزءا كبيرا من مملكة يوغورطة ، وهو ما بين صلداي وملوشات ، اضافة الى مملكته القديمة • وأطلق على هذه الولاية الجديدة اسم « نوميديا الغربية » لانها كانت تحت ملك نوميديا • وعرفت نوميديا القديمة باسم « نوميديا الاصلية » •

وبهذه الولاية صح ان نعــد بوكوس [1] بــين ملوك الوطن الجزائري • وباضافتها الى مملكته القديمة أصبح ذا مملكة واسعة تشمل ما بين صلداي شرقا • والمحيط الاطلنتيقي غربا • ورغما مــن

(1) ذكر صاحب الرحلة الناصرية انه لما نــزل بمسوار الريان تلقته قبائل عدد منها بوكيس (1 : 27) فيستفاد منه ان بوكيس من الاعلام البربرية التي لم تزل حتى العهد الاخير

هذا الانساع كله لم تكن له عزة نفس ونخوة ملك ، فيترفع عن خدمة الرومان الذين لا يزيده جبنه معهم وخدمته لهم إلا طمعا في الوطن البربري وخيراته •

بعد أن فعل فعلته الاولى عززها بثانية • وذلك أنه حدث برومة شقاق بين مريوس وصيلة ففر الاول الى يرباص الذي أعانه على منافسه • فأرسل صيلة قائده بمبيوس [1] الى افريقية بجنود كثيرة • وأعانه بوكوس بفيلق عظيم من فرسان موريطانيا تحت رئاسة غودا (قيل هو ابن بوغيد بن بوكوس وقيل حفيد بوغيد) وكان يرباص قد فر من بمبيوس • فاعترضه غودا وشتت جموعه • وأخيرا قتله •

وهكذا لم نر لبوكوس إلا اعانة للرومان على أبطال البربر الذين يأنفون من استعباد الاجنبي لهم ولقومهم •

وبعد أن ملأ صحائف حياته بمثل هذه الاعمال توفي في حدود سنة (80) وترك ولدين اقتسما مملكته •

16 — يرباص (102 — 81)

اختلف في اسم هذا الملك : فمنهم من سماه يرباص ، ومنهم من سماه هرتاص • وهو من أسرة يوغورطة • قال مرسيي : « والظاهر انه ابن غودا أخي يوغورطة » •

انتصب بعد وفاة غودا على نوميديا الوسطى • وكان — كبقية

---

(1) في ابن خلدون فمقيوس . وهو تصحيف مطبعي صوابه فمفيوس على قاعدة تعريب حرف p بحرف (ف) . والمعمول بـه اليوم تعريبه باء .

أمراء البربر — تحت سيادة رومة : يذهب اليها ، ويرسل أبناءه ليتعلموا بها • وتخلق بالاخلاق الرومانية • وصار يتكلم باللغة اللطينية • ويحافظ على الفنون الرومانية • ويشيد بالمدن البناءات الأنيقة • ويعتني بالفلاحة •

ومع كونه تحت سيادة رومة وآخذا من أخلاق أهلها وحضارتهم كانت غايته تهيئة الامة البربرية للاستقلال التام وطرد النفوذ الروماني من وطنها •

وفي مدته نازع صيلة مريوس على رئاسة رومة • فرأى مريوس أنه عاجز عن مقاومة خصمه ، وأراد أن يستعين بأمراء البربر • فوجه ولده الى هيمصال الثاني من ملوكهم يعرض عليه حمايته واعانته فلم يقبله ، لانه رأى نجاح صيلة برومة • فخشي عاقبة قبوله • إذ ذاك عاد الولد الى والده مريوس ، وأشار عليه بالفرار • ففر الى الولاية الرومانية بافريقية • ولكن واليها طرده • فبقي هائما بحدود نوميديا • ثم تمكن من الفرار الى قرقنة • وأخيرا أجاره يرباص • وقضى عنده شتاء سنة (88) •

كانت حماية يرباص لمريوس بعد اعراض هيمصال عنها سببا في انتشاب حرب بينهما انتصر فيها يرباص وطرد هيمصال من مملكته واستولى عليهـا • وبذلك أصبح مريوس منتصرا بافريقية ومنهزما برومة • وكانت أتباع صيلة تأوي الى عوتيقة • فأرسل ستة فيالق بقيادة بمبيوس لحرب مريوس • وتقابل الجيشان فانهزم مريوس ، وفر يرباص بطائفة من جنوده • وكان بوكوس قد وجه كتيبة من الخيل تحت رئاسة غودا نصرة لبمبيوس • فالتقى غودا بيرباص في الطريق وشتت جنوده • ففر الى عاصمته بولريجيا[1] وهجم بمبيوس

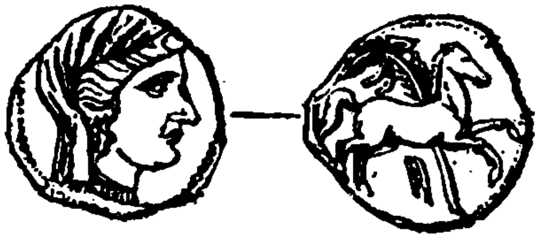
---

(1) هي حمام الدراجي جنوب طبرقة •

على نوميديا فحال دون انجاد أهلهـا لملكهم يرباص • فاضطر الى التسليم لغودا فقتله ! وذلك سنة (81) •

قد تدرك نباهة يرباص وحذقه واخلاصه لامته مـن حمايته لمريوس • ذلك أنه لم يكن يخفى عليه ضعف هـذا الرجل برومة وتشرده بافريقية • فكان تحزبه لـه لضرب من السياسة في صالح قومه : يريد آن يشاغب به على رومة ، وان اتيح له الفوز وجد غرضه معه أكثر مما يجده مع صيلة • فان الضعيف يرى الانتصار له مزية واحسانا ، والقوي يحسبه تملقا وهوانا • وإذ لم ينجح يرباص في سياسته فعندي انـه يكفيه ان مات ميتة شـريفة بانتصاره لحزب ضعيف من حزبي أعداء قومه ووطنه •

وبموته انقضت الفتن الداخلية بـين أمراء البربـر • ومدتها سبع سـنوات •



(ش — 14)
نقود الملك يرباص وعليها رسمه

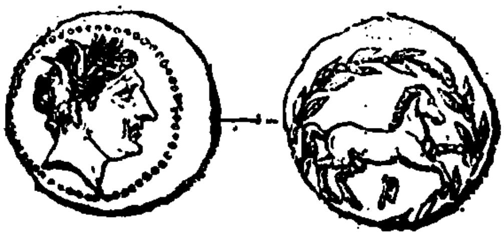
17 — هيمصال الثاني (103 — 50)

هيمصال الثاني هو ابن غودا، وأخو يرباص علي الظاهر • انتصب ملكا بشرقي نوميديا بعد وفاة أبيه • ولعله كان يرى لـه الحق في الاستقلال بمملكة والده دون يرباص ، ويترصد الفرص لضم مملكة أخيه الى ما تحت يده •

فلما تنازع مريوس وصيلة انتصر للثاني لعلمه بقوته ورد طلب الاول وحبس الاول وحبس ولده فلم ينج الا بتدبير احدى جواريه • ولعله كان يرجو من تحزبه لصيلة ان يعينه على أخيه • فلما انتصر يرباص لمريوس رأى ان الوقت قد حان للاستقلال بنوميديا • فاشهر عليه حربا انجلت عن هزيمته • وأصبح صفر الكفين من الملك ، وأشبه في التدبير حنيناً صاحب الخفين •

ولما قتل يرباص وسقط حزب مريوس من رومة وافريقية معـا اعادت رومة لهيمصال ملكه مضافاً اليه مملكة يرباص • ثم حدث بينه وبين ماصنتة (من امراء البربر) خلاف انهياه الى مجلس الشيوخ برومة • وكان له ولد يدعى يوبا فوجهه اليها نائبا عنه • ففاز على خصمه ومتّن الروابط بينه وبين بمبيوس •

وقد تقدم انه بموت يرباص انتهت الحروب بين امراء البربر فبقي هيمصال بمملكته هادئا مطمئنا مستعينا بابنه يوبا منشطا المفلاحـة ناشرا للحضارة الرومانية محافظا على فنونها حتى توفي سنة (50) •



(ش — 15)
نقود الملك هيمصال وعليها رسمه

18 — ماصنتـه

هو أحد ملوك البربر • كان معاصرا ليرباص وهيمصال ، وعاش بعد يرباص • قال مرسيي ناقلا عن المؤرخ بول (Poulle) : « ان مع

هذين الملكين (يرباص وهيمصال) ثالثا يدعى ماصنته • كان على ناحية سطيف • وكانوا كلهم تحت نظر رومة • وكانت غايتهم جميعا تهيئة الامة لحكم نفسها بنفسها • وكان الجيتوليون مستقلين تحت سادات من عظمائهم » •

وعليه فان حكومة هؤلاء الثلاثة لم تتناول جهـة الصحراء • فالجيتوليون الذين كانوا خضعوا ليوغورطة ، وحاربوا معه الرومان لم يخضعوا لهؤلاء الملوك الذين خلفوا يوغورطة • وسر ذلك — فيما أرى — انهم لم يزالوا ممتنعين عـن التداخل الروماني • فخضعوا ليوغورطة لما رأوه عدوا للرومان ، وابتعدوا عن خلفه لما رأوا بهم سمة الانقياد لهم •

كان ماصنتة مجاورا ليرباص ولم يبلغنا شيء عن علاقتهما أكانت حسنة ام غير حسنة • وقد تقدم ان هذا الدور من التاريخ يعلوه قتام الخفاء • ومع ذلك يمكننا ان نحكم بأنهما كانا متسالمين • وذلك يدل على ضعف نفوذ رومة لديهما • لان أثر نفوذها يظهر في التفرقة بين الملوك واشغالهم بالفتن • ويؤيد حكمنا ذلك ان التاريخ قد أعلمنا بما كان بين يرباص وهيمصال من الحروب ، واعلمنا ايضا بما وقع بين هيمصال وماصنتة •

وذلك انهما لما تجاورا بعد قتل يرباص وقع بينهما خلاف • فترافعا الى مجلس الشيوخ • وذهب يوبا نائبا عن ابيه • وكان يوليوس قيصر مدافعا عن ماصنته • واشتد في دفاعه وتحمس حتى قبض يوبا من لحيته • وغضب يوبا من ذلك واسرها في نفســه • هذا ما امكننـا الوقوف عليه من حديث هذا الملك •

ولم نعثر على تاريخ ولايته ولا وفاته • وغاية العلم انه كان ملكا

فيما بين سنتي (88 و 81) ومحقق انه عاش بعد يرباص • وتولى الملك قبل سنة (88) •

19 — بوكوس الثاني (80 — 40)

كان بوكوس الاول ملكا على موريطانيا الغربية • وبعد يوغورطة اضيفت اليه موريطانيا الشرقية • وقد تسمى نوميديا الغربية • وكان له ولدان احدهما بوكوس الثاني هذا والآخر بوغيد الاول الآتي ذكره ولما توفي سنة (80) اقتسم الابنان مملكته • فأخذ بوكوس الثاني موريطانيا الشرقية • وهي ما بين صلداي وملوشات • ذلك الوطن الذي اخذه ابوه بالخيانة او الجبن والبلاهة •

اتخذ بوكوس الثاني عاصمة مملكته هاته يول (شرشال) • وكان ـ كبقية ملوك عصره ـ غير بعيد عن المعارك التي تقع بروما بين الزعماء • اذ قد وجد اوليك الزعماء في الوطن البربري ما يساعد كل واحد منهم • لان مرض المنافسة الذي كان يفتك بزعماء رومة كان يجري بدماء عظماء البربر أيضا • فكل حزب بروما يجد له عاضدا بافريقية •

افضت الزعامة بروما الى بمبيوس محارب يرباص • ونافسه يوليوس قيصر • وافضت المنافسة الى المحاربة • فانتصر قيصر بروما والاندلس •

وكان بالوطن الجزائري ثلاثة ملوك : يوبا بن هيمصال ومصانسيس وبوكوس الثاني • وكان مصانسيس متحدا مع يوبا • ويوبا هذا يبغض قيصر منذ حامى عن خصم ابيه بروما وقبضه من لحيته • فتحزب لبمبيوس • وهذا سبب نجاح البمبيين اولا في وطن البربر • فلما رأى قيصر ان ينقل الحرب الى افريقية وعلم ان البربر بها ضده

كاتب بوكوس واخاه يدعوهما لنصرته بالهجوم على مملكة يوبا • وقيصر هذا ابن اخي زوجة مريوس الذي كان بوكوس الاول اعانه على يوغورطة • فكانت هذه القرابة داعية لتلبية بوكوس الثاني لطلب قيصر • يضاف اليها داعي المنافسة بين ملوك البربر •

وسنرى فيمايلي تفصيل هجوم بوكوس على مملكة يوبا وانتصار قيصر وانتحار يوبا •

ولما نجح قيصر بعد معركة طبسوس سنة (46) جازى بوكوس الثاني على اعانته له بان اضاف له موريطانيا السطيفية •

ومن غير شك ان هذا الملك كانت له دولة راقية • فقد كانت أوسمة له يمنحها لاهل الاعمال الكبيرة في دولته • يدل على ذلك ان الباحثين عن الآثار عثروا على وسام به صورة بوكوس الثاني راكبا فرسه ، وهو مجد في عدوه ، وبيمينه قضيب يسير به فرسه كيف شاء ، وبشماله آلة الرمي [1] •

مملكة بوكوس هذا كلها مشتراة من ملوك النوميديين بخيانة ابطال الاستقلال البربري • وكما أن أباه رزأ البربر يوغورطة رزأهم هو — ومن يشابه أبه فما ظلم — يوبا •

20 — يوبا الاول JUBA I (50 — 46)

يوبا الاول هو ابن هيمصال الثاني • اعتنى به والده • فارسله الى رومة حيث تعرف الى الحضارة الرومانية في منبعها • وكان له

(1) هذه الهيئة في ركوب الخيل معروفة لفرسان نوميديا . فاما ان يكون الموريطانيون اخذوها عنهم لما بينهم من الجوار ، واما ان يكون الجميع سواء في هذه الهيئة وانما اختص النوميديون بالشهرة فقط .

شغف بالحروب • فحفظ لذلك من السقوط في مضار الحضارة ، وعاش حربيا شجاعا •

كان هذا الملك ينطوي على مثل ما انطوى عليه سلفه مصينيسا ويوغورطة من الاستقلال بالوطن البربري وطرد النفوذ الروماني منه• فاستعد لتحقيق أمنيته بتنظيم الجيوش وتدريبها • وكان بهذا الوطن شذاذ من امم مختلفة يؤجرون انفسهم في الحروب ، ورجال من الرومان نفتهم الاحزاب المضادة لهم المتغلبة على أحزابهم • فاتخذ منهم يوبا جيشا منظما يكون مثالا للبربر في النظام العسكري •

لم يلبث هذا الملك — بعد تبوإ عرش مملكته — الا قليلا ودخل في حروب طاحنة ختمت بانتحاره • وذلك ان بمبيوس صديق والده كان رئيس الجنود الرومانية التي لنظر مجلس الشيوخ ، وظهر يوليوس قيصر في مظهر السيد المستبد ، وحاول ان يسقط الجمهورية الرومانية ، فنشبت الحرب بينه وبين بمبيوس • وقد عرفت ان كل اضطراب يقع برومة يكون صداه بافريقية •

تغلب قيصر على بمبيوس وانتزع منه ايطاليا • ففر فاروس (احد ضباط بمبيوس) الى افريقية ومعه جنوده • واعلن التشيع لبمبيوس واخذ في اصطناع يوبا • فلم ينس هذا الملك صداقة بمبيوس لوالده ولا عداوة قيصر له ولا اضاع عليه فرصة انشقاق الرومان لتنفيذ برنامجه الاستقلالي • ففعل فعل عمه يرباص وانتصر للحزب المغلوب بايطاليا •

وفي سنة (49) وجه قيصر الى افريقية من ضباكه كريون • وكان عدوا شخصيا ليوبا • واقترح على مجلس الشيوخ ان ينتزعوا من يوبا مملكته التي ورثها من ابيه • واعلنت شيعته برومة ان يوبا عدو لجميع الرومان •

نزل كريون بالولاية الرومانية • ودارت بينه وبين فاروس مناوشات الجأت فاروس الى الفرار الى عوتيقة (بوشاطر) فحاصره كريون بها • وساءت حالة البمبيين • فجاء يوبا بجنود كثيرة نجدة لهم وعملا لفائدة الاستقلال البربري • ففك الحصار عن عوتيقه • وفر كريون الى احد المعاقل وتحصن به • ثم اشيع ــ لاخراج كريون من حصنه ــ انه ثارت ثورة بمملكة يوبا وانه ذاهب لاخمادها • وترويجا لهذه الاشاعة تأخر يوبا بجنوده وافياله • ولم يترك منهم الا قليلا تحت قيادة قائده صبورة • فتقدم هذا القائد بجنوده القليلة الى حصن كريون • فتسلل كريون من حصنه ببعض جنده • وكان عنده أسرى نوميديون • فايدوا له خبر ذهاب يوبا الى مملكته • والتقى بنواحي مجردة بطلائع الجيش النوميدي • فهجم عليهم من غير احتراز بناء على اعتقاده ذهاب يوبا • وتأخر النوميديون امامه تأخرا نظاميا : يناوشونه الحرب ثم ينهزمون • وما زالوا معه كذلك حتى قربوا مكانا كمن به يوبا • وادرك كريون ومن معه التعب من جراء فعل النوميديين ذلك • فما هالهم الا احاطة جنود يوبا الكثيرة بهم من كل ناحية • وكان بجنود يوبا الفا فارس من الاسبان والغاليين • فلم يجد كريون ــ والحالة تلك ــ غير الاصطلاء بنار يوبا • فاشتد القتال • وانتهى باستئصال جنده واخذ رأسه الى يوبا • وذلك في العشرين من يونيه سنة (49) •

تعزز يوبا بهذا الانتصار ورأى انه قد اتيح له ان يعلن بسيادة البربر الوطنيين على الرومان الغرباء • فعاد الى عوتيقه عاصمة الولاية الرومانية • واظهر عظمته على الرومان حتى البمبيين انفسهم • وصار كثيرا ما يقدم نفسه للسيادة عليهم وعلى جنودهم ، ويتخذ الجميع كآلة بيده • ويحتج لسيادته بانه هو الذي قتل كريون وجنوده ،

ولولاه لذهب أثر البمبيين من افريقية كما ذهب من ايطاليا • وزاد في قوة حجته وتأييد سيادته انه غني جدا وصاحب الكلمة النافذة في وطنــه •

وقد بلغ من استعلائه على البمبيين ان سبيون رئيسهم جاءه يوما لابسا حلة حمراء مطرزة بالذهب ــ وهذه الجبة من شعار الملوك اذ ذاك ــ ليظهر ليوبا عظتمه • فأنف منه ، وأمره بانتزاعها ولبس البياض فلم يسع سبيون الا الامتثال •

كان بمبيوس لما انهزم بايطاليا ذهب الى مصر • ولما بلغ الاسكندرية دس اليه بوثان [1] من قتله • ولكن شيعته لم يحل من عزمها موته حيث وجدت في يوبا أقوى عضد لها بافريقية • وتلاحق اليها من عظماء هذا الحزب ميتلوس. سبيون ــ وهو صهر بمبيوس غــير سبيون الافريقي وسبيون الاميلي ــ فبلغها سنة (48) ثم قاطون سنة (47) •

ولما دخل قاطون عوتيقه وجد سبيون وفاروس مختلفين على رئاسة الجند ، كل يريدها لنفسه • ووجد يوبا مستعليا عليهما وجالسا بينهما كما هي عادة الملوك•فلم تسمح له نفسه بمشاهدة هذا المنظر المزري بجنسه • فرفع الكرسي ووضعه الى جانب سبيون بحيث يكون وسطا ويبقى يوبا طرفا • واراد بهذا الفعل إشعار يوبا بان السيادة للرومان• ثم وحد بين سبيون وفاروس •

بعد ذلك تفرغ البمبيون لتنظيم شؤونهم • ولم يتأخر يوبا عــن اعانتهم • تفاوضوا اولا فيمن يخلف بمبيوس لرئاسة حزبهم وتدبير حربهم • واتفقت كلمتهم على تقديم سبيون لهذا المنصب فتهيــأ للحرب • وجمع اربعين الف جندي وخيلا كثيرة اركبهم العبيدوالموالي•

(1) بوثان رجل قائم بشؤن بطليموس الثاني عشر واخته كليوباطر .

وامدهم يوبا باربع فرق منظمة تنظيما رومانيا • فيهااثناعشر الفجندي وخيل كثيرة • وامدهم أيضا برجال كثيرين من البوادي غيرالمنظمين و (120) فيلا • وتولى سبيون نفقات جميع جنود يوبا ودفع مرتباتهم•

يوبا ــ وان اعان البمبيين ــ لم يكن مخلصا اهم • فأخذ يشير على سبيون بما يبغض الرومان الى البربر لئلا يكون لاجنبي نفوذ بوطنه على قومه • فاشار عليه بجبر سكان الولاية الرومانية على تسليم حبوبهم لتموين الجند وجبر التجار منهم على تقديم الاموال • فنفذ اشارته بصرامة حتى انه خرب لذلك مدنا كثيرة •ثم اشار عليه بتتبع المتشيعين لقيصر حتى المتهمين بالتشيع : باستئصالهم وقتل ذريتهم ونسائهم • وكان جل مــن بعوتيقه قيصريين • ولكن سبيون تفطن هذه المرة للدسيسة • فدافع يوبا بان هذا عمل يغضب الرب • ولو استرسل سبيون في غفلته وعمله باشارات يوبا لثارت عليه العاصمة (عوتيقه) ، واشتغل الرومان بعضهم ببعض ، وتفانوا • فتبقى الولاية الرومانية ليوبا غنيمة باردة • وذلك ما كان يأملــه لتحقيق غايته الاستقلالية •

بلغ الخبر الى رومة بقوة سبيون ويوبا • فدخل الرعب قلوب القيصريين •ولكن قيصر رأى ان يتمم انتصاراته بنقل الحرب الــى افريقية •

واذ قد ارتأى هذا الرأي فهو مضطر للاستنصار بملوك البربر • وقد علم ان يوبا مصانسيس ضده • فكاتب بوكوس الثاني وبوغيد الاول ليشغلا له يوبا •ووعدهما اقتسام مملكته • فكانا له على يوبا •

في منتصف اكتوبر سنة (47) توجه قيصر الى افريقية على طريق صقلية • ونزل بنواحي قليبية من عمالة تونس • وعند نزوله عثر فسقط على الارض فقبضها ونادى ــ خشية الطيرة التي تضعف من

عزائم جنده ــ : « افريقية ! قد قبضتك » • ونزل معه من الجنود نحو (3000) مشاة و (150) فارس • وتأخر بقية الجند في البحر •

لما نزل قيصر جد سبيون في تجنيد بربر الولاية الرومانية • فوجد قلوبهم منحرفة عنه لعسفه وجوره وتعديه على اموالهم • ورومان هذه الولاية متشيعون لقيصر لان عمته كانت تحت مريوس غـالب يوغورطة • فلم تبق لسبيون ثقة في أهل الولاية الرومانية من بربر وروميـان •

هنالك اضطر لمفاوضة يوبا على الوجه الذي يهواه • فطلب منه النجدة على ان يترك له افريقية متى انتصر ويعود بالرومان الى ايطاليا • فلم يشك يوبا في انه قد اشرف على تحقيق غايته • فاعانه بفرسان نوميديا الذين لهم شهرة من ايام حنبعل ، وبالافيال الكثيرة • وكانت جنود يوبا هي عمدة سبيون •

في نوفبر هذه السنة وقعت المعركة الاولى بين قيصر وضباط سبيون •وأحيط بقيصر فكاد يؤسر • ولكنه نجا بدهائه وسار نحو مركزه • فلحقته طائفة من فرسان نوميديا جاءت بعد المعركة • وعددها (1100) فلم يخلص منها الا بعد اللتا والتي • ورأى ان هذه المعركة على شدتها ليست من الاهمية بمكان لغيبة شخصي يوبا وسـبيون عنها • فاهتم من بعدها وحصن مركزه •

كان لبمبيوس ولد صغير لحق بافريقية • فاخذ قاطون ينفخ فيه روح الغيرة ، ويستثير حميته بذكر تاريخ والده وجلائل اعماله • واشار عليه بالسير الى بوكوس حليف قيصر • فتوجه الولد اليه في الفي جندي تقلهم ثلاثون سفينة برسم الكف عن مملكة يوبا وعدم اشغاله عنهم • ولما نزل بالشاطىء وأخذ يتقدم نحو العاصمة احاط به البربر واوسعوه

شتما وفتكوا بمن معه • ونجا ببعض جنوده ، فركب سفنه ، وعاد خائبـــا •

وكان قيصر في حال سيئة • فاستمال رجلا ايطاليا يدعى ستيوس الى نصرته • وكاتب بوكوس واخاه بوغيد يعلمهما بان يوبا سيذهب الى حربه ويخلو لهما وجه مملكته • ويشير عليهما بالهجوم اذ ذاك •

علم يوبا بحرج موقف قيصر • وخفي عليه ما دبره مع ابني بوكوس الاول ، فلم يكتم سروره بضعف عدوه • ورأى انه قد قرب اليوم الذي يتمتع فيه بوعد سبيون • فجمع جنودا كثيرة وخيلا وفيلــة • واخذ يجول بها في البوادي والناس تنضاف اليه حتى كان قريبا من المنستير (بتونس) •

وفي هذه الاثناء ذهب ستيوس الى بوغيد مستعينا به • واتحد مع بوكوس • وهجما على مملكة يوبا • وفتحا قرطة بعد حصار لم تطل مدته • وفتحا أيضا حصنا (غير معلوم لدى المؤرخين) به مؤن يوبا وذخائره واسلحته • واستأصلا سكان مدينتين من مدنه • وصارا يهددان بقية مدن نوميديا وباديتها • ولا يشاهد بها الا النار والدم •

بينما يوبا في زهوه وسكره برائحة خمرة الانتصار اذ بلغه ما حل بمملكته • فتوجه في الحين وأغذ السير لادراك اهل مملكته • واخذ معه كل ما اعان به سبيون من رجال وخيل وفيلة • ولم يترك له الا ثلاثين فيلا غير مهذبة ولا مدربة •

ضعف سبيون بعد ذهاب يوبا عن مقاومة قيصر • فارسل اليه يستحثه في اللحاق به • ويؤكد له وعده السابق • فلم يجبه الى طلبه لاشتغاله بدفاع الهاجمين على مملكته • وقد يكون من غرضه ان يدع الرومان يتهالكون • ثم يرجع على الغالب منهـم فيحاربه • ويظهر

الوطن البربري من الرومان • ولكن سبيون ألح عليه حتى رحمه • وترك قائده صبورة لمقابلة ستيوس وبوكوس •

عاد يوبا الى سبيون بألف ماش وثمانمائة فارس وثلاثين فيلا • ونزل في العشرين من دجنبر بجيشه خلف جيش سبيون • وفي التاسع والعشرين منه وقعت معركة شديدة بين المتحاربين •

وفي يناير سنة (46) فر الى قيصر كثير من جنود يوبا الجيتوليين • وبلغ عددهم الفا • وسبب ميلهم الى قيصر ان ضباط هذه الفرقة كانت لآبائهم أراض انتزعها منهم والد يوبا هيمصال • واعادها عليهم مريوس بعل عمة قيصر • ثم تتابعت عدة وقائع كانت خاتمتها واشدها واقعة طبسوس[1] في هذه الوقعة تفاقمت الاهوال واشتد القتال • وانتهت بفوز قيصر وفرار اعيان حزب بمبيوس •

ذهب يوبا بعدها الى مدينة زامة • وكان اتخذها عاصمته الثانية • ونقل اليها — لما عزم على حرب قيصر — نساءه وذريته وامواله وجمع ببطحانها حطبا كثيرا • واقسم ايمانا مغلظة : لئن غلبه قيصر ليحرقن بذلك الحطب اهل المدينة ثم اهله ونفسه • فلما بلغها اغلقوا في وجهه الابواب مخافة ان ينفذ فيهم ايمانه •

اظلمت الدنيا في وجه يوبا • وضاقت عليه الارض بما رحبت • فصنع وليمة اكثر فيها من الاكل وشرب الخمر • ثم تحامل على سيفه ليريح نفسه من عناء الدهر • فلم يستطع الثبات على ذبابة السيف لغلبة الخمر عليه • فأمر أحد عبيده بقتله فقتله !

---

(1) طبسوس مدينة على شاطىء البحر براس ديماس (بتونس) يليها برا بحيرة صارت بها كجزيرة اذ لم تبق الى المدينة الا مسلكين ضيقين وهي من تأسيس الفينيقيين . ولم تخرب الا على عهد الفتح العربي . ومكانها اليوم موضع حراثة .

وهكذا انتهت حياة يوبا بعد ما كاد يحقق غايته ويطرد الرومان من افريقية • وعلى قلة ايامه واشتغاله بالحروب كانت له دولة عظيمة وضرب السكة باسمه • وبلغ من عظمته ان صار لا يحفل بالرومان • على انه جاء بعد ما انهكت وطنه الحروب الداخلية ، وتقاسمه امراء متعددون • قال بعض مؤرخي الافرنج : كان النوميديون اذ ذاك على غاية من الحضارة • وحالتهم احسن من حالة أهل الجزائر على عهد الاحتلال الفرنسي » •

بقي صبورة يحارب ستيوس وبوكوس بعد انتحار ملكه حتى قتله ستيوس في معركة من المعارك • وشاءت الاقدار ان لا يبقى بعد ملكه للهوان والصغار •

21 — مصانسيس MASANASSÈS (50 — 46)

مصانسيس كان ملكا على قسم سطيف من نوميديا • ولا ندري الوجه الذي ورث به الملك على هذا القسم بعد ماصنتة •

لما دخل يوبا في حرب قيصر كان هذا الملك معينا له على حربه واعلاء شأن وطنه باضعاف النفوذ الاجنبي او ازالته •

ولما انتصر قيصر على خصومه بافريقية اقتسم مملكتي يوبا ومصانسيس على انصاره : القسم الشرقي من نوميديا جعله مستعمرة رومانية • واطلق عليه اسم «افريقية الجديدة» او «نوميديا الحديثة» هذا القسم واقع شرقي قسنطينة • ويشمل قالمة وعنابة • ومملكة مصانسيس منحت لستيوس • وهي عبارة عن قرطة وروسفاد وشولو وميلوم وتوابعهن • ومن ههنا تعرف ان قول المؤرخين : مصانسيس ملك على قسم سطيف ، مرادهم به ما يشمل هذه الولايات الاربع لا

خصوص موريطانيا السطيفية • ووسع في مملكة بوكوس الثاني باضافة موريطانيا السطيفية اليها • وهي ما بين مساغا وصلداي • وجازى بوغيد الاول بان اعطاه القسم الغربي من نوميديا •

هكذا وزعت مملكتا يوبا ومصانسيس على ثلاثة اقسام : قسم جعل مستعمرة رومانية وقسم اضيف لملكي موريطانيا الغربيين لانهما ليسا نوميديين ولكنهما على كل حال بربريان • وقسم جعل وسطا بينهما جغرافيا وسياسيا وهو الذي منح لستيوس • فان هذا الرجل ليس بربريا بل هو ايطالي لكنه يعمل لنفسه لا للرومان •

وسياقة خبره انه كان جنديا وترقى الى أن صار واليا ثم عزل • فاغضبه العزل • واخذ يسعى في جمع اللصوص والمتشردين من ايطاليا واسبانيا • فكون جيشا تحت طاعته • وصار يؤجره لمن يحتاجه من الملوك في حروبهم • وكان منصور الراية • فاشتهر ذكره وطار في الآفاق صيته • فربحت تجارته • وجمع اموالا كثيرة اشترى منها سفنا • وصار يشتغل بالقرصنة يغزو المراسي وينهبها • ولم تخف مكانته على قيصر • فراسله طالبا منه اشغال يوبا عنه • ووعده ببعض مملكته •فاجاب الطلب ، وقضى له بالغلب • ونال من ذلك الارب • فبقي اميرا بمملكة مصانسيس حتى اغتاله عرابيون كما سيأتي•

22 — بوغيد الاول (46 — 44)

بوغيد الاول هو ابن بوكوس الاول • انتصب ملكا بموريطانيا الغربية بعد وفاة ابيه سنة(80) واعان قيصر على يوبا • فمنحه القسم الغربي من نوميديا •وبذلك دخل بوغيد ضمن ملوك البربر في الوطن الجزائري غير انا لم تتحقق المراد بالقسم الغربي من نوميديا • وفي مرسيي : ان يوبا كان ملكا على نوميديا الشرقية والوسطى ، وان مصانسيس كان

على قسم سطيف من نوميديا ، وان القسمين الاولين جعلتا مستعمرة رومانية ، وان مملكة مصانسيس منحت لستيوس ، وان قسم سطيف الحق بموريطانيا الشرقية ، ومراده انه اضيف لبوغيد على ما يفسره قوله في موضع آخر . واذن فقسم سطيف هو المراد من نوميديا الغربية . وفي غروت : ان بوكوس الثاني أخذ موريطانيا السطيفية .

في هذه الاقوال ضرب من الاجمال لم نجد ما يفسره من الانقال . ولكن اذا استعنا بالمفسر على المبهم سهل علينا فهم بعض ما لم نفهم . ذلك ان مستعمرة الرومان قد علمت انها تشمل قللة وعنابة . فتكون هاتان العمالتان حد نوميديا الوسطى غربا ، وان مستعمرة ستيوس قد علمت حدودها ايضا . فما بقي من نوميديا غربا قسم بين الاخوين بوكوس وبوغيد . وهو ما عبر عنه غروت بموريطانيا السطيفية . وعبر عنه مرسيي مرة بقسم سطيف ، واخرى بالقسم الغربي لنوميديا. ويكون قول غروت : بوكوس أخذ موريطانيا السطيفية لا يعني به جميعها . هذا ما امكننا فهمه من ذلك الاجمال والاضطراب بعد العجز عن ايجاد شرحه في أي كتاب ..

كان قيصر يريد اسقاط الجمهورية . فكان الجمهوريون ضده . فبعد ما غلبوا بايطاليا ثم افريقية ذهب من بقي منهم الى اسبانيا ومعهم من امراء البربر عرابيون ابن مصانسيس . فذهب قيصر الى حربهم . وبقي برغيد معينا له هنالك أيضا . ووقعت حروب بينه وبين الجمهوريين من شيعة بمبيوس . واخيرا انتصر عليهم في منده من بلاد اسبانيا سنة (45) . وتوفي بوغيد سنة (44) .

23 — عرابيون

عرابيون هو ابن مصانسيس . لما قسم قيصر مملكتي والده ويوبا

على ما سبق بيانه ذهب هو الى الاندلس • وبها شيعة بمبيوس • فجمع هنالك جيشا من اللصوص واشتغل بالحرابة زمنا • ثم ازداد جيشه قوة وازداد هو مهابة • فقاتل قيصر هنالك •

وفي سنة(44) توفي قيصر وبوغيد عدوا أبيه• فرأى أن الوقت مناسب لاسترجاع مملكة والده • فعاد الى وطنه بمن معه من الجنود • وجمع اليه شيعته من النوميديين • وبعث منهم بطائفة الى بمبيوس الصغير ليعلمهم حسب الانظمة الرومانية • ومن غير شك ان النوميديين استبشروا بعوده اليهم لانهم صاروا تحت احانب عنهم في الوطن او في الجنس والوطن جميعا •

خلف بوغيد ابنه بوكوس الثالث • ورأى عرابيون ما له من الجنود ، فعزم على حرب بوكوس لينتزع منه نوميديا السطيفية [1] • وكان بوكوس غريبا عن محكوميه فاستنجد بوكتافيوس المستبد برومة بعد قيصر • فلم ينجده لاشتغاله بتثبيت قدمه برومة •

تحارب الملكان البربريان ، فكانت الخيبة نصيب بوكوس • واسترد عرابيون منه نوميديا السطيفية • وبقي له ستيوس •فدبر له مكيدة نجح فيها فقضى على حياة هذا الايطالي المتملك على البربر • واسترجع بذلك جميع ما كان يملكه ابوه • ولكثرة الفتن برومة بين الجمهوريين والقيصريين ذهب دم ستيوس هدرا • ولم يتوجه على عرابيون من الرومان ادنى بحث او مسؤلية •

في هذه المدة كان الوالي بافريقية القديمة كورنفسيوس • واعطيت نوميديا الحديثة لوكتافيوس • فوجه اليها عامله سيكتيوس • وطمع في الاستيلاء على افريقية القديمة أيضا • فوقعت الحرب بين الوالي

(1) نوميديا السطيفية هي المعبر عنها احيانا بموريطانيا السطيفية .

والعامل .وخاطب كلاهما عرابيون مستنجدا به . فتريث في الاجابة مفكرا في أي الرجلين أوثق بسياسته . ثم رأى ان الاصلح له اجابة وكتافيوس فانضم له .

وبينما كورنفسيوس محاصر لقرطة اذ بلغه ان عرابيون انتصر لوكتافيوس . ففشل وغادر قرطة فارا الى ولايته . ولحقه عرابيون . وتلقاه سيكستيوس شرقا . فانحصر بين عدوين . وأمعن عرابيون في جنوده قتلا . فلم ينج منهم الا القليل .

دخل بعد هذا الانتصار سيكستيوس افريقية . وعاد عرابيون الى مملكته بغنائم قيّمة . وقد يكون توسع في نوميديا الحديثة . وفي سنة (43) اصطلح وكتافيوس وانطونيوس . وتشكلت حكومة رومة من رؤساء ثلاثة . هذان الاثنان وابيدس . وبقيت افريقية تحت وكتافيوس ولكنه عزل سيكستيوس وعوضه بفانغو .

وفي سنة (42) اقتسم الرؤساء الثلاثة المملكة الرومانية من جديد . فاخذ انطونيوس افريقية الاصلية . واخذ وكتافيوس نوميديا والجهات الغربية . فكلف سيكستيوس بالنيابة عن انطونيوس في افريقية ، وفانغو بالنيابة عن وكتافيوس في نوميديا الحديثة .

ولسوء ادارة فانغو ثار عليه البربر وامدهم عرابيون . ولكن فانغو انتصر عليهم ففر عرابيون الى سيكستيوس . وطلب منه فانغو تسليمه فلم يسلمه . فهجم على افريقية وعاث فيها فسادا . فدافعه سيكستيوس، واعانه عرابيون والنوميديون، فكانت الهزيمة على فانغو .

وبعد هذا خدع سيكستيوس عرابيون وقتله غيلة. فمن المؤرخين من قال : قتله لانه كان قد أعان وكتافيوس على انطونيوس ، ومنهم من قال : لانه كان يخشى نفوذه ويغار منه . وليس الجمع بين الامرين بمتعذر .

غضب فرسان نوميديا لقتل عرابيون • فذهبوا الى فانغو واغروه بسيكستيوس فتحارب هذان العاملان • ولكن فانغو غلب فقتل نفسه• واصبح سيكستيوس هو الوالي الوحيد بافريقية الاصلية ونوميديا الحديثة • قال مرسيي : «وربما ضم آليه ماكان تحت ملك عرابيون» •

كان عرابيون عاملا جريئا مفكرا داهية شجاعا مقداما صاحب آمال كبيرة : ينوي اخراج الرومان من نوميديا • ولكن لم يساعده القدر • وسلك سبيل غيره من عظماء البربر • فذهب ضحية الاستقلال قبل ان يحقق تلك الآمال • وهكذا اتخذ عظماء الرومان قتل الاحرار سبيلا لترضية جشعهم في الاستعمار • وكان عرابيون خاتمة ملوك نوميديا الذين وقفوا في وجه الاستعمار الروماني واوقفوا سيره •

24 — بوكوس الثالث (44 — 33)

بوكوس الثالث هو ابن بوغيد الاول • جلس على عرش الملك بعد وفاة ابيه • وانتزع منه عرابيون نوميديا السطيفية •

وفي سنة (40) توفي بوكوس الثاني • وورثه ابنه بوغيد الثاني • وكانت الحرب بالاندلس بين وكتافيوس وانطونيوس • وكان الاول عدوا لبوكوس الثاني صديقا لبوكوس الثالث • فألح انطونيوس على بوغيد الثاني في اعانته على عدو أبيه • فذهب سنة (38) الى الاندلس بجيوش كثيرة نصرة لانطونيوس • وبغيبته اختل نظام مملكته وقامت بها الثورات •

شاهد بوكوس الثالث ما حل بمملكة ابن عمه ، فوثب عليها وملكها• ولما عاد بوغيد من الاندلس لم يجد سبيلا لاسترجاع ملكه ، فذهب الى الاسكندرية ــ ومصر اذ ذاك تحت يد حليفه انطونيوس ــ فولاه هنالك اعمالا جليلة ، وتوفي بمدينة ميطون •

اصبح بوكوس ملكا على موريطانيا الشرقية والغربية • قال اغسال :

« وهذه المملكة عبارة عما بين جيجل شرقا ، والمحيط الاطلانتيقي غربا »
ولم تتدخل رومة فيما وسع به بوكوس مملكته لمكانة من وكتافيوس .
وانتقل بعد هذه التوسعة الى يول (Yol) وجعلها عاصمة ملكه .
واستقر بها الى أن توفي سنة (33) ولم يترك عقبا . قال مرسيي :
وكانت مدته ـ بصفة اجمالية ـ مدة هناء ، أو نقول : ان عصره غير
متضح للمؤرخ .

كان بوكوس هذا خاتمة أسرة بوكوس الاول الذي وسع مملكته
على حساب ملوك نوميديا . كما كان عرابيون خاتمة ملوك نوميديا .

وهكذا تقارب زمن انقراض هاتين الاسرتين اللتين تولتا ملك البربر
حقبا . وقضى عليها التنافس .

25 — **يوبا الثاني** «25ق – 23م»

يوبا الثاني[1] هو ابن يوبا الاول . أخذ الى رومة بعد انتحار
والده . ونشأ بها . وفي سنة (30) ق.م توفي انطونيوس . وكان
متزوجا بكلابطرة أخت بطليموس الثاني عشر . وله منها بنت تدعى
كليوباطر سيليني . وقام وكتافيوس بكفالة ابنائه فزوج هذا البنت من
يوبا وولاه مصر .

وفي سنة (25) ق.م أو قبلها ولاه على نوميديا بصفة امير نائب .
ولا يعلم نفوذه بقرطة والمدن المحالفة لها . والمظنون انه ضعيف لان تلك
المدن المتحالفة كانت لها امتيازات على باقي مستعمرات رومة . وكان نفوذه
الفعلي بنوميديا الحديثة . والظاهر انه احسن ادارتها ووطد فيها دعائم
السلم . يدل لذلك ان وكتافيوس نقله فما بعد الى موريطانيا . واضاف

---

(1) سماه في تحفة الزائر 14:1 جوبا الروماني وليس بروماني وانما
هو روماني النزعة . وفي المغرب ص 82 : « وجزيرة جوبا قبل مرسي
بجايه » فلعل هذه الجزيرة منسوبة الى يوبا هذا .

نوميديا الحديثة الى افريقية الاصلية • ووجه الدلالة ان الرومان كانوا يخشون ثورات البربر • فلا يلحقون بمستعمراتهم التي تحت تصرفهم الفعلي الا الاوطان التي ذللها الحكم وعبدها التمدن حتى صارت عاجزة عن الثورات •

وكان الجيتوليون مستقلين تحت عظماء منهم، فتقرب اليهم الرومان اولا بالملاطفة • وعقدوا معهم معاهدات ، وعدوهم حلفاء مستقلين • قال مرسيي : « وتلك خطوة اولى لاخضاعهم » ومع ذلك فقد كانوا كثيرا ما يهجمون على الجهات الشمالية • وفي سنتي (29) و (21) دافعهم ضابطان رومانيان • وقهقراهم الى القفار • ووقعت بينهم وبين يوبا عدة وقائع كانت جيوشه فيها منهزمة حتى استعان بالرومان • واذ ذاك اهتموا بهم وحاربوهم الى ان انتصروا عليهم وقطعوا جرثومة ثوراتهم سنة (6 م) •

في سنة (17) ق•م نقل وكتافيوس يوبا من نوميديا الحديثة • واضافها الى ولاية افريقية • وجمعتا تحت وال واحد الى نظر مجلس الشيوخ • وعوضه عنها بالموريطانيتين وبعض المراكز الجيتولية • فأصبحت له مملكة مترامية الاطراف • حدها الشرقي جيجل او بجايه ، والغربي المحيط الاطلانتيقي ، والجنوبي الصحراء •

نزل من مدن هذه المملكة يول ، واتخذها قاعدة • وسماها قيصرية وتولى ادارتها بحسن تدبير • وكانت هذه المملكة قبل لبوكوس الثالث• فلما توفي قدم اليها وكتافيوس نفسه • واضافها الى رومة • وبقيت تحت نفوذه مباشرة حتى نقل اليها يوبا •

يوبا اخذه يوليوس قيصر بعد واقعة طبسوس الى رومة وعمره خمس سنوات • وبعد قتل قيصر كفله وكتافيوس ، فقضى صباه تحت رعايته ، ورباه على احترام رومة ، وقد علم اخلاصه لها • فلما كبر جعله قنطرة لنقل الجراد الروماني الى افريقية الشمالية : فولاه اولا على نوميديا •

حتى اذا نضجت ثمرتها وسهل على الرومان اجتناؤها نقله الى الموريطانيتين ــ وقد كانتا تحت نفوذه ولكنه عجز عن تذليلهما ــ فاضعف فيهما الروح الوطنية التي تلازم بساطة العيش : نشط الفلاحة فتقدمت خطوات ، واعتنى بالعمران فاتسع نطاق المدن وكثرت عمارتها •

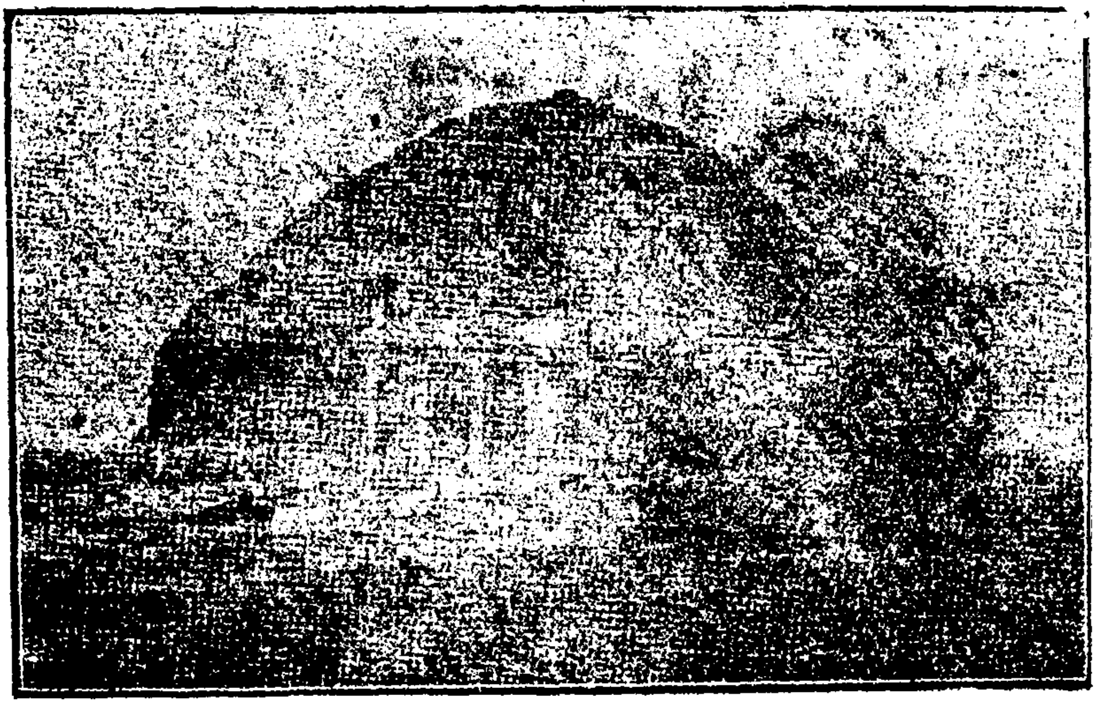
أخذ المعارف عن كبار علماء اليونان والرومان • واشتهر بالتاريخ والجغرافيا والطبيعة والنحو • وكان ذا ذوق وانتقاد للشعر والفن • وله كتب في التاريخ • منها تاريخ رومة من يوم تأسيسها الى وفاة كافله أغسطس قيصر (وهو وكتافيوس) • يــذكر في تلك الكتب النظــم الرومانية وجزيرة العرب والسريان وليبية • ويتكلم فيها عن التصوير والتمثيل والنباتات • وكتب رسالة في اسباب فساد اللغة الاغريقية ، وألف تآليف بها • وبالغ في التشيع للاغريق حتى نسب لهم عوائد قديمة بافريقية وروما • وجازوه على ذلك بتشييد هيكل له بأثينا • ونقل الحضارة الاغريقية الى عاصمته قيصرية • فجلب لها علماء ورسامين وممثلين من الاغريق • وأنشأ بها بناءات فاخرة رسم عليها تماثيل من احسن ما تنمقه يد الاغريقي •

ولم يزل يؤيد السيادة الرومانية بوطنه ويخلد ذكر كافله حيث تسمى باسمه • فدعى نفسه « كايوس يوليوس » ونسب عاصمته يول اليــه فدعاها قيصرية ، وشاد بها معبدا لالهه •

والخلاصة انه كان متشيعا للاغريق في العلوم والحضارة ، وللرومان في الحكم والسياسة ، عديم الغيرة الوطنية والاحساس القومي •

في سنة (6) م توفيت زوجه فدفنها شرقي قيصرية • وشاد على قبرها هيكلا ضخما • وفي سنة (22) م أو (23) م توفي ودفن مع زوجه • ولم يزل ذلك الهيكل مشاهدا الى اليوم ويعرف بقبر المسيحية • ولكنها

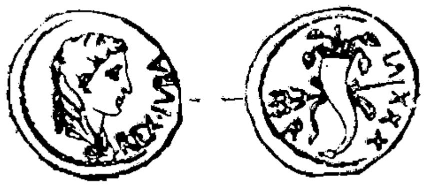
تسمية مخالفة للحقيقة • فان سيليني لم تدن بالمسيحية ولا كان لهذا الدين اذا ذاك ظهور في هذا الوطن •



(ش – 16) قبر المسيحية

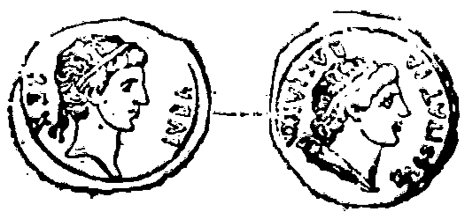


(ش – 17)
رسم يوبا عثر عليه بشرشال • وهو محفوظ بدار الآثار هناك



(ش — 18)

نقود الملك يوبا وعليها رسمه



(ش — 19)

نقود الملك يوبا وعليها رسمه الى اليسار ورسم زوجه الى اليمين

26 — **بطليموس** 23م — 40م

بطليموس هو ابن يوبا الثاني • سماه بهـذا الاسم الاغريقي من شغفه بالاغريق • ورث عرش ابيه بعد وفاته • وكما كان اسمه غير بربري كان هـو عديم الغيرة البربرية والحماس القومي • فلم يعمل كجده يوبا الاول ومن قبله من سلفه للاستقلال البربري • بل كان كأبيه يؤيد النفوذ الاجنبي ويخدم مصلحة رومة •

لم يرث بطليموس عن ابيـه غير عرشه واخلاصه لرومة • ولم يرث عنه أذواقه العلمية وتدابيره الادارية • فترك أمور دولته بيـد الحاشية • وانهمك في الملاهي والفجور • وبذلك وجد البربر سبيلا الى استعادة حياتهم الحربية •

كان بنوميديا ثائر بربري يدعى تقفاريناص • فاستدعته حاشية بطليموس الى موريطانيا ووعدته الاعانة • فلبى طلبها ونقل الحرب الى تلك الناحية •

تقفار يناص هذا رجل بربري تجند بالجند الروماني وبلغ رتبة ضابط معين • ثم فر الى القبائل البربرية المقيمة بجهات اوراس • وأثارهم على الرومان سنة (17) م • فهجموا على الجنود الرومانية في مراكزها • واتسعت ميادين الثورة من خليج طرابلس الى الحضنة •

برز لمحاربته كاملوس والي افريقية فلم يقو تقفاريناص على مقابلته وفر الى الصحراء • واشتغل فيها بتنظيم الجنود على الطريقة الرومانية • فاتخذ الفرسان والمشاة • وفي ظرف عام تمم تنظيمه وتمرينه • فأعاد الكرة على الرومان • وهزمهم بوادي باجيدة (ساحة لبس) فتركوا له حصونا • وغنم غنائم جليلة • فتشجع بهذا الانتصار • وذهب الى تالة (بعمالة تونس) وحاصرها • فضاعف الرومان قوتهم مضاعفة أعجزت تقفاريناص عن مقابلتها • ففر أيضا الى الصحراء • وذلك سنة (20) م •

وبعد قليل ارسل الى الامبراطور طيبريوس وفدا يعرض عليه الصلح على ان يقتسم معه أراضي افريقية • فأبت للامبراطور عظمته النزول لقبول هذا الشرط • وراءه وقاحة من تقفاريناص • فارسل الى الجيتولبين يعدهم بالعفو ان هم وضعوا السلاح • وجعل جعلا لمن يقتل تقفاريناص • فلم يجد من بطانة هذا الثائر خائنا •

وفي سنة (21) وجه الامبراطور لحربه القائد بليسوس (BLOESUS) وكان ذا دراية بالحرب • فقسم جيشه أقساما وراء كل قسم حصن • فمكث في مطاردة تقفاريناص عاما • وكان يهزمه كلما التقيا • ولما اعجزت تقفاريناص الحيلة ويئس من الانتصار عاد الى الصحراء ملجئه من قديم سنة (22) •

سر الرومان بانتصار بليسوس سرورا عظيما • ولقبوه الغازي • ولكن هذا الانتصار لم يكن حاسما للثورة • فان تقفاريناص رجل

لا يأبه بمعاكسة الايام • ولا تقف أمام عزيمته العقبات • ولا يفشل للنوائب والصدمات • فمكث بعيدا عن الرومان بالصحراء حتى بلغته وفاة يوبا • فجدد عزمه • وجمع جموعه • واستثار القبائل الجيتولية من جديد • وحاصر بعض المدن • فعين الرومان لحربه دولبلة (DOLABELLA) • وابتدأ هذا الروماني بقتل عظماء الجيتوليين • واتخذ مراكز المجنود على حدود الصحراء • وطلب من بطليموس امداده برجال البربر فأمده • وبلغ تقفاريناص مدينه توبوسبطوس (TUBUSUPTUS) ـ تيكلات ـ ، فحاصرها • وبرز اليه دولبلة بعد ذلك الاستعداد فأجلاه عنها • وفر أمامه ـ كعادته ـ الى الصحراء • فلقيته الجنود المرابطة بحدودها •

هنالك توجه نحو موريطانيا اعتمادا على وعد حاشية بطليموس له بالاعانة • فأحاطت به الاعداء في الطريق • وما بلغ عوزية (سور الغزلان) حتى أدركه دولبلة • وانقض عليه ليلا فافنى جيشه وقتله ! وذلك سنة (24) •

وهكذا انتهت حياة هذا البربري الذي يحمل بين جنبيه روحا استقلالية ، وهو يعلم ما فيها من المصاعب ، اذ ما كان يجهل قوة رومة ولا انتشار نفوذها بالوطن البربري • ولكنها العزائم الفولاذية تدفع باربابها الى ما وراء التأمل في العواقب • والبطولة قد تنتهي بصاحبها الى الجنون •

سر الرومان بالقضاء على شخص تقفاريناص الذي شغلهم مدة ثماني سنين • وجازى مجلس الشيوخ بطليموس على اعانته بقضيب من عاج وحلة مطرزة بالذهب • حمل هذه الجائزة أحد الشيوخ وذهب بها الى بطليموس مكلفا من قبل زملائه بمقابلته وتهنئته باسم « ملك حبيب حليف » •

ما أجود بطليموس ! بل بئس الجود جود بطليموس : يعين الرومان على قتل بني جنسه ليملكوا أراضيهم ونفوذهم ورقاب بقية الامة ، في مقابلة القاب وتحف ! وبعد كيف كانت عاقبته معهم ؟

في سنة (39) ارسل اليه الامبراطور غليقلا (CALIGULA) يستدعيه الى رومة — وكانت بينهما خؤلة — فلبى الدعوة حينا • وذهب في هيئة عظيمة غار لها الامبراطور • وحضرا ذات يوم المرسح • فأعجب الحاضرون بثوب بطليموس الارجواني • فاغتاظ لذلك الامبراطور وزجه في السجن وقطع عنه الطعام ولم يترك له ماء غير ماء الميازيب • وانتهى به الغيظ الى أن قتله • يقول مرسيي : « أما غيرة من هيئته واما نهما في سفك الدماء واما طمعا في الحاق مملكته برومة رأسا » وسواء كان القتل لاحد تلك الاغراض أو لثلاثتها فان غيرة الامبراطور من هيئة بطليموس وبهت العامة مما يدل على تفوق الازياء البربرية على الازياء الرومانية •

كان لنعي بطليموس أسوأ الاثر في نفوس البربر دفع بأحد مواليه المسمى أدمون الى رفع لواء الثورة وعززه الجيتوليين • ولكن الرومان تمكنوا من اخماد ثورته • فرجع الامر الى نصابه ، والحقت موريطانيا برومة • وذلك سنة (42) م تقريبا •



(ش — 20) رسم بطليموس عثر عليه بشرشال

7 ـ انقراض الممالك البربرية

قد رأيت كيف نشـأت الممالك البربرية العظمى على عهد قرطاجنة ، وكيف تعرفت اليها رومة • وقـد عجمت هاتان الدولتان القويتان عود ملوك البربر • فوجدتاه صلبا لا يلين لكل غامز ، ورأتا هدم استقلالهم « دونـه خرط القتاد » فاكتفت قرطاجنة منهم بأن يكونوا معها ـ بحق الجوار ـ على رومة ذات المطامع الاشعبية • اما رومة فانها بعد ما انتصرت بمن نصرها منهم لم تنفك تتداخل في شؤونهم واذكاء جـذوة التنافس بينهم والزيادة في عددهم بتجزئة ممالكهم وشغلهم عن مهماتهم الداخلية بالاستنصار بهم في حروبها أو تقسيمهم على زعمائها المتحاربين • فقد رأيت انهم ـ أيام تنازع مريوس وصيلة ـ منهم من كان مع الاول ومنهم من كان مع الثاني • وكذلـك كانـوا في تحارب بمبيوس وقيصـر وعـراك وكتافيوس وانطونيوس •

مهما امعن الباحث في علل سقوط تلك الممالك وانعم النظر الفى ان علة العلل هي تداخل رومة في شؤونها بتلك الصفة التي ذكرنا • حتى اني عندما أريد من الفكر جولة في علل سقوط هاتيك الممالك يذهب الى البحث عن أسباب بقائها وطول أمدها • فيجد السبب الوحيد هو ثروة الوطن البربري وغناه بكثرة رجاله الاحرار أولى الشجاعة وحدة الافكار • فقضاء رومة على يوغورطة لا يعجز أن يظهر مثل يرباص ويوبا الاول وعرابيون • ولكن لكل بداية نهاية ولكل شيء جدة وبلاء • فانتهى عمر الممالك البربرية بانتهاء حيـاة عرابيون ووفاة بوكوس الثالث • وجاء يوبا الثاني وبطليموس بعدهما مجردين من الروح البربرية التواقة الى الاستقلال • فكان عصرهما عصر تثبيت لقدم السلطة الرومانية شمالا واقامة سد على الجهات

الجنوبية التي ربما تنبعث منها أشعة للحياة الاستقلالية بالجهات الشمالية •

حقا ان رومة كانت تعمل لاسقاط الملك البربري • وحقا ان تداخلها هو الذي اسقطه ، وحقا ان استمرار حياته — مع استمرار ذلك التداخل — امدا غير قصير مما يدعو الى العجب والتنقيب عن السبب • ولكن هل نعفي البربر من تبعة ذلك السقوط ؟ وهل تستطيع رومة ان تخرب ملكهم لو لم يخربوا هم أنفسهم بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم ؟

نرجع الى الصحائف السابقة نجد فيها جواب هذين السؤالين • ذلك أن تداخل رومة أخذ يتزايد في عصر يوغورطة واشتد بعده • وفي هذه المدة كانت ملوك البربر من أسرتين : أسرة نوميديا قديمة أسسها نرافاس ، وأخرى موريطانية مبلغ علمنا عنها أنها حديثة أسسها بوكوس الاول •

ومن الاسرة الاولى كان ابطال الاستقلال البربري • ومن وجد منها مؤيدا للرومان — مثل مستنابعل وهميصال الثاني — على الاحرار من جنسه لم نجد له ضررا كبيرا ولا أثرا عميقا في هدم الملك البربري • أما الاسرة الثانية فقد كان مؤسسها بوكوس عاملا في القضاء على يوغورطة ، وحفيده قتل يرباص ، وابناه اعانا قيصر وتسببا في انتحار يوبا الاول •

واذن نقول : ان على البربر تبعة سقوط تلك الممالك ، وهم الذين أعانوا الرومان على بلوغ غايتهم ، وان زعماء هذه الطائفة المارجة هم بوكوس وعقبه • غير أنا لا نقول : أنهم تسببوا في السقوط قصدا ، وأعانوا الرومان حبا فيهم وبغضا لجنسهم • ولكن نرى أن سياستهم مبنية على الجبن وخشية الرومان ، والطمع في بسط

النفوذ وسعة السلطان • أما خوفهم من الرومان ففي غير محله : لان البربر بوطنهم ومعاقلهم الطبيعية أمنع من أن تأخذهم أمة بالقهر والغلبة • وأما طمعهم في التوسع على حساب غيرهم فانما يحققه ويستفيد منه من جمع بين القوة والدهاء والشجاعة • وهؤلاء الملوك لم يكونوا كذلك • ولذلك استغل الرومان اعداؤهم الحقيقيون جهودهم ، وقضوا بهم وطرهم •

وقد جاء يوبا الثاني بعد سقوط الملك البربري ـــ وهو من الاسرة الاولى ـــ فكان عليه ان يعمل لتجديده وتحقيق ما كان يأمله سلفه • خصوصا وهو يعلم ان قيصر هو الذي قضى على حياة والده ، وقسم مملكته بين أعدائه ، وتربى في رومة ، ودرس تاريخها • ولكنه رجل انهمك في المعارف وانقطع للعلوم ووقذته الحضارة • فلم تكن له روح مصينيسا ومصيبسا التي جمعت بين العلم والمحافظة على القومية • ولذلك صار يرى لرومة فضلا عليه ان منحته بعض ما كان يرثه من أبيه • فخدمها باخلاص • وهيأ لها الوطن البربري كي يتولى ادارته بنوها من غير واسطة • فكان عصره ومدة ابنه خاتمة لذلك الملك وتتمة لذلك السقوط •

أقدم من عرفاه من ملوك بربر الجزائر نرافاس • وكان موجودا سنة (238) ق•م • وآخرهم بطليموس المقتول سنة (40) م • فكان عمر الممالك البربرية العظمى نحوا من ثلاثة قرون •

لم ننسب ملوك البربر الى قبائلهم لان الباحثين في هذا الدور من مؤرخي اليونان والرومان الذين أخذ عنهم مؤرخو الافرنج لا عناية لهم بالبحث في القبائل • وانما فعل ذلك مؤرخو العرب • وهم انما عرفوا البربر ودونوا اخبارهم وفصلوا قبائلهم بعد الفتح على عهد الاسلام •

والظاهر ان القبائل التي ذكرها ابن خلدون بأسمائها وامكنتها لم تكن قريبة العهد من الفتح العربي • بل هي كذلك من قديم • وعليه يمكننا ان نقول : ان أسرة نارفاس ـ ومنها أكثر الملوك ـ من قبيلة كتامة • اما صيفاقس وبيت بوكوس فلا يمكننا نسبتها لقبيلة من القبائل التي ذكرها ابن خلدون : لعدم تحققنا لموضع نشأتهما •

8 ـ ذكر العواصم الكبرى لملوك البربر

علمت مما سبق في هذا الباب ان من ملوك البربر من استولى على جميع التراب الجزائري بل على أغلب افريقية الشمالية ، ومنهم من استولى على بعضه ، ودخل الباقي في حوزة ملك آخر ، وقد بلغ أحيانا أن تقاسم هذا الوطن أربعة ملوك • لاجرم تعددت عواصمهم بتعددهم • ولكن لم نعثر ـ بعد البحث ـ الا على ما يلي من تلك العواصم :

1 ـ قرطة (CIRTA) • وكانت عاصمة نرفاس وأكثر الملوك من بعده • ولا نعلم تاريخ تأسيسها • ولكن من المحقق أن البربر أسسوها على عهد الفينيقيين ، وأطلقوا عليها ذلك العلم الفينيقي • ومعناه المدينة [1] فسرها كذلك اغسال •

هذه المدينة واقعة على جبل حجري مرتفع ، يحيط بـه وادي مساغا (وادي الرمل) من أغلب جهاته • وقد وصفها سترابون المؤرخ الروماني بأنها قلعة ممتنعة على من رامها • وذكر المؤرخ ابيان : ان

---

(1) بعض الكتاب يكتبها سرتا ، تبعا للنطق الافرنجي . ونحن اخترنا ان نكتبها قرطة ـ وان لم نر من كتبها كذلك ـ لان حرف (C) عربـه العرب قافا في مثل صقلية وقيصر وقالوا ايضا : قرطاجنة . وهي مركبة من كلمتين اولاهما قرطا . ومعناها ايضا المدينة .

مصيبسا حصنها تحصينا لا يمكن معه لاحد ان يفتحها عنوة • وقال البكري : ليس يعرف أحصن منها • ويدل لذلك ان يوغورطة عكف على حصارها مدة عامين • ولولا المجاعة ما وجد سبيلا لفتحها • والوندال لم يتمكنوا من فتحها ، وهم الذين فتحوا قرطاجنة ورومة • كما سيأتي •

استمرت هذه المدينة على عهد الملوك الاولين من البربر في تقدم ورقي من حيث التجارة والبناءات الانيقة والمعارف • فكثر روادها واتسع عمرانها ، ثم نقصت من قيمتها وعمارتها كثرة الفتن على عهد هيمصال الثاني •

ولما منحها قيصر لستيوس أخذت في النمو • وازدهرت في العصر الروماني بكثرة السكان وسعة العمران وفنون العرفان • وفي أوائل القرن الرابع للميلاد وقعت حرب بين قسطنطين ومكسنتيوس فدخلها هذا الاخير وعاث فيها فسادا بقتل السكان وسبيهم واحراق المدينة •

وبعد ان غلبه قسطنطين جدد بناءها ، وأعاد على الناس أموالهم ، ونشط الفلاحة • فعادت اليها عظمتها وعمرانها • وما زالت شمسها تبزغ وتأفل • وهي لهذا العهد كثيرة المباني واسعة العمران • كل سنة تزداد سعة • ولكن ما زالت لم تبلغ حدودها التي كانت عليها في العصر الروماني •

بقي لها اسمها الفينيقي حتى جاء ستيوس فدعيت « مستعمرة ستيوس » يريدون بالمستعمرة المدينة • واطلقت عليها اعلام اخر • ولكن كلها لم تزاحم اسم قرطة ولم تبلغ شهرته • حتى جددها قسطنطين • وكانت له اخت تدعى قسطنطان • فسمى المدينة باسمها • وعلق من ذلك الحين هذا العلم بها • وجر ذيل النسيان على ما

قبـاه • وقد خفف العرب هذا العلم فقالوا : قسنطينة • والعامة اليوم تقول قسمطينه •

قدر لهذه العاصمة الخلود • فلم تزل منذ تأسيسها الى اليوم عاصمة مملكة أو ولاية • وذلك لحسن موقعها وأهمية مركزها • مما يدل على حذق البربر وفضل اختيارهم في وضع عواصمهم •

ولم تزل هيئتها القديمة سـواء في أيـام عظمتها أو في ليالي انحطاطها الى أن جاءت الدولة الفرنسية فغيرت شوارعها • ورتبت ابنيتها على غير نسقها القديم • ولم يبق الا موضع قصبتها فانـه كان منذ الدور البربري القديم قصبة الملوك ودار الحكم • وبذلك ذهبت قيمتها التاريخية • واحتيج في استخراج هيئتها الاولى الـى جهود كبيرة • وقد رسم تلك الهيئة بارس في كتابه قرطة •

2 — صيغة • هذه المدينة كانت عاصمة صيفاقس قبل ان ينتقل الى قرطة • وهي في ساحل تلمسان على البحر الابيض عند مصب نهر تافنا فيه ، من المؤرخين من قال شرقية ، ومنهم من قال غربية •

وهي من مؤسسات الفينيقيين استولى عليها البربر فيما استولوا عليه من المدن الفينيقية بالسواحل • ولمـا استولى الرومان عـلى موريطانيا اتخذوها مرسى من المراسي التي تنقل منها الحبوب الى رومة •

وقد خربت وعفا رسمها • وذكر البكري[1] مدينة سماها أرشقول غربي مصب نهر تافنا • ووصفها بما يدل على سعتها وعظمتها • غير أنه لم يذكر ـ كعادته في المدن القديمة ـ انها أولية • فعلى ان صيغة شرقي تافنا تكون مدينة أرشقول غيرها ، وعلى أنها غربية لا يبعد ان

(1) المغرب 77 .

تكون أرشقول مؤسسة على انقاضها • ثم وقفت في تاريخ غروت على ان أرشقول هي صيغة •

3 — يول • هذه المدينة من المراسي الفينيقية • أسسها الفينيقيون • ثم دخلت أيدي البربر • وأول من اتخذها من ملوكهم عاصمة بوكوس الثاني • وعلى عهد يوبا الثاني بلغت مبلغا عظيما من العمران والحضارة • بني بها المباني الجميلة والقصور الانيقة • وآثارها تدل على عظمتها ، وعلى أن اليد التي شاد بها يوبا هذه المدينة يد اغريقية افريقية وليست رومانية • وقد اتخذت دار لحفظ تلك الآثار ، وصنعت تماثيل على نمطها نقلت الى متاحف أخرى من متاحف الآثار •

ولغرام يوبا بكافله اغسطس قيصر نسب هذه المدينة اليه تخليدا لذكره • فسماها قيصرية • وهذا نظير ما يفعله الاروبيون اليوم ، ويكثرون منه • فينسبون مدنا وشوارع وحارات الى عظمائهم • يفعلون ذلك بالاوطان التي استولوا عليها اعفاء لعظماء أهلها حتى يصبح المحكومون لهم وليس بين عينهم وفي آذانهم الا رجال غيرهم •

وتعرف هذه المدينة اليوم باسم شرشال • ولا أدري متى حدث لها هذا العلم ؟ غير ان البكري ذكرها بـه • وهو من أهل القرن الخامس الهجري •

4 — هبون • ذكر غروت انها عاصمة يوبا الاول • وقد اتخذها جنسريق الوندالي عاصمته قبل ان ينتقل الى قرطاجنة ، ثم كانت عاصمة بعض الامراء في العصر الاسلامي •

وهي من المؤسسات الاولى للفينيقيين التي يرجع تاريخا الى

اواخر الالف الثاني قبل الميلاد • وقد تصرف العرب في هذا الاسم فدعوها بونة • قال البكري : « ومدينة بونة أولية • وهي مدينة أقشتين (القديس أغسطين) العالم بدين النصرانية • وهي على ساحل البحر في نشز من الارض منيع مطل على مدينة سبوس • وتسمى اليوم مدينة زاوي • وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال • ولها مساجد وأسواق وحمام • وهي ذات ثمر وزرع • وقد سورت بونة الحديثة بعد الخمسين واربعمائة »[1] •

ولكثرة شجر العناب بها أطلق عليها مدينة العناب حتى صارت تعرف اليوم بعنابة •

هذا ما وجدنا من عواصم ملوك البربر القدماء منصوصا عليه • وهناك مدن كثيرة منها ما يحتمل ان يكون عاصمة لبعضهم مثل بجاية وسطيف • ولكنا لم نجد من صرح بأن واحدة منهما كانت عاصمة لملك من الملوك • ومما لا ريب فيه أن هناك عواصم غير تلك الاربع • فاننا نجهل عاصمة يوغورطة قبل ان يفتح قرطة ، ونجهل أيضا عاصمتي ماصنتة وعرابيون •

---

(1) المغرب ص 54 — 55



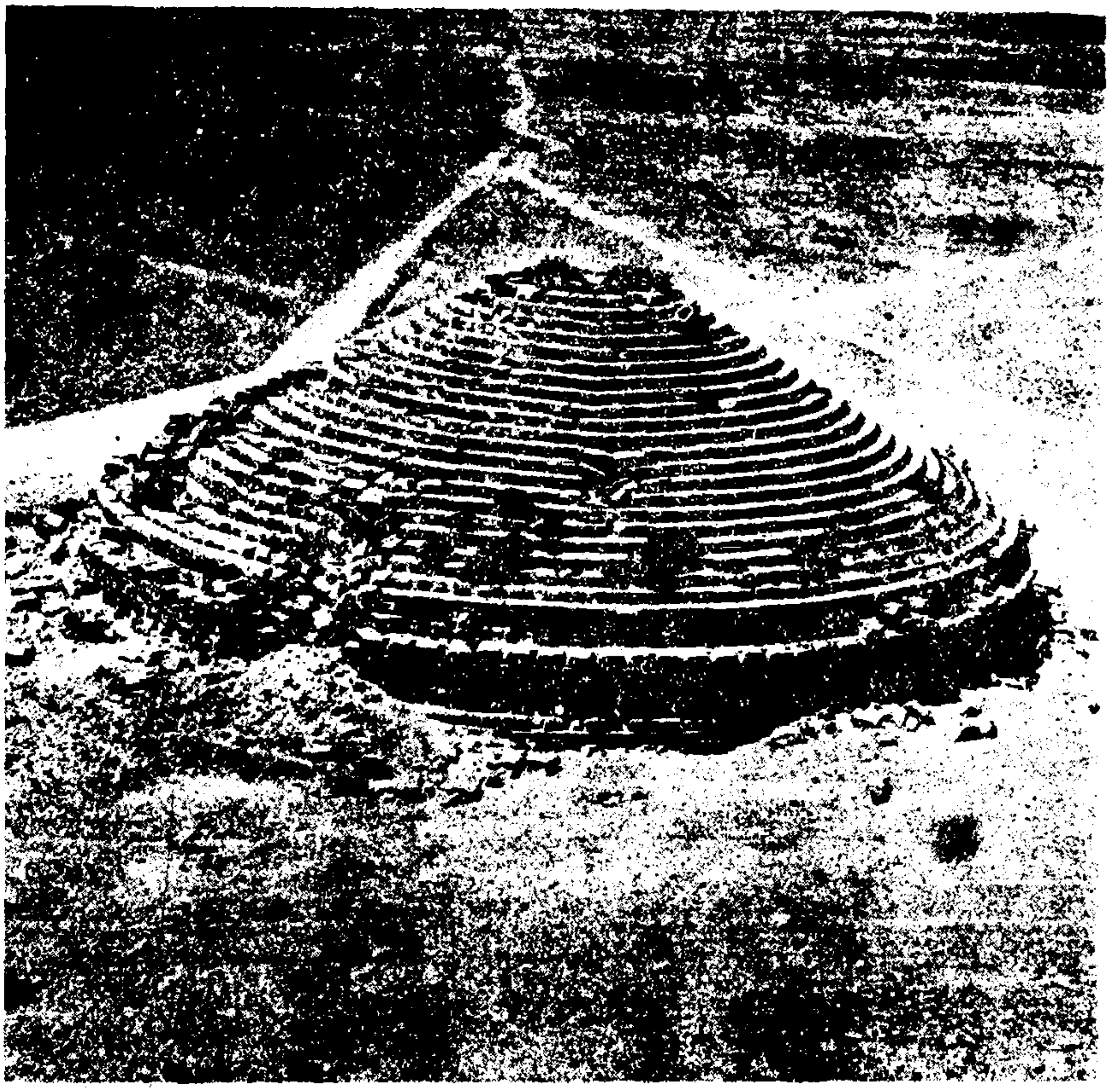
(ش – 21)

كليوباترا – سيلين



(ش – 22)

سوما ضروب مقبرة ماسينيسيا



(ش ـ 23)

المدرسان : قبر بربري واسـع محاط
والذي منه أخذ القبر شكل الهرم

الباب السادس

في ذكر الرومان وحكومتهم بالجزائـــر

١ ــ تمهيـــد

الرومان أمة من اللطتين ، ينسبون الى عاصمة دولتهم رومة • وهي مدينة مؤسسة وسط ايطاليا • أسسها ــ على ما يقول الرومان ــ روملوس سنة (753) ق•م •

وايطاليا جزيرة مستطيلة • الجهة الشرقية منها عديمة السهول والمراسي ، والجهة الغربية بخلافها ذات سهول وماس • وهي التي كونت تاريخ ايطاليا • أما جنوبها فقليل العمارة ، اتخذه اليونان مركزا ينزلون به في سفراتهم البحرية •

وهي متوسطة في العالم القديم : واقعة بين عالم الشرق المتمدن ، وعالم الغرب المتوحش •

وكان سكانها أهــل حراثة وقيام علــى المواشي • ثم تعلموا الملاحة والتجارة من بعد • وكان بها أمم مختلفة لا صلة لها بعضها ببعض •

وعلى أيدي الرومان تكونت الوحــدة الايطالية ، حيث أسسوا حكومة ملوكية ، اختلف في بدايتها • ودامت الى سنة (509) ق•م ثم خلفتها الجمهورية • وفي عهدها تمكن الرومان من حماية أنفسهم فمدوا أعينهم الى غيرهم من الامم قصدا للتوسع وسعيا وراء الثروة ولذة النفوذ •

حاربوا قرطاجنة معلمتهم المدنية حروبا طـوالا يشيب لهولهـا الولدان ، وانتصروا عليها أخيرا بما امتازوا به من نكث العهود وخيانة الشرف • وأخذوا في فتح البلدان واستعمار الاوطان ، حتى ملكوا جل المعمور في القرنين الثاني والاول (ق•م) • فبسـطوا نفوذهم عـلى افريقية الشـمالية تدريجا ، وعلى مصـر والشام واليونان ومقدونيا وجرمانية والغاليا والاندلس •

أصبحت دولتهم سيدة العالم القديم • واقتبسوا من الامم التي استولوا عليها أصول المدنية وأسـاليب الحضارة وفنون العلوم • وجروا في ذلك الى مدى بعيد ، حتى ان أروبا اليوم لم تزل تقتفي أثرهم في الاستعمار ، وتستمد من نظمهم وسياستهم ، وتبحث عـن أسباب فوزهم وعلل خيبتهم •

ولموقع وطنهم الجغرافي دخل كبير فيما بلغوه من عظمة وسـعة سلطان • وبعد الجمهورية جاءت الامبراطورية • فتمكنت من حفظ سيادتها على العالم الروماني ، حتى انقسمت أواخـر القرن الرابع للميلاد • ومن ذلك الحين أخذت المملكة الغربية تضعف وتتلاشـى حتى سقطت سنة (476) للميلاد • وذلك بما نال أهلها من بطر النعمة وسعة السلطان • فانغمسوا في الملاذ واشتغلوا بالملاهي • فضعفوا عن القيام بأعباء الملك • وقد قال كاتب روماني : « ان انتصارات رومة هي علة سقوطها » •

2 ـ اصـل الرومـان

كانت تقطن ايطاليا في فجر التاريخ أمم مختلفة • منهـا الغاليـا والاتروسك والاغـريق واللطين • وموطن اللطين بـين الاغـريق والاتروسك • وكانت هذه الامة متوحشة ، وأهل الجبال منها أصحاب

مواش ، وأهل السهول فلاحون • ومن هؤلاء الفلاحين ظهرت الدولة الرومانية •

وذكرابنخلدون : ان اللطين من يافث بن نوح • وذكر في أبناء يافث يونان وماغوغ • ثم اختلف نقله في نسبة اللطين الى يونان أو ماغوغ : فنقل عن اهروشيوش مؤرخ الرومان : « ان القوط واللطين من ماغوغ »[1] ونقل عن الاسرائليين ان يونان « كان من الولد أربعة • وهم : داوود بن واليشا وكيتم وترشيش • وان كيتم من هؤلاء الاربعة هو ابو الروم : والباقي يونان »[2] والروم عنده هم الرومان • وليس من فرق بينهما من حيث الاصل • وذكر في موضع آخر ليونان خمسة ابناء • وسماهم هكذا : « كيتم وحجيلة وترشوش ودودانم وايشاي »[3] • وفي النص الاول تحريف يظهر صوابه من النص الثاني • ذلك انه قال أولا : داوود بن واليشا • وقضيته ان يكون ابناء يونان ثلاثة فقط • وقال ثانيا : دودانم وايشاي • فايشاي هو اليشا ، ودودانم هو صواب كلمة داوود بن • وبذلك يتم عدد الابناء أربعة كما قال •

وكلمة ترشيش او ترشوش عنده قريبة من كلمة الاتروسك عند مؤرخي الافرنج • وهم يقولون : ان الاتروسك أمة مجهولة الاصل واللغة • فان صح حمل الكلمتين على أمة واحدة ــ كما يظهر لنا ــ كان الاتروسك اخوان اللطين • ويقربه الجوار • والله أعلم •

3 ــ تأسيس دولة الرومان

تاريخ ابتداء الدولة الرومانية غير واضح • قال ماليت .

(1و2) ج2 ص10 (3) ج2 ص184 •

والمؤرخون يعتمدون عـلى ما كتبه تيت ــ ليف (TITE - LIVE) الذي كان على عهد أغسطس قيصر متصلا بآخر حياة الجمهورية •

هذا المؤرخ ينسب تأسيس الدولة الرومانية الى روملوس باني رومة • وينسب روملوس ــ تبعا لاساطير الوثنيين ــ الى الآلهة • ويذكر في نشأته ونشأة أخيه ريموس خرافات ، أضربنا عنها صفحا لبعدها عن الخيال المستحسن ، وان لم يتفق مع الحقيقة •

وعد ماليت لرومة سبعة ملوك • خامسهم هو الذي أدخل الى رومة شعار ملوك الاتروسك : الجبة الحمراء والتاج والكرسي وسيف المملكة ، وسادسهم هو أول من تنبه الى طبقة الصعاليك • فادخل قسما منها في الجندية • وقد كانوا كمية مهملة • وطبقة الاشراف هي التي تقوم بجميع شؤون المملكة • وسابعهم ثارت عليه الامة • فالتجأ الى المعبد ، ولكنه قتل به •

وفي ابن خلدون تصريح بان رومـة أسسها روملوس • ولكن الدولة مؤسسة من قبله بكثير • وعد ملوكا تقدموا روملوس • ويظهر من كلامه ان الدولة أسست أثناء الالف الثاني (ق•م) • وذكر ابن كريون مؤرخ بني اسرائيل : انه جاء بعد روملوس خمسة ملوك • « اغتصب خامسهم رجلا في زوجه • فقتلت نفسها • وقتله زوجها في الهيكل »[1] •

فاتفق ماليت وابن خلدون على ان آخر ملوك رومة قتل بالمعبد • وبه انتهى الدور الملوكي • وذلك سنة 509 (ق•م) • وصار نظام رومة جمهوريا من ذلك الحين •

قال ابن خلدون عن ابن كريون : « واجمع أهل رومة على أن

---

(1) ج2 ص197 •

لا يولوا عليهم ملكا • وقدموا شيوخا ثلاثمائة وعشرين ، يدبرون ملكهم • فاستقام أمرهم كما يجب ، الى أن تغلب قيصر » [1] • وشكل الجمهورية يتألف من قنصلين وشيوخ •

1 — القنصل : ومعناه منفذ الاحكام • ينتخب لمدة عام • وللقنصلين رئاسة الجند ومجلسي الشيوخ والشعب • ولهما النظر في القوانين وعرضها على المجلسين • وهما اللذان يقيمان الاحتفالات الدينية • فهما رئيسان في الدين والسياسة •

2 — الشيوخ : يختارهم القنصل من رؤساء الاسر الشريفة • ومن اختير لهذا المنصب يبقى به مدة حياته • وبيد الشيوخ السلطة على الشؤون الداخلية والسياسة الخارجية •

ومن نظام الجمهورية انه في أيام الشدة يسمي القنصلان متصرفا يمنحانه النفوذ المطلق • فينفذ أحكامه من غير مراجعة مجلس الشيوخ • ويسمي لمدة ستة أشهر فقط •

وقد اتسعت ممتلكات رومة على عهد الجمهورية • فبلغت ولايتها سبع عشر : عشر ولايات بأروبا ، وخمس بآسيا ، واثنتين بافريقية •

لم تكن تقصد الجمهورية الرومانية الى التداخل في عوائد مستعمراتها ودياناتها • وانما تقصد منها الانقياد لدولتها واداء الضرائب لبيت مالها •

ولقد كان نظام الجبايات مضرا بالمستعمرات • فقد كانت الجمهورية تسند استخلاص الضرائب الى أعيان اغنياء ، يؤدون لها ما تريده • وهم يستخلصون من الامة ما شاءوا من غير مرحمة ولا شفقة • حتى أن المعدم يقرضونه بالفائض ليأدي لهم ما يطلبونه منه • وبهذه الصفة انتزعت املاك وافتقرت أسر •

---

(1) ج2 ص197 •

فشا الجور والارتشاء في جميع ولاة الرومان • واصبحت غايتهم الوحيدة هي الحصول على الثروة بأية وسيلة • ولم تتبق الوظائف مسندة الى مستحقيها • وحدثت برومة نفسها أهوال من تنافس العظماء • وصارت القوانين ضعيفة أمام ذلك كله •

ساءت من ذلك حال الامة • ولم تجد في الجمهورية ما يحسن حالها ويخفف من ويلاتها ، فاجتوتها ، وتواطأ على اجتوائها أهل رومة وأهالي الولايات التابعة لها •

وبينما الامة في انتظار الفرج لهذه الازمة اذ ظهر يوليوس قيصر • وحاول تغيير شكل الحكومة بجعلها امبراطورية • فقام في وجه الجمهوريون ، وانتصر عليهم بايطاليا ثم افريقية ثم الاندلس • ولما عاد من الاندلس سنة (45) ق•م سمي برومة متصرفا مستبدا مدة حياته فحارب الجمهوريين بالسياسة كما كان حاربهم بالسيف • واضعف نفوذ مجلس الشيوخ ، فصار مجلس استشارة فقط • وكان عددهم سبعين في نقل ابن خلدون عن هروشيوش أو (320) في نقله عن ابن كريون أو (300) على ما ذكر ماليت ، فاضاف اليهم يوليوس قيصر شيوخا من أهل الولايات التابعة لرومة • فبلغ عددهم (900) •

فرحت الامة بيوليوس قيصر لحسن ادارته وكفاءة ولاته • ولكن الجمهوريين كانوا ناقمين عليه • وتمكنوا من قتله في مجلس الشيوخ نفسه سنة (44) ق•م •

وكان الجمهوريون يظنون أن في ذهاب قيصر رجوع نفوذهم • ولكن الامة كرهت سياستهم ، وسئمت من الفتن التي كانت على عهدهم ، واستبشرت بقيصر ووجدت فيه بغيتها ، فزادها قتله نفورا من الجمهوريين •

وكان من قواد قيصر رجل يدعى انطونيوس ، وله شهرة ومحبة في قلوب العامة ، فقام على الجمهوريين ، وهيج العامة ضدهم • وكان لقيصر ابن أخ (أو ابن أخت) متبنيه يدعى اكتافيوس ، وكان بأثينا يتعاطى المعارف ، وهو حدث شـديد الحماس داهية في السياسة ، فتظاهر باللين للجمهوريين ، حتى ظنوا انـه يكون لهم عضدا على انطونيوس ، فأخذوا ينصرونه في خطبهم ، ويطعنون في انطونيوس وبعد أن توصل الى رئاسة جند كبير طلب الى الشيوخ أن يولوه قنصلا فامتنعوا •

كان انطونيوس ينتصر لقيصر كي يحل محله ، فلما ظهر اكتافيوس حسده ، وكادت الحرب تقع بينهما ، ولكنهما اصطلحا وضما اليهما ثالثا هو لبدوس ، وكان واليا على الغاليا ، اقتسم هؤلاء المملكة بينهم لمدة ثلاث سنوات ، ووافقت الامة على ذلك بالانتخاب العام ، وذلك سنة (42) ق•م •

ثم أن انطونيوس ذهب الى مصر التي كانت لـه ، واستهوته كليوباطر [1] فشغل بها عن الملك • وصار ينوي احداث مملكة شرقية يورثها ابناء عشيقته ، وبذلك زالت ثقة الرومان منه ، ولبدوس جعل رئيسا دينيا ، فبقي اكتافيوس يدير مملكة رومة وحده ، لا ينافسه الا انطونيوس صريع تلك الغانية وفاقد ثقة الامة •

نجح اكتافيوس في سياسته ، وأراد انطونيوس الظهور عليـه بالحرب ، فحاربه ولكنه لم ينجح فقتل نفسه سنة (30) ق•م وفعلت كليوباطر فعله [2] فاستراح اكتافيوس من عدوه ، ثم قضى عـلى

---

(1) يسميها ابن خلدون كلابطرة .

(2) وبموتها انقرض ملك آل بطليموس من مصر . وقد كان تولاه بطليموس الاول سنة (323) ق.م .

الجمهورية التي عاشت خمسة قرون ، وقال ابن خلدون : عاشت سبعة قرون •

في سنة 27 ق•م لفظت الجمهورية النفس الاخير ، وسمي اكتافيوس امبراطورا ، وتلقب اغسطس ، واستمرت الدولة الرومانية من عهده امبراطورية ، ومعنى امبراطور صاحب الامر •

والجزائر لم يستول عليها الرومان استيلاء عسكريا الا على عهد الامبراطورية •

4 ــ ديانة الرومان

للرومان آلهة عظمى عامة ، وآلهة صغرى خاصة بالاسر أو المنازل ، فكانوا يعبدون القوى الطبيعية والنار المقدسة والموتى من أسلافهم ، وعبادة الموتى هي العبادة الخاصة بالاسر ، ويعتبرونهم آلهة خير ما نشطوا لعبادتهم ، وقربوا لهم القرابين ، وان هم قصروا في ذلك انقلبوا آلهة شر ، ويمثلون أرواحهم في الديدان ، فيطعمونها الفول الاسود •

ومن آلهتهم العظمى جوبتير (كوكب المشتري) ، وهو إله المطر ، ومنها جونون ، وهي الهة النور والزواج ، ومنها منيرف ، وهو إله الفطانة ، ولهذه الثلاثة برومة معبد مشترك بينها ، ويعتقدونها حامية رومة •

وهناك آلهة للحرب والبحر والمعادن والفلاحة والتجارة والاخلاق وغير ذلك ، ويبلغ عدد آلهة الرومان مائة وستين الها •

أولئك الآلهة يستغيثون بها ويستعينونها في جميع شؤونهم • وهم أكثر الامم اعتناء بالآلهة ، فقد كان ببعض معابدهم ثلاثين الف

تمثال ، حتى قال أحدهم : « وطننا مملوء آلهة حتى أن وجود اله أيسر علينا من وجود رجل » •

ولم يكن للديانة الرومانية حقائق واصول للعبادة ، وانما كانت ذات أعمال مثل تقريب القرابين ، وغايتهم في العبادة الاستعانة على النصر أو الاستعانة لتصريف المصائب •

ولم يكن لآلهتهم أولا تماثيل ، ثم تأثروا بالاغريق ، فصاروا يتخذون لها تماثيل في صور بشرية •

وعلى كثرة آلهتهم اضافوا اليها آلهة أخرى مما وجدوه لدى الامم التي استولوا عليها ، فأخذا من آلهة المصريين وأهل آسيا الصغرى ، ولم يدعوا الها من آلهة الاغريق الاعبدوه •

وكان علماء الرومان يرون ان الارباب المختلفة باختلاف الامم ليست الا مظاهر لأصل رباني عام • لذلك لم يأنفوا من عبادة آلهة الامم المغلوبة لهم ، ولم يلزموها بعبادة آلهتهم • وقد اشتهر الرومان بالتسامح الديني والتساهل في شأن الآلهة •

5 ــ الحياة الرومانية

كانت الحياة الرومانية ــ منذ عرف الرومان الى القرن الاول للميلاد ــ حياة بساطة لا رفاهية فيها ، حتى ان من عظمائهم من كان يحرث بيده ، وأكثر أثاث عظمائهم بسيط وأوانيهم من خشب •

تمكنت روح البساطة منهم فلم تتغير حالتهم حتى بعد استيلائهم على الاوطان الكثيرة الغنية بنتائجها الراقية في حضارتها • فبقوا فلاحين أو جنديين أو سياسيين لا تجارا ولا فنيين ، وبقيت الصنائع والفنون بيد غيرهم من الاحرار والمماليك •

كان غرض الرومان من الحياة توسيع الثروة حبا في المال نفسه • ومن كلمات كاطون أحد عظمائهم : « ان مـن مات والفي بدفاتر حاصلاته انه ربح أكثر مما ورث فذلك ملهم من الآلهة »[1] •

ولكثرة اشغالهم وشدة عنايتهم بكسب الثروة صاروا أقل الامم حبا في الملاهي وابعدها عن التظاهر بالعظمة •

ملابسهم كانت خشنة : يلبس الرجل السراويل وقميصا سابغا بأكمام وبغيرها • ونساؤهم يكثرون من الحلي وضروب الزينة كصبغ الشعر وطلاء الوجه ، ويخرجن سافرات ، ويلبس كل من الرجل والمرآة خفافا غلاظا •

وللخاصة لبـاس يميزهم : الشـيوخ لهم قمصان ذات حواش حمراء ، والقضاة لهم خفاف حمر ، والاحرار لهم حلة مـن الملف الابيض ، وهي رداء غير مربع ، يبلغ طوله نحو تسعة أذرع •

ولم يزل الرومان على بساطتهم في اللباس حتى ان الامبراطور قليغولة غار من لباس بطليموس ملك موريطانيا البربري وبهت منه العامة ، وافضت الغيرة الى الانتقام بالسجن ثم القتل ، فمات بطليموس شهيد لبسته !

ومساكنهم كانت خشبية مطينة ، ثم ترقوا قليلا فبنوها بالحجارة ، ولم تكن لها نوافذ لعدم معرفتهم لصناعة الزجاج • وعلى خلوها من النوافذ كانت ضيقة متقاربة ، والانهج غير واسعة ولا منظمة ، والنظافة قليلة ، والضوء معدوم ليلا •

وكانت لهم بناءات عمومية ، وهي أرفع من بناء مساكنهم •

---

(1) ماليت ص330

لم يزل الرومان كذلك على بساطة حياتهم حتى فتحوا البلدان . واستولوا على الامم ، وأقاموا بين ظهرانيهم ، وطالت معاشرتهم لهم . اذ ذاك تأثر الغالب بالمغلوب وجاراه في حياة النعيم والرفاهية . وفي الحقيقة ان المغلوب لا يؤثـر في الغالب ، وانما أثرت تلك الامم في الرومان لانهم مغلوبون لها في العلم والحضارة .

أخذوا عن اليونان وأهل المشـرق الملابس الرقيقة . وزينـوا البيوت بالتماثيل والرخام والحجارة النفيسة ، وفرشوها بالزرابي . وأكثر ما تأثروا في حياتهم بالاغريق ، ومع ذلك لم يأخذوا عنهم فنهم في البناء . ولم تزل آثار البناءات الرومانية دالة على فقـد الذوق اللطيف للرومان . وهي تمتاز بأنها عظيمة ذات أقواس . بسيطة ليس فيها تحسين .

6 ــ الرومـان في افريقيـة

انتهت الحرب البونيقية الثالثـة بالقضاء عـلى مملكة قرطاجنة وتخريب تلك العاصمة وحلول الرومان محل القرطاجنيين ، فاستولوا استيلاء فعليا عـلى التراب الاصلي لقرطاجنة ، وأطلقوا عليـه اسم « مملكة الرومان بافريقية » وجعلوا على هذه المملكة أو الولاية واليا مقره عوتيفيه .

وهذه الولاية عبارة عما بين وادي توسكا (ناحيـة طبرقة) شمالا ، ومدينة تينة (جنوب صفاقس) جنوبا . وخطها الغربي من جهة نوميديا غير مستقيم فانه يمر من توسكا حتى يقترب من قفصة ثم ينحني حيث ينتهي في تينة قرب البحر . فهي عبارة عن جزء غير كبير من عمالة تونس .

ولم تكن تطمع الجمهورية الرومانية اذ ذاك في توسيع هذه

الولاية وبسط نفوذها الفعلي على الشمال الافريقي ، لعلمها بشجاعة البربر وحماسهم في الدفاع عن وطنهم ، وجهلها بدواخل هذا الوطن ، فاكتفت باعتراف ملوك البربر بالسيادة الاسمية ريثما تلين قناتهم ، وتضعف شوكتهم •

وكانت الجمهورية لما فتحت قرطاجنة بعثت عشرة من الاعيان لينظروا مع سبيون في مصير قرطاجنة ، فاتفق رأيهم على هدم ما أبقاه الحريق منها فتركوها قاعا صفصفا كان لم تغن بالامس ، ولعنوا باسم آلهتهم موضعها ، ولكنهم بعد قليل اضطروا لتجديدها •

وذلك ان ايطاليا ضاقت باهلها بسبب استحواذ طبقة الاغنياء على أراضيها وجلب العبيد لخدمة تلك الاراضي ، ويقال : ان عدد هؤلاء العبيد بلغ ثلاثة ملايين • وأصبح عدد عديد من الايطاليين لا اراضي لهم يستغلونها ولا عمل يشتغلون به ، حتى انه كان بروما أكثر من اربعمائة الف لا عمل لهم غير الجولان بالازقة •

وكان كايوس انتخب للمحامات عن الشعب سنة (123) فاقترح ــ لرفع هذه الازمة ــ ارسال جاليات من أولئك الفقراء من المال والعمل الى الولايات الرومانية •

وكان روبريوس من محامي الشعب ايضا فاقترح سنة (120) ق٠م ، تجديد قرطاجنة وارسال طائفة من فقراء الشعب لتعميرها •

قبل الشيوخ اقتراحه ، وعين كايوس لتنفيذه ، فجاء الى قرطاجنة بستة آلاف ايطالي ، ومكث في تجديدها ثلاثة أشهر ، وحينما تم تجديدها اطلق عليها اسم « جونونيا » تبركا باسم جونون وجعلت هي حامية قرطاجنة •

وكما ان هدمهم لمدينة قرطاجنة لم يذهب بها وحييت من جديد

كذلك تغييرهم لاسمها فان تسميتهم لم تزاحم الاسم الفينيقي ، وابى الله الا أن يبقي الاسم الاول هو المعروف المشتهر .

نهضت قرطاجنة من جديد وقصدها الرومان بالهجرة ، وانضموا الى بقية العساكر الرومانية التي استوطنت افريقية ، وبما انهم نسخوا القرطاجنيين وحلوا محلهم استفادوا من علاقـات القرطاجنيين مـع البربر ، فانبثوا في مدن الولاية الافريقية ونوميديا ، وانتصبوا فيها للتجارة والصناعة ، فتمكنوا بذلك في افريقية .

7 ـ استيلاء الرومـان عـلى الجزائـر

بعد واقعة طبسوس سنة 46 (ق.م) استعمر الرومان شـرقي نوميديا واطلقوا عليها اسم افريقية الجديدة أو نوميديا الحديثة ، ومنحت نوميديا الوسطى (قرطة والمـدن التابعة لها) لستيوس . واطلق عليها اسم « مستعمرة ستيوس » .

ولعل الرومان أرادوا أن يجعلـوا حكم ستيوس لنوميديـا الوسطى دور انتقال يسهل عليهم اضافتها الى مستعمراتهم من بعد ، ولكن عرابيون قتل ستيوس فحرم الرومان من هـذه المستعمرة . واصبحت من بعد ذهاب المملكة البربرية ولاية رومانية لها أنظمتها وادارتها ، متمتعة بالاستقلال حتى أن من المؤرخين مـن يعبر عنها بالدولة ومنهم من يعبر عنها بالجمهورية .

اما نوميديا الغربية (قسم سطيف) فقد بقيت بيد عرابيون البطل البربري . والظاهر ان رومة اضافتها الى مستعمراتها بعـد قتـله .

وأما موريطانيا الشرقية فقد بقيت بيـد امراء بربريين آخرهم

بوكوس الثالث المتوفي سنة 33 (ق•م) • وبعد وفاته ألحقها الرومان بمستعمراتهم ، وجعلت تحت نفوذ اكتافيوس مباشرة ، وأراد ان يغرس بها الحضارة اللاطينية ؛ ولكنه خشي شـدة شكيمة البربر ، فلم يعجل بتنفيذ برنامجه ؛ وتظاهر للموريطانيين باللطف والمجاملة حتى وجد رجلا من بني جنسهم ولكنه مخلص لرومة ، فولاه على موريطانيا سنة 17 (ق•م) •

هذا الرجل البربري الروماني هو يوبا الثاني الذي مهد وطنه لسادته الرومان وشجعهم على امتلاكه بعد ما حاولوا ذلـك منذ أزمان ، واشرأبت أعناقهم اليه فلم يقووا على تحقيق آمالهم فيه •

وهكذا لولا الخيانة الجنسية من بعض الرؤساء وضعف الغيرة القومية من الامراء ما حكم أجنبي وطنيا ولا ساد غريب أهليا •

في سنة (42 م) بعد قتـل بطليموس ألحقت موريطانية برومة نهائيا • وبذلك تم للرومان الاستيلاء عـلى الوطن الجزائري الذي شرعوا في تحقيقه منذ سنة 46 ق•م فكانت مدة سير استيلائهم ثمانية وثمانين سنة •

ومع بطء هذا السير فانه لم يكن ثابت القدم عاما على الوطن الجزائري فان الرومان لم يتقدموا لهذا العهد الى الصحراء ، وخط حدودهم يقترب من البحر كلما تقدم ناحية الغرب • وتوجد داخل الحد أماكن غير خاضعة لرومة منها جمهورية المدن الخمس : قرطة ، ميلوم ، روسقاد ، شولو ، قويقلوم • ولم تدخل في فوضى الاستعمار الروماني الا منذ انحل اتحادها أواخر القرن الثالث • ومنها القبائل الخمس (القبائل) الذيـن كان الرومان يسـمون وطنهم « جبل الحـديد » (MONS FERRATUS) .

ولم يتمكن الرومان من اخضاعهم الا سنة (297) • وأكثر البربر

الساكنين بالجبال لم يخضعوا لرومة . ومن خضع منهم لا يضيع فرصة الثورة مهما سنحت .

وخلاصة الكلام ان الرومان لم يستولوا حقيقيا على كل الوطن الجزائري رغم امتداد ايامهم به . وسترى ما ينير لك الحقيقة .

8 ـ حدود حكومة الرومان بالجزائر

كان من عادة الرومان أن يحدوا ما يفتحون من البلدان اما بحدود طبيعية أو صناعية : فيحدون بالجبال والاودية أو ببناء جدران أو حفر خنادق وجعل كثبان من الرمل أو التراب خلفها . وذلك اتقاء لهجمات الهاجمين وحفظا لمستعمراتهم ان تروج بها بضائع أجنبية وهم لا يشعرون .

وقد كان حد حكومة الرومان بالجزائر في القرن الاول للميلاد يمر شمال أوراس ويجتاز سهول سطيف ومجانة الى سور الغزلان ثم يتوسع قليلا فيمر بالبرواقية وساحل شلف ويجتاز وادي ميناس الى ناحية غليزان ووادي سيك . وفي غربي وهران يقترب جدا من البحر وينتهي بمصب نهر ملوية .

وبعد حين اضطر الرومان الى تقديم الحدود جنوبا ، وكانت لهم مراكز عسكرية على الحدود . وبعد سنة مائة بقليل تقدمت مراكز الحراسة الى الجنوب ، وأحاطوا جبل أوراس الممتنع عليهم بالحصون . ولم يتم لهم فتحه الا أواخر القرن الثاني .

وفي بداية القرن الثالث كان الحد الروماني مارا جنوب أوراس وشاطىء وادي جدي الايمن ثم يصعد شمالا فيمر وسط جبال الزاب ويقطع وادي الشعير حيث القاهرة ، والمظنون انه يمر بناحية بوسعادة

ويشتمل على الحضنة من جهتها الغربية ، ثم يذهب الى قرب سور الغزلان جنوبا ، ويمر ببوغار وتيهرت وتلمسان وللامغنية •

وقد يكون للحرس الروماني نقط حربية خلف الحدود ، وقد تقدموا بها في بعض الجهات الى الصحراء حتى أن منها ما كان على الاغواط بثلاثين ميلا •

ولم يدخل الرومان الصحراء الا في عمالة قسنطينة دخلوها من ناحية أوراس • أما عمالتا الجزائر ووهران فليس للرومان فيهما الا الجهات التلية المعبر عنها بموريطانيا القيصرية ، وبقيت الصحراء في منجاة من تسلط الرومان • ذلك لانهم أولا ليسوا بأمة صحراوية حتى يقدروا على فتح الصحراء أو تشتد رغبتهم في فتحها ، وثانيا لم تكن الجهات التلية خالصة لهم فلم يكونوا مطمئنين منها حتى يغرروا بانفسهم في الصحراء •

9 ـ جند الاحتلال

اعتمدت رومة في فتح الشمال الافريقي على ثلاثة أشياء :

1 ـ السياسة الملعونة : فقد كانت تذكي نار المنافسة بين ملوك البربر ، وتعمل لتفرقة المملكة الواحدة بين الامراء المتنافسين ، واضعاف الغيرة القومية بمحاربة ابطالها •

2 ـ الاستعانة ببعض البربر ضد الآخر : فان سياستها لما راجت على بعض رجال البربر من ملوك وأمراء صاروا يخدمونها ويعينونها على اعدائها أحباء الاستقلال • وكلما أرادت رومة رجلا بربريا يخدم مصالحها لم تعدمه ، لان الشعوب لا تخلو من خونة • فكان لرومة ملوك وأمراء بربريون مصافون لها أو مغترون بسياستها أو خائفون

من عظمتها . وقد استفادت رومة من سياستها تلك واعانة بعض البربر لها فوائد لا تقدر الجيوش الجرارة على تحقيقها ، بيد أنها لم تفز بها الا بعد أزمان لان مطامعها في الجزائر ابتدأت منذ عصر مصينيسا ولم تستول عليها ذلك الاستيلاء المثقوب الا بعد بطليموس .

3 — الجند الروماني : فان رومة مهما اضطرت للحرب جاءت بجنودها والجندي الروماني معروف باخلاص الطاعة والصبر على الاتعاب . ولم تحتج رومة في فتح الوطن البربري الى جيوش كثيرة لانها لم تجد أمامها جيشا منظما تنظيم جيشها الا في حرب زامة وحروب يوغورطة وتقفاريناص .

ولم تكن لتأمن وثورات البربر لا سيما واستيلاؤها على الوطن الجزائري غير عام ولا ثابت الاركان . فاتخذت حامية بتبسة تراقب البروقنصلية (تونس) ونوميديا (قسنطينة) ، وحامية لمراقبة موريطانيا الشرقية (الجزائر ووهران) وموريطانية الغربية (مراكش) .

أما حامية تبسة فتدعى « الفرقة الثالثة الاغسطية » نسبة الى اغسطس قيصر . وكان بها ستة آلاف جندي وفي رواية (5500) وهذه هي الفرقة الكبرى وهناك فرق أخرى مشاة وفرسان يبلغ جميعها نحو ثلاثة عشر الفا ، وهذه الفرق مدد لتلك الفرقة .

وتلك الفرقة الثالثة رومانية من خيرة جنود رومة ، وبها كثير من الغاليا ، وبعد حين صار الرومان يعلمون البربر ويجندونهم . ومنذ الثلث الثاني من القرن الثاني استغنت رومة بجنود البربر عن جلب الجنود من الخارج الى الفرقة الثالثة ، فصارت هذه الفرقة متركبة من جنود البربر وابناء قدماء الجنود الرومانية .

واما الفرق الصغيرة فكانت ايضا تجلب من الخارج ، وبقي الامر كذلك حتى بعد دخول البربر في الفرقة الثالثة .

وفي سنة (122) نقل الامبراطور هدريان مركز الفرقة الثالثة من تبسة الى لمبس . وفي أيام ديوقلطيانس صارت لمبس قاعدة عسكرية للجنوب النوميدي .

وبطول عهد هذه الفرقة ودخول البربر فيها وكثرة الاضطرابات بروما نقصت طاعتها لرومة ، وقد تعارض في امبراطورية بعض ، وتؤيد بعضا . والغيت سنة (238) وعوضت بالفرقة الثانية والعشرين .

وأما حامية الموريطانيين فكان عددها نحو خمسة عشر الفا . وهي من البربر المخلصين لرومة .

فمجموع جيش الاحتلال بتونس والجزائر ومراكش نحو (34000) ليس به من الجنود الرومانية غير نحو (8000) .

الجنود الرومانية تحارب وقت الحرب وتشتغل بالفلاحة حين السلم . يسمح القانون الروماني للجندي بالزواج ، وكانت لهم مرتبات حسنة . والمتقاعد يعطى كفايته ويسكن قرب المركز الذي كان به ، ويمنح اراضي وحيوانات يقوم بخدمتها ، ويعفى من الضرائب لكن بشرط أن يحل أحد من أبنائه محله .

وبهذه الطريقة أصبحت الحدود عبارة عن مستعمرات من الجند تحول دون غارات الهاجمين . وكان خط الحدود مقسما الى أقسام كل قسم تحت حراسة ضابط .

وفي حوالي سنة (200) اذن الامبراطور سبتمس سورس للجنود

بالبقاء مع أزواجهم خارج المراكز العسكرية بصفة مستمرة • فصارت تلك المراكز اما مواضع لتمرين الجند واما مختزنات للسلاح والمؤن •

ولحسن ذلك النظام في حفظ الحدود بقي الحد الروماني الذي بلغوه في القرن الثالث بحاله رغم الثورات المتعددة داخله • واستمر غير متأثر بما يجري داخل المملكة حتى سقط الحكم الروماني من الجزائر •

10 ــ النظام الروماني بالجزائر

علمت ان استيلاء الرومان على الجزائر كان تدريجيا وغير ثابت الاركان • لذلك لم يستقر النظام الروماني بالجزائر على حال •

كان ما أخذه الرومان من نوميديا ــ على عهد يوليوس قيصر ــ تحت ولاية سالوست • وبقيت نوميديا كذلك لها واليها غير والي البروقنصلية ، ومن هؤلاء الولاة سكستيوس نائب اكتافيوس ، واخيرا تغلب على والي البروقنصلية واضافها الى ولايته • ثم عزل على عهد اكتافيوس نفسه وجعل مكانه فانغو على نوميديا خاصة ، وولي هو على البروقنصلية ، فوقعت بين هذين الواليين معارك انتهت بانتصار سكستيوس وقتل فانغو نفسه • وأصبح هذا المنتصر هو الوالي الوحيد بجميع ممتلكات رومة بافريقية •

ثم في عهد امبراطورية اكتافيوس ايضا سمي يوبا الثاني على نوميديا • ثم نقل منها الى موريطانيا سنة (17) واضيفت نوميديا الى البروقنصلية وجعلتا تحت عامل يسميه مجلس الشيوخ •

وفي سنة (37 م) على عهد غليقلا تركت البروقنصلية على نظامها العتيق وجعلت نوميديا ذات وحدة ادارية يرأسها ضابط عسكري في

رتبة عضو بمجلس الشيوخ • وهذا الوالي يخاطب رومة من غير واسطة • وهو تحت نظر الامبراطور ويلقب ليغاتوس •

وفي سنة (42) قسم الامبراطور قلوديوس الجزائر الى قسمين :

نوميديا ، من طبرقة شرقا الى مساغا غربا ، وموريطانيا القيصرية من مساغا شرقا الى ماوشات غربا •

وجعلت موريطانيا القيصرية تحت نظر الامبراطور يسمي بها العمال ولهم تفويض في الادارة • وكان لنائب الامبراطور بموريطانيا القيصرية مرتبا يقدر بنحو اربعين الف فرنك •

وقد كان بالشمال النوميدي مدن مستقلة كما كانت جبال جرجرة ممتنعة عن الرومان • وفي سنة (297) بعدما انحلت الصلة بين هذه الجمهوريات ، وعمت بها الفوضى ، وتغلب ديوقلطيانس على جبال جرجرة حدث تغيير في نظام الحكومة الرومانية بالجزائر فقسمت الى أربعة أقسام :

1 — نوميديا القرطية (وهي الشمال النوميدي) قاعدتها قرطة •

2 — نوميديا العسكرية (وهي الجنوب النوميدي) قاعدتها لمبس •

3 — موريطانيا السطيفية (مابين مساغا وصلداي) قاعدتها سطيف •

4 — موريطانيا القيصرية (ما بين صلداي وملوشات) قاعدتها قيصرية •

ولما ثبتت قدم قسطنطين بامبراطورية رومة أحدث سنة (323) تغييرا في الولايات الامبراطورية ، فقسمها ثلاثة أقسام كبرى :

ولاية ايطاليا ، ولاية الغاليا ، ولاية المشرق • وجعل تونس

والجزائر تابعتين لولاية ايطاليا ، وتداران مــن طرف واليها المقيم بروما . وهذا الوالي تحتــه وزراء : وزير للمالية ووزير للاملاك الدولية ووزير للحربية ، وكلهم بروما ولهم نواب يمثلونهم بافريقية : فكان الوالي يمثله قنصل افريقية ، ووزير الحربية يمثله :

1 — كونت افريقية ، ولم 16 قائدا على الجنود المرابطة بالحدود الجنوبية والفرق المنتقلة (الكونت : عين من الاعيان) .
2 — دون موريطانيا القيصرية وله 8 قواد . وقد تكون بيد السلطة المدنية (دوق : شريف) .

ولم تكن هذه التقاسيم مبنية عــلى اعتبارات جغرافية ، وانما نظر فيها الى المصالح الحربية ، ولذلك تغيرت حسب الظروف .

وبما ان الاستيلاء الروماني لم يكن عاما فقد كانت المدن تنقسم الى قسمين : مدن تحت السلطة الفعلية للرومان ، ومدن لم تتمكن منها اليد الرومانية . والاولى كانت على ثلاث درجات :

1 — مدن رومانية : هذه معتبرة كوطن روماني ، أهلهــا يتمتعون بكل الحقوق الرومانية ، ينتخبون ومعفون من الضرائب .
2 — مدن بلدية (MUNICIPES) . هذه لها كل الحقوق الرومانية ما عــدا الانتخاب .
3 — مدن لطينية : لها حرية التجارة والتملك ، وليس لها حــق الانتخاب والاعفاء من الضرائب ، وانما هذان الحقان لخصوص المتقاعد من حكامها .

والثانية كانــت على ثلاثــة أقســام أيضا :

1 — مدن معتبرة حليفة للرومان .
2 — مدن حــرة .
3 — مدن معفاة من الخراج .

وهذه الاقسام للنوع الثاني من المدن تختلف ادارتها : فمنها ما هو محافظ على شكل الادارة البونيقية لها حكام وقضاة ومجالس من الاعيان ، ومنها ما هــو تحت رؤساء بربريين يعينهم الامبراطور ويمنحهم رداء يدعى « رداء الولاية » وقد يعطيهم اعانات ويوجب عليهم حراسة ما بجوارهم من الحدود • وقد تسمح رومة لبعض هذه المدن بانتخاب مجالس بلدية •

ورئاسة الرؤساء البربريين على بني جنسهم وراثية ويدعون اما عمالا أو أمراء ، وقد يلقبون انفسهم بلقب ملك •

اما المدن الرومانية فكانت تنتخب كل سنة حكامها • وهؤلاء الحكام يتصرفون في مالية البلدة ويقومون باصلاح القناطر والطرق والبناءات العمومية ويقبضون المغارم ويسهرون على حفظ الامن العام ويقضون بين الناس •

والى جانب الحكــام مجلس بلدي يعينهم ويراقــب أعمالهم ويشترط في العضو بهذا المجلس ان يبلغ ثروة محدودا أقلها قانونا ، وان يدفع للميزانية البلدية من ماله قدرا من المال • ولا مرتب له •

وأعضاء هذا المجلس ضامنون في مالية البلدة التي يتصرفون فيها • واذن فادارة المدن كانت بيد طبقة مثرية قليلة العدد •

وكان نطاق أكثر البلديات واسعا جدا : بلدية هبون (بونة) كانت تمتد غرب المدينة ثلاثين ميلا ، وشرقها خمسين ميلا •

وكانت للامبراطور ورجال من أعيان الشيوخ أملاك واســعة مستقلة عن تراب البلديات • يقوم بحفظ تلك الاملاك وكلاء عن اربابها • والوكيل على أرض هو الحكم على من بها والقائم بحفظ الامن فيها • ولسكان تلك الامــلاك نواب يختارونهم للدفــاع عن حقوقهم •

وبهذا تعلم ان الدولة الرومانية لم تكن تتداخل في ادارة شؤون الجزائر الداخلية ، ولا مكثرة من المتوظفين الذين لا فائدة فيهم غير اثقال كاهل الميزانية • بل انها تركت الدوائر البلديــة وشأنها تدير أمورها بنفسها ، ولم تتخذ مـــن الموظفين الا العـــدد القليل للقيام بالشؤون الهامة • وكان الوالي لا يتداخل ـــ بصفة قانونية ـــ في شؤون المدن الرومانية الا في الخصومات المدنية الهامة والجرائم ، فهو الحكم في ذلك ، وله مراقبة المالية •

11 ـــ جمهورية المـــدن الخمس

كانت قرطـــة عاصمة الملوك النوميديين منذ القرن الثالث قبـــل الميلاد • وقد اعتنى بها بعض أولئك الملوك فرقوها ترقية عالية •

ميلوم (ميلة) وروســـقاد (سكيكدة) وشـــولو (القل) وكويكلوم (جميلة) ، هذه المدن يقول عنها المؤرخ بلين : انها كانت أولا قلاعا حربية ، وأخـــذ عمرانها يتســـع حتى أصبحت في عهد طريانَاس امبراطور رومة (98— 117 م) شبيهة بقرطة •

وكانت هذه المدن تحت الملك النوميدي • وبعد واقعة طبسوس انفصلت تلك المدن الخمس عن بقية نوميديا حيث ان يوليوس قيصر منحها لستيوس يستعمرها بجيشه المتركب من الاسبان والايطاليان • واشترط عليه أن يقطنها الرومان • وفي أوليتهم من نصره في حرب افريقيه مـــن الجنود • ومـــن ههنا سماها بعض مؤرخي الرومان « مستعمرة ستيوس » •

انفصل من عهد ستيوس هذا القسم الواسع الخصب من نوميديا فلم يصر مرتبطا بها في السياسة والادارة حتى أن يوبا لما ولي على نوميديا لم يعرف له نفوذ بهذا الشمال النوميدي •

وقد كانت قرطة هي العاصمة لهذا الشمال ، وتلك المدن الاربع تابعة لها وجزء منها •

ومن القرى التي كانت تابعة لقرطة في النظام والحكم : ثيدي (الخنق) ، ارسقال (عين الكرمة) ، مستار (عين بني زياد) ، وزيلي (وجل) ، صدار (عين الباي) ، سيلة (سيقوس) •

وعلى القرى رؤساء منخرطون في سلك متوظفي قرطة ، وقد استقل بعضها على عهد سبتمس سويرس وخصوصا على عهد قراقلا •

وبعد استعمار الرومان لهذا الشمال النوميدي بقليل ظهرت تلك المدن الاربع بفضل انتشار العمران ، وأصبحت تضاهي قرطة • وأخذت نظاما داخليا مستقلا مع بقائها متعلقة بقرطة •

وكانت جميلة دون بقية المدن الاربع • بل قليلا ما تضاف اليهن • وسبب امتياز هذا الوطن عن بقية نوميديا واختصاصه بنظام صار به كمملكة مستقلة انه كان تحت رئاسة ستيوس ناصر قيصر ومغلبه على اعدائه الاقوياء الكثيرين •

وسبب اتحاد قرطة وميلوم وروسقاد وشولو انه حدث خلاف بين سكان هذه المدن الاربع على بعض الاراضي أيام أغسطس قيصر • وكان القرطيون قد أعانوه على عدوه ومنافسه انطونيوس ، فكانت لهم بذلك عليه يد • فلما رفعت صورة الخلاف اليه لم يشأ أن ينصف أهالي المدن الثلاث من أهالي قرطة ، ولكنه أصلح بينهم وعقد لهم محالفة رباعية ، وجعل لكل مدينة ادارة شؤونها الداخلية على أن يكون لقرطة فضل الاشراف على الجميع • فكل مدينة تضرب الضرائب وتجبي الغرامات وتصرفها في مصالحها ، ولكن رئيس قرطة هو

المراقب لاعمال سائر المدن ، ويساعده في بعضها مجلس بلدي ، وفي بعضها مجلس من المتوظفين حيث لم يكن لها حق الانتخاب •

وتدار هذه المدن المتحالفة على ايدي رجال تنقسم وظائفهم اربعة أقسام :

1 — الرجال الثلاثة (تريومفير) • لهم من النفوذ ما لقناصل رومة وينتخبون لمدة سنة فاتحتها يوليه • والمترشح يعلن قبل الانتخاب مباديه ، ويرأس جلسة الانتخاب من الرجال الثلاثة المنتخبين سابقا أكبرهم سنا • وهذا الرئيس ينظر في المترشحين واستيفائهم للشروط • ويعلن بقبول اجراء انتخاب المستوفي لها • ومن انتخب لا يقبل تسليمه •

والرجال الثلاثة يتولون قيادة الجيوش وفصل النوازل بأنفسهم أو بمن يقيمونه نائبا عنهم ، وبيدهم نظام الادارة بأسره ، وكونهم ثلاثة هو الغالب • وقد يبلغ عددهم أحيانا خمسة أو سبعة أو عشرة أو خمسة عشر أو عشرين • وهم اما من أعيان الرومان أو ممن كان قنصلا برومة •

2 — رجال الشرطة (الايديل) • وظيفتهم الخاصة بهم مراقبة البناءات العمومية والحمامات الدولية ودخلها والمحافظة على نظافة الشوارع وجلب الحبوب الى المدينة وتشكيل الحفلات ومراقبة الامن بالاسواق والموازين والمكاييل وتأديب المعتدين بالجلد أو بالتغريم •

ويرأس هذه الوظيفة رجلان يضع كل منهما خمسة آلاف ضمانا •

3 — وزير المالية • يقوم باستخلاص المغارم ، ويقدم لرجال الشرطة المال عند عروض داع اليه • وهو الرئيس الاعلى لادارة المالية • ولا يوجد ما يدل على انه كان ملزما بوضع ضمان عند توليته •

4 — العمال ، كانت وظيفتهم في بلدان الجمهورية ما عدا قرطة ، وهم بمثابة الرجال الثلاثة في قرطة ، والظاهر ان يكون منهم لكل مدينة واحد ، وينتقل العمال في المدن الثلاث من واحدة لاخرى ،

وهناك متوظف غير من سبق يلقب « كورتور » (CURATUR) يسميه الامبراطور ، وقوة نفوذه تابعة لقوة نفوذ الامبراطور في البلد الذي سماه فيه ، ولم يكن للامبراطور قوة في هذه الجمهورية الا بعد انحلالها ومجيء البيزنطيين ، فصارت وظيفته اخيرا قبض الخراج والقيام بجل الوظائف البلدية ،

وكما كان لسياسة هذه الجمهورية رجال كان لدياناتها أيضا رجال، وهم أقسام :

1 — القائمون على الهيكل بذبح قرابينه وتقديمه لناره ، واقدارهم مختلفة باختلاف عظمة الهيكل القائمين عليه ، ولا يكون القائم على الهيكل الا من بيت شريف ، ويعتبر هو وذريته وماله وقفا على خدمة ذلك الهيكل ،

2 — المراقبون للاعمال الدينية اينما كانت ما عدا القرابين التي هي أهم تلك الاعمال ،

3 — العرافون ، يتولون افراخ الدجاج لزجرها ومعرفة الحوادث الغيبية منها ، ويتفرسون أيضا في الضحايا ، نظير ما يوجد اليوم في بعض الافراد من خصوصية معرفة الحوادث بالنظر في عظام أكتاف الحيوانات ، فهي من بقايا الوثنية ،

4 — المرشدون ، يقومون بارشاد العامة الى وجوه عبادتها ، وكل كبير أسرة يعتبر مرشدا لاسرته ، وهذا في نفسه حسن ، فقد قال (ص) : « فالرجل راع على أهله وهو مسؤول عنهم » ،

ولعنايتهم بالسياسة عنايتهم بالدين كآنت دار الامارة حيث هيكل الاله العظيم « جوبتير » • ومكانها بموضع القصبة اليوم • وهي بذلك الموضع من لدن الملوك النوميديين •

قال بارس : « وهي معمورة بالذخائر • وقد وجدت قطع رخامية تشتمل على حصر تلك الذخائر ، عثر عليها عندما أراد الاتراك بناء قشلتهم[1] • وقيمة هذه الذخائر مناسبة لما كانت عليه قرطة من الثروة والرفاهية » • ثم أخذ في تعدادها • ولكثرتها اكتفينا بالاشارة اليها محيلين محب الاطلاع على أشخاصها على كتاب قرطة (CIRTA)

وقد كان السكان في هذه الجمهورية على طبقتين : أهل الحقوق وغيرهم • الاولون هم من كانت لهم حقوق أصالة أو وراثة أو منحتهم بلديتهم ذلك تشريفا لهم أو تبناهم أهل الحقوق أصالة • والاخيرون هم الاجاب الذين استقروا بوجه نهائي بمدينة من المدن • وهناك طبقة لا حقوق لها أصلا وهم الاجانب الذين يحلون بالمدينة حلولا مؤقتا من تجار وطلبة علم وعابري سبيل •

وفي كل خمس سنوات يعاد تقييد أهل الحقوق وضبط أملاكهم وتجديد النظر في المغارم •

وكانت الطبقتان كلتاهما تتحملان الواجبات البلدية على السواء • وتختص الطبقة الاولى بأن عليها واجبات :

1 — القيام بالبريد والطرق
2 — استخلاص الغرامات واداؤها •
3 — نفقات الوفود التي توجه الى رومة •
4 — ترميم المعابد البلدية •

---

(1) القشلة سكن الجنود . وليست عربية .

5 — التبرع على المشاريع البلدية ، مثل التمثيل • القائمون بهذه الواجبات متمتعون بالحقوق السياسية تماما • وينتخب منهم في كل عمارة عشرة • ثم يجتمع هؤلاء المنتخبون في مجلس أعلى يكون هو الممثل للامة ، فيتولى جميع شؤونها من تسمية وعزل • وأصحاب هذا المجلس أنفسهم على طبقات مرتبة حسبما يلي :

1 — طبقة الديكريون • يختارهم الحكام (الرجال الثلاثة) من أماثل المنتخبين •

2 — طبقة العظماء • وهم من كان عضوا بمجلس الشيوخ أو قائد جيش بلغ درجة تسمح له بالركوب •

3 — لجنة الاعضاء الخمسة • وهم من كان له مرتبة أهل الطبقة الثانية غير انه لم يكن من العظماء السادة •

4 — العرافون •

5 — رجال الشرطة •

6 — أمناء المال البلدي •

ويشترط فيمن يكون عضوا بهذا المجلس زيادة على كونه من أهل الحقوق :

1 — أن يكون نظيف السيرة •

2 — أن يكون ذا مال يختلف تقديره حسب القانون الاساسي •

3 — أن يكون عمره (30) سنة ثم خفض الى (25) •

وظيفة الديكريون يمنحها صاحبها طول حياته ما دام حائزا على شروطها • وعددهم غالبا مائة وقد يزيد أو ينقص • ومنهم قسم يحافظون على الاعمال الدينية وعددهم اربعة عشر •

ولكون هذه الطبقة أعلى طبقة بالمجلس لا يصح شيء من أعماله الا بحضور عدد منهم • وأعمال هذا المجلس هي :

1 — تسمية المتوظفين على اختلاف طبقاتهم بعد انتخاب الامة •

2 — منح لقب « مولى » (السيد) لمن كانت له أعمال جليلة اشتهر بها •

3 — تهيئة أعضاء الوفود التي ترسل الى رومة للاعراب عن جور بعض الولاة •

4 — تعيين من يرأس جمعية الديانات الاجنبية •

5 — تجهيز الجيوش عند الاقتضاء •

6 — تعيين مقادير التبرعات الدينية •

7 — تحديد مقادير الضرائب البلدية •

8 — تنظيم الحالة الماليـة •

9 — محاسبة من كلف بشأن عام من طرف المجلس •

10— تعيين لجنة تشتغل ببيان دخل المدينة وخرجها •

11— النظر في البناءات هدما وتعميرا •

12— الامر بمطالبة من هو مدين للمدينة •

13— تعيين أيام المواســم •

14— الامر بالالعاب العمومية مع تكليف من يتولى تنظيمها •

15— الحكم النهائي فيمايتعلق بتحرير الارقاء وأرش التعديات•

16— امداد أهل الوظائف الخاصة بالنفوذ •

هذا نظام جمهورية المدن الخمس السياسي والديني ؛ قال بارس (VARS) في كتاب قرطة : « وقد كانت قرطة قرار نظام كاد يكون منفردا في امبراطورية رومة » • وكانت علاقة هذه الجمهورية مع امبراطورية رومة أشبه شيء بعلاقة الحامي مع المحتمي بأشرف معنى للحماية • بل عبر عنها بعضهم بمملكة • وكان مبعوثوا الامبراطور للتجول في هذه الجمهورية واستطلاع أحوالها لا يتخذون شـعارا

---

(1) ص4 •

يميزهم . ولم يكن للامبراطور يد في نظام هـــذه الجمهورية الداخلي مدة اتحادها .

ونحسن هذا النظام عاش السكان تحته عيشـــة راضية وترقى الوطن ترقيا عظيما وارتفع شأنه في الحضارة والعمران . وتقدمت به العلوم والفنون والآداب . ونحن نثبت أبياتا قالها صائغ بقرطة لتنقش على قبره وهي باللطينية ، وهاك تعريبها من غير تصرف :

« أنا المستحيل علي الكلام الآن أقص عليك حياتي في هـــذه الابيـــات :

تمتعت طويلا بالضوء النير وكنت « برسليوس » الصائغ بقرطة

صفاء طويتي يضرب به المثل وكنت دائما صادق القول

كان ما عندي للجميع ومن ذا الذي لم أشفق عليه

دائم الابتسام تمليت دواما مع أحبائي في حياة مترفة

وبعد وفاة العفيفة الصاحبة « فليريه » لم أجد مثلها

واحتفلت ــ بكل احترام ــ مائة مرة بعيد ازديادي

ولكن أتى اليوم الاخير الذي فيه تغادر الروح الجثمان البالي

وهذه الكتابة التي أنت قارئها قد هيأتها أثناء حياتي لماتي

التي أتاحها لي الحظ . وطالما رافقني ولم يهملني

فاقف أثري واتل سبيلي على ما كانت عليه ثم ائتني فها انا ذا منتظرك هنا » .

بلغ الناس في هذه الجمهورية مبلغا عظيما من البذخ والرفاهية حتى حدثت قرى صغرى وطلبت نوعا من الاستقلال . فاعانها على

ذلك قياصرة رومة تفريقا للكلمة وحبا في النفوذ والاستبداد بالحكم وكان رجال الوظائف بعكس العامة ذهبت ثروتهم بسبب ما كان يثقل كاهلهم من النفقات البلدية •

فوجد قياصرة رومة في بذخ العامة وفقر الموظفين سبيلا للتدخل في اشقاء هـذه الجمهورية • فصاروا يفرقون كلمتها بتلبية طلبات القرى الطامحة الى الاستقلال • ويضعفون نفوذ مجلس الامة بتعيين الموظفين القيصريين مكان من عجز من أهل الوظائف البلدية عن القيام بمأموريته لفقره حتى اضمحل المجلس ووزعت أعماله علـى نواب القياصرة وعمالهم •

وكان انحلال الاتحاد بين المدن في القرن الثالث • فان ميلوم كانت تنازع قرطة في سيادتها وتجارتها في عظمتها حتى استقلت عنها وضمت اليها روسقاد وشولو • وآخر من تولى رئاسة هذه المدن الثلاث رجل يدعى كمودس (COMMODUS) أصله من ميلة وكان أحد الرجال الثلاثة بقرطة أيام اتحاد المدن •

فلما استقلت ميلة عن قرطة وجمعت اليها تينك المدينتين تولي هذا الرجل رئاسة المدن الثلاث بميلة •

بعد انحلال ذلك الاتحاد وتداخل اليد القيصرية ساءت الاحوال ونقص العمران وارتفع الامن • وما أصدق قوله تعالى : « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة • وكذلك يفعلون » وبقيت قرطة لحصانتها محافظة على عظمتها حتى أن الوندال لم يقووا على فتحها •

وكان بها كنيسة عظيمة للمسيحيين تخرج منها قسوس كثيرون منهم دنتوس الذي أحدث في المسيحية مذهبا نسب اليه وضاد به الكنيسة الكاثوليكية وفاز عليها في جميع التراب الجزائري •

بقي لقرطـة اسمها واستقلالها حتى ذهب الاثنان عـلى يـد قسطنطين سنة 312 ٠

12 ـ الحيـاة الرومانيـة بالجزائـر

كان بالوطن الجزائري على عهد رومة طائفة من الرومان الا أنها قليلة ، ويوجد به عدد من الاجانب غير الرومان الا أنه قليل جدا ٠

قال بيروني : يوجد بافريقية في سنة (200) نحو 200 أو 250 ألف روماني ٠ وفي سنة (400) تقريبا بلغ عدد الرومان نحو مليونين أو مليونين ونصف الى ثلاثة ملايين ٠ وهذا أكثر احصائية للرومان بافريقية » ٠ واحصاء بيروني هذا يريد به رومان طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ٠ ومعلوم ان الاستعمار الروماني كان بطرابلس وتونس أوسع دائرة وأثبت قدما ٠ وكلما تقدم الى الغرب ضاق نطاقه وقل تأثيره ٠ واذا نقول ان حظ الجزائر من ذلك الاحصاء قليل ، وهو بعمالة قسنطينة أكثر منه بعمالتي الجزائر ووهران ٠

قرطة كان بها عدد من الايطاليان من عهد مصيبسا ٠ ولما استولى ستيوس عليها وما يتبعها من الشمال النوميدي ترك بتلك النواحي جنودا بعضها من ايطاليا وبعضها من اسبانيا ٠ وقد علمت ان يوليوس قيصر اشترط عليه أن يفتح أبواب مملكته في وجه الرومان ومن كان معه في حروب افريقية ٠ ولمـا اعتلى عرش رومة اكتافيوس الملقب أغسطس وجه جاليات من الرومان الى موريطانيا : بعضها الى قرطنه (تنس) وبعضها الى رسقونيا (مطيفو) وبعضها الـى روصازو (أزفون) وبعضها الى صلداي (بجاية) والى أجلجي (جيجل) والى زكبار (مليانة) والى تبوسكتو (تكلات) ٠ ثم أرسل الى هذه المدن عساكر أكثرهم ايطاليون ٠

وعلى عهد قلوديوس (41ـ54) ووسبسيان (69ـ79) أو نربا (96ـ98) تكونت جاليات أخر من قدماء الجند في « أبدوم نقوم » (المدينة الحديثة وهي وادي الدفلى) وفي مدوروس وفي سيطيفس •

وقد كان أكثر الرومان بالجزائر من ابناء قدماء الجند •

علمت سابقا أن الحياة الرومانية بايطاليا كانت في غاية البساطة والسذاجة : شظف في العيش وتقشف في الملبس وكد في العمل • وقد نقلنا لك ــ الفصل الخامس ــ كلمة كاطون منهم فيمن يوجد بتركته انه ربح أكثر مما ورث • وفيها ترى شدة عنايتهم بالثروة وعجز وطنهم عن الوفاء برغبتهم ، حتى صار يرى هذا الرجل ان سعة الثروة المكتسبة ليس لها طريق يفضي اليها البشر بفكره ، وانما ذلك الهام من الالهة خارج عن متناول العقول البشرية •

ان أمة هذه حالها لجدير بها ان تترامى على الاوطان الخصبة بكل ضراوة ، وخليق بها أن تجد في تلك الاوطان ليل نهار لتثأر من الثروة التي عزت عليها في وطنها •

لذلك لما حل الرومان بالجزائر استولوا على كثير من الاراضي وقاموا بخدمتها أحسن قيام فمنحتهم أحسن النتائج ، فراشوا بعد الفقر وبذخوا بعد الشظف وأصبحت الحياة غير الحياة •

بنوا المنازل الشاهقة ووسعوا نطاق المدن التي حلوا بها • فكانت قرطة تشتمل على مدينتين : داخلية يحيط بها سور ، وخارجية وهي أوسع نطاقا • ومساحتها تمتد غربا الى جنان الزيتون ومقبرة الاسلام ، وجنوبا غربيا الى قشلة باردوا ، وشمالا الى ضفة وادي الرمل الشمالية • قال بارس : « وذكر أبطات قديس ميلة : انه كان ملاصقا لقرطة حارة عظيمة تدعى «موغاي» • والظاهر انه المعروف اليوم بسيدي المبروك ، وتمتد هذه الحارة الى ناحية المنصورة » ،

الى ان قال : « وبضواحيها نزلات متقطعة • وقد عثر على آثار بعضها بناحية الحامة » •

وقد مر أن ميلة والسكيكدة والقل وجميلة كانت قرى صغيرة ، ثم أصبحت مدنا عظيمة • ومن القرى التي عظمت على عهد الرومان وصارت مدنا : باغاية ، مسكولة (خنشلة) لمبس ، تمغادي ، فتيرانروم (ديانة قدماء الجند) لمصبة (بالشمال الغربي من أوراس) جميلي ، باديي (بادس) •

والمدن التي كانت بالخط الصحراوي انما رفع عمرانها الجند ، لان الجندي الروماني اذا لم تشغله الحرب فهو عامل نشيط •

والغرض من تأسيس المدن قرب مراكز الجنود المرابطة على الحدود المحافظة على تلك المراكز وتأمينها من روعات الهجمات الصحراوية •

والمدن الرومانية تنقسم خمسة أقسام :

1 — المدن البحرية وهي تجارية •

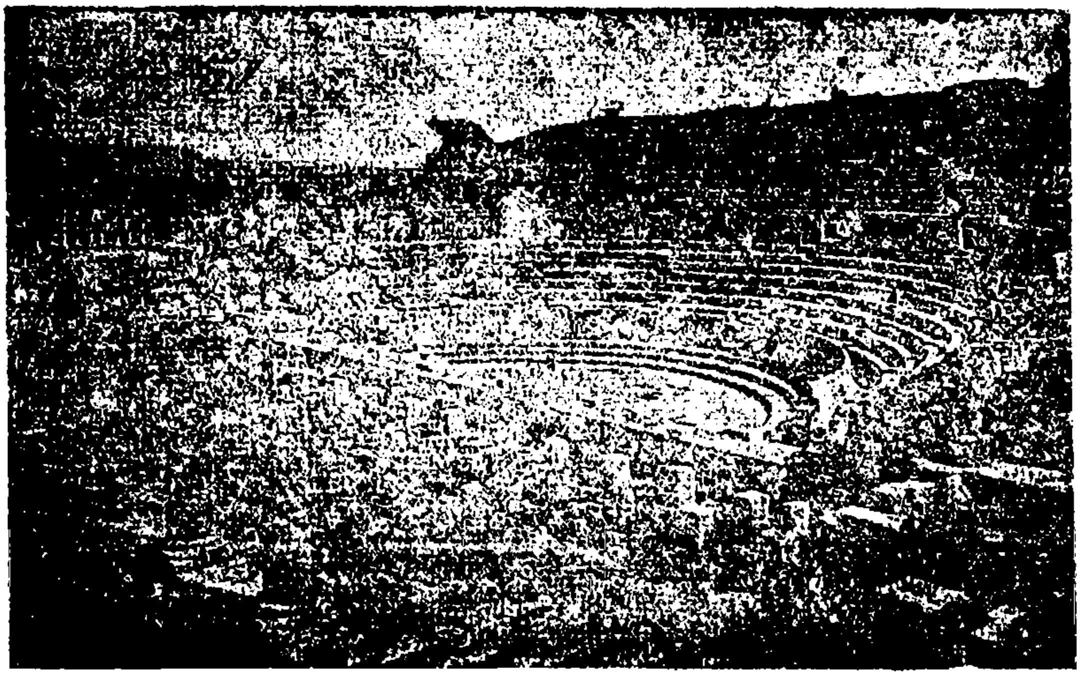
2 — المدن العسكرية يسكنها الجنود ، ولها أزقة واسعة •

3 — المدن الفلاحية ، أكثر من يسكنها البربر العملة في أراضي السادة الرومانيين •

4 — عواصم أولية وثانوية ، سكنها كبار الولاة ، وبناؤها أفخم وخيراتها أكثر وعمرانها أوسع •

5 — مدن النزهة ، وهي لاصطياف الاسر العظيمة • ومن هذه المدن جميلة • قال بيروني : كانت المدن الرومانية على غاية من الرقي في الحياة والعمران • تيمغادي كان بها من السكان (35) الف : وأكثر المدن يبلغ عدد سكانه نحو عشرة آلاف ، أو خمسة أو ستة الى ثلاثين الفا • كل ذلك على سبيل التخمين • ولكل مدينة هيكلها

الوثني أو كنيستها المسيحية • ولها أسواق وحمامات • ومنها ما فيها المراسح للتمثيل والملاعب لمصارعة الحيوانات الضارية •



(ش — 17)

مسرح تيمفاد

والبريد سائر بين المدن • ومواقع المدن يراعى فيها وجود الماء ومناعة المكان •

المباني الرومانية ممتازة بالعظمة غير أنها خالية من الدقة وجمال الفن • وفي كل مدينة ساحة عمومية للاجتماع تدعى : « الفوروم » •

وكان من عادة الرومان اذا أرادوا تعمير مكان خطوا به خطين أحدهما من الشرق الى الغرب والآخر من الشمال الى الجنوب ، ثم يجعلون شكلا مربعا حول نقطة التقاء الخطين ، ويتخذون ذلك المربع ساحة للقرية (فوروم) • ويحيطون هذه الساحة بدكاكين وأقواس جميلة • والساحة هي المحل الذي تقام فيه الحفلات وتجري بـه الانتخابات وتقرأ به على الامة القرارات •

ومن محال الاجتماع عندهم الحمامات • ولهم عناية بها • قال بارس : « وكان بقرطـة قرب دار الامارة التي هي المعبـد العظيم حمامات عظمى• عرف آثارها سائح انكليزي ووصفها وذلك سنة 1742 وماء الحمامات معدني » •

ومن المباني التي يعتنون بشـأنها المراسـح والملاعب والهياكل الدينية • قال بارس : « وكـل طريق توصـل الى كنيسة محفوفة بالتماثيل يمينا وشمالا ، علاوة على ما في الكنيسة » • وقـد عبث الدهر بتلك المباني الرومانية على عظمتها • فلم يبق منها غير خرابات أكثرها مستور بطبقات التراب • قال غروت : « ولم يزل الباحثون يستكشفون مدنا تدهش أهل القرن العشرين » •

13 ــ الحيـاة البربرية تحت السلطة الرومانية

مر بك في الباب الخامس ما ينير أمامك الحياة البربرية قبـل الاحتلال الروماني ويكفي المعلم بسعادة البربر اذ ذاك أن تعلم أنهم مستقلون ، ورومة تخطب ود ملوكهم وأمرائهم •

اما بعد الاحتلال الروماني فان الحياة البربرية تختلف درجـة سعادتها ودركة شقاوتها على نسبة النفوذ الامبراطوري : فالجهات التي يضعف فيها ذلك النفوذ أو ينعدم تكون سعيدة ، والجهات التي يتمكن منها تكون حياة البربر بها حياة العبيد •

قال بيروني : « ان الادارة الرومانية لم تكن متحدة في جميع المستعمرات ولا في أقسام افريقية نفسها ، وذلك لاختلاف أنظـار القياصرة في التشريع وفيما يناسب نفوذهم على الطائفة التي تحت حكمهم » •

انتزع الرومان من البربر جل أراضيهم وأثقلوا كاهلهم بالضرائب وأدخلوهم في الجندية ولم يحفلوا بحقوقهم الطبيعية •

1 — أما الاراضي البربرية فانها في الاصل اما مملوكة لملوك البربر واما مملوكة للشعب • فلما جاء الرومان أخذوا كل ما كان مملوكا للملوك والامراء • فاختصت الحكومة ببعضه ، ووزعت بعضه على الرومان الاصليين ، ومنحت بعضه قدماء الجند • وما كان مملوكا للشعب بقي لاربابه مع ضرب الخراج عليهم •

ومن ثار عليهم منهم انتزعت أملاكه وتصرفت فيها الدولة بوجه من الوجوه السابقة • وبطول المدة استولى الماليون من الرومان على أراضي البربر • ومن الرومان من كانوا يكترون من البربر الى آجال ، ولهم أن يجددوا عند انتهائها ، وبفضل العدل الروماني كان المكتري الروماني أسعد من المالك البربري • قال بيروني : « والمالك الاهلي انما هو عامل مجبور على العمل طبعا لا قانونا • وحالة العملة سيئة جدا لا تنصفهم الحكومة في شيء » •

ولكل أرض عدد من العملة يبتاعون معها • والرومان يعتبرون سادة لهم • وبطول الامد أطلق عليهم لقب « مماليك » •

وقال غروت : « ان الرومان ألزموا البربر بالعمل في أراضي المعمرين تحت قوانين ثقيلة » •

2 — واما الضرائب فانها من أهم مقاصد الاستعمار الروماني ، وهي ــ وان كانت مختلفة المقادير ــ متحدة في كونها فادحة • وتنقسم أربعة أقسام :

1 — الاداء الشخصي : وهو واجب على الرجل والمرأة • ومقداره مختلف •

2 — الاداء على العقار : وهو اما عين أو حبوب • وفي الغالب يكون العشر من حاصل الفلاحة • حتى ان الجابين يسمون العشارين•

3 — الاداء على التجارة الخارجية : وهو واجب على السلع المنقولة من عمالة الى أخرى •

4 — سخرة ادارية : منها تموين الجند واسكانهم • وقد تكون منها كسوة بعض رجال الشرطة •

وكانت الدولة الرومانية لا تتولى استخلاص الضرائب ، وانما تسندها الى أعيان يتولونها ، هؤلاء المستخلصون كانوا يسمون « العشارين » تتفق معهم الدولة على مقدار يؤدونه لها من مالهم ، ويجبون من الاهالي ما يشاؤون • ولهم جنود يستعينون بها على قبض الضرائب حتى انهم في خروجهم للاستخلاص أشبه شيء بالخارج للغزو •

ولقد كان ضرر العشارين بثروة الشعب فادحا جدا وأشهر أبطال الضرر الخراجي الامبراطور غلاريوس • فانه زاد في الضرائب على الاهالي • قال مرسيي : « فصار يقيد اسماءهم ذكرانهم وأناثهم وصغارهم وكبارهم ، ويضبط أموالهم • واتخذ لذلك الجواسيس حتى صارت المرأة تسعى بزوجها والولد يسعى بوالده • فتغيرت لذلك قلوب البربر عليه • ولم يبق له صديق غير الجنود لكونهم معفيين من الضرائب » •

3 — واما التجنيد فقد كانت رومة تجند من البربر وتنقلهم خارج وطنهم : تنقل فرسان نوميديا الى أروبا الشمالية (المجر ، جرمانيا . بلجيكا) ، وتنقل المشاة الى ضفاف النيل • ترسل جنود البربر الى الخارج وتأتي الى الوطن البربري بجنود أجنبية • ومنذ أواخر القرن الثاني استغنت بجنود البربر المقيمين في افريقية عن

الجلب من الخارج • وعندما تدعو الضرورة الى الاستزاد في الجيش تطلب الحكومة من رؤساء البطون البربرية مددا نظير ما يعرف اليوم « بالقــوم » •

4 — واما الحقوق فقد كان الرومان ـ ســواء القادمون من ايطاليا أو من مستعمرات أخرى ـ لهم التفوق المطلق على جميع السكان ، والبربــر عندهم متساوون في فرض طاعة رومــة عليهم واعتبارهم ـ كوطنهم ـ أداة لسعادتهم : يستغلون أرضهم الخصبة وابدانهم القوية • فكل ما كان للرومان من خدمة الاراضي للفلاحة وضخامة البناء للفخفخة والنزهة فهو على حساب الجهود البربرية •

وكانت حالة البربر على عهد الجمهورية أتعس منها عــلى عهد الامبراطورية • ذلك بان الجمهورية كانت في آخر دورها ، فالولاة انما كانــوا يعملون لانفسهم لا للدولــة ، فتضاعف جورهم وكثر تعديهم •

وفي عهد الامبراطور طريانس (98ـ117) كــان الولاة بافريقية يبيعون الحق بالاثمان وفشا فيهم الجور ، ذلك بان هذا الامبراطور كان مشتغلا بحروب بعيدة عن افريقية • ضج الاهالي من سوء سيرة الولاة ورفعوا عقيرتهم بالشكوى الى رومة • وكان بها علماء أهل انصاف فأيدوهم وحكموا بأحقية مطالبهم • ولكن الحكومة لم تقض بغير عزل والي افريقية مريوس برسكوس •

وفي سنة (193) تولى سبتموس سويرس أمبراطورية رومة • وهو بربري أصله من طرابلس • فاعتنى بافريقية كثيرا وترك بها آثارا لم تزل الى اليوم • وكانت حاشيته وحرسه أكثرهم افريقيون وبالغ في الاحسان الى ابناء جنسه حتى أنهم ربما تحدثوا بلغتهم في مجلسه الامبراطوري • قال مرسيي :

« وترقى الافريقيون على عهده وظهرت مواهبهم المدهشة برومة في الجندية والمحاماة • ولم يهمل البربر هذا الاحسان بل اعترفوا به ، واحبوا الامبراطور حبا جما بحيث لم تقع ثورة أيامه • ولما مات اتخذوه الها » •

وبعد سويرس جاء ابنه قراقلا وسار سيرته وقابله البربر بالمعروف وبقي اسمه منقوشا على الاحجار •

قال مرسيي : « وفي سنة (216) أصدر قانونا بحرية البربر ومنحهم كل الحقوق التي للرومان • فصارت افريقية ذات طبقتين فقط : الاحرار والعبيد • ولكن هذا القانون لم ينفذ • فلم يستفد منه البربر بل أضر بهم واستفادت منه الدولة الرومانية • بهذا القانون التحق البربر بالرومان في الواجبات الدولية من خراج وتجنيد ، وبقوا كذي قبل في الحقوق السياسية » • وهكذا القانون العادل اذا لم يجد ولاة عادلين ينفذونه انقلب أداة شر على الشعب • فعلى الامة التي ساقها القدر الى أن تكون تحت رحمة أمة أخرى ــ اذا رأت منها قوانين غير ملائمة لحياتها واستصدرت قوانين عادلة ــ ان تستصدر ولاة عادلين ، ولا تكتفي بمراقبة الاحكام عن مراقبة الحكام •

واذا كان لبعض الاباطرة احسان الى البربر فان أكثرهم أساءوا اليهم • ولم يكن لاساءتهم من مصدر سوى التخلق بالجور أو حب الانتقام من قوم نصروا مترشحا الى الامبراطورية رجاء عدله ، فتغلب عليه منافسه •

واذا أجملنا لك في هذا الفصل سيآت الرومان اباطرتهم وولاتهم وملاكهم فان البربر يفصلون لك ذلك بما تقرأه عن ثوراتهم وما كانوا يقتحمونه لها من خسارة الانفس والاموال •

14 ـ الثورات بالوطـن البربري

ان التاريخ الجزائري على عهد الرومان مملوء ثورات وحروبا . وذلك لعدم ملائمة العنصرين : الحاكم والمحكوم بعضهما لبعض في العوائد والاخلاق ، مع ما للعنصر الحاكم من التفوق والاستبداد على ابن البلاد الذي رضع الحرية من اسلاف أمجاد .

لقد كان للامن وجود في العصر الروماني غير ان عمره قصير . ولم يستمر سنين طوالا الا في شمال نوميديا بفضل نظامها الخاص على عهد الاتحاد القرطي .

ومنذ انحل هذا الاتحاد صار الوطن الجزائري متشابها في قلة الامن وكثرة الفتن . ويمكننا أن نقسم الفتن بهذا الوطن الى ثلاثة أقسام : قسم كان بيد ولاة رومانيين تطلعا الى الامبراطورية أو تحزبا لبعض الاباطرة على بعض ، وقسم كان على أيدي الغائرين من البربر الذين لم تنلهم عاهة الاحتلال سواء خارج الحدود أو داخلها ، وقسم كان علـى أيدي البربر الذين لم يرتضـوا الحكم الروماني تطلعا للاستقلال أو تطلبا للعدل .

1 — اما القسم الاول فمنه ثورة قلديوس مصير . كان واليا على افريقية وثار على نيرون ، وقطع على رومة حبوب افريقية ، وبعد وفاة الامبراطور نيرون (68) خلفه غلبا فبادر بقتل هذا الوالي واستعان عليه بوالي موريطانيا ألبنوس . وبعد تسعة أشهر من امبراطوريته قتل فخلفه أتون فكانت مدته نحو ثلاثة أشهر ثم تولى الامبراطورية ويتليوس ، فثار عليـه ألبنوس المتقدم وجمع جنوده وقصد بهـا الاندلس ، ولكنه قتل وخضعت جنوده للامبراطور ويتليوس .

ومنه ثورة كابليان والي موريطانيا . وذلك انه في سنة (235)

قتل مكسمينس الامبراطور الكسندر سويرس وانتصب مكانه فلم يرتض ذلك رومان قرطاجنة وأعلنوا بامبراطورية واليهم غرديانوس وانضمت اليهم الفرقة الثالثة • فسار والي موريطانيا ضد غرديانوس لفائدة مكسمينس ، وهجم على نوميديا بعساكر كثيرة ومنظمة غاية النظام ، ودخل قرطاجنة فنهبها وعاث في افريقية فسادا •

ومنه ثورة سبيانوس والي افريقية • وذلك انه بعد قتل مكسمينس سنة (238) نصب مجلس الشيوخ مكانه غرديانوس الثالث حفيد الاول • فثار عليه هذا الوالي سنة (240) ولقب نفسه امبراطورا • وكان والي موريطانيا من حزب غرديانوس • فتحارب هذان الواليان وامد غرديانوس تابعه • فانتصر والي موريطانيا وبلغ أن حاصر قرطاجنة ، ولم تسلم منه الا بتسليم سبيانوس اليه •

وقد قاست رومة أهوالا شديدة من جراء التنافس على العرش الامبراطوري وقضت قرنا في الفوضى (192ـ270) • والجزائر مرتبطة بها فكان لها نصيبها من تلك الاهوال والحروب في عصر الفوضى وغيره •

2 — وأما القسم الثاني فمنه غارة برابرة المغرب على عهد انطونان (138ـ161) • هجم هؤلاء المغاربة على المستعمرات الرومانية وعاثوا فيها فسادا • فأهم ذلك الرومان وضعفوا عن مقاومة الغائرين حتى قدم الامبراطور انطونان نفسه الى افريقية وتولى رآسة الجيش • وبذلك تمكنوا من رد هذه الغارة الكبرى •

ومنه غارتهم على عهد كمودس (178ـ192) اذ تجدد سنة (188) وعجز رومان افريقية عن رد تيارهم فاستغاثوا برومة • وكان هذا الامبراطور من عشاق الملاهي • فطلب من الشيوخ أن يمدوه بالمال ليذهب هو نفسه الى افريقية • فلما أمدوه استعان به على ملاهيه ،

وارسل الى افريقية عوضه ضباطا • وفي سنة (190) انتهت هـذه الغـارة •

ولولا تحصين الحدود بانشاء المدن ومرابطة الجنود لم تسترح رومة ولا يوما واحدا من غارة الغربيين والصحراويين • عـلى أن الصحراويين (الجيتوليين) كانت رومة ـ علاوة على تحصين حدودها منهم ـ تستميلهم بأساليب سياسية • وقد تستعين بهم لذلك في بعض المهام • وكانت تحيط المدن بأسوار امتناعا من أهل موريطانيا الغربية ، وتتخذ الحصون بالاكمات •

3 ـ واما القسم الثالث فمنـه ثورة لسيوس كيبتوس ، وهو رجل بربري تسمى باسـم روماني • وتقلب في الجيش الروماني • حتى منحه الامبراطور طريانس الرئاسة على جند • ثم ولاه على يهود فلسطين • فخدم رومة خدمات جليلة • ثم عاد الى افريقية فثار بها • واهتمت رومة لثورته لما تعلمه من مقدرتـه الحربية • ولكن دارت عليه الدائرة فقبض وقتل • وبقيت الثورة من بعده ملتهبة نارها • ولم تستطع رومة اخمادها الا بعد عناء كثير •

ومنه ثورة سـكان جبال أوراس والجبال التي بـين قرطـة وسطيف ، وجبل جرجرة • وكانت هذه الثورة في عصر الفوضى سنة (265) وامتدت في كامل الوطن الجزائري • هجم هؤلاء الثائرون على المستعمرين الرومان خصوصـا بجهات ميـلة • وأهلكوا الحـرث والنسل • ولم يتمكن الرومان من ايقافهم عند حد لكثرة الهـرج برومة ، اذ كانت الجنود تبيع منصب الامبراطورية لمن أغلى لها في المرتبات وقضى لها ما تبتغي من شهوات •

ومنه ثورة أرديون في سنة (270) سمي بروبس واليا عاما لجنود افريقية فنزل قرطاجنة • وفي تلك الاثناء أثـار أرديون النوميديين

ونوجه بهم الى البروقنصلية قاصدا قرطاجنة • فقابله بروبس وتبارزا • فقتل ذلك الوالي أرديون وحفر له قبرا كبيرا عرضه مائتا قدم تفخيما له • قال مرسيي : « والظاهر أن هذه المبارزة كانت بنواحي شـق بنارية » • وانهزمت جموع أرديون • ولكن الثورة لم تمت بموته • وحقد البربر على بروبس حتى انه لما ارتقى امبراطورا (276ـ282) وكان له أضداد كان البربر عليه مع الاضداد •

وقد اشتدت ثورة القبائل الخمس سنة(288) على عهد الامبراطور ديوقلطيانس فجعلت رومة جائزة لاورليوس على حربهم • فتمكن من اخضاعهم ولكن خضوع هؤلاء القبائل لم يكن نهائيا • وبعد أمد قصير أعادوا الثورة وهجموا على نوميديا وانتشرت ثورتهم في الجهات الشرقية • وكان ديوقلطيانس قد قسم مملكة رومة على ولاة ، منهم مكسميانس وجعله على ايطاليا وافريقيا • فلما اشتدت الثورة وتفاقم هولها قدم هذا الوالي بنفسه الى افريقية ليتولى ادارة الحـرب • أرجع هذا الوالي القبائل الخمس الى مقرها بجبال جرجرة ، ثم تتبعهم في رؤوس تلك الجبال ونالوا منه أشد النكال • وأخيرا انتصر عليهم ونقل بعضهم خارج وطنهم ، وذلك عام (297) • وقبل هذا الحين لم يكن الرومان مستولين على وطن القبائل • ولما استولوا عليه جعلوا عاصمته بيدة (جمعة صهريج) •

وبعد استيلاء الرومان على وطن القبائل لم ينقطع منه رجـال الاستقلال مثل فرموس وجلدون • وسترى في فصل آخر ما لهذين الزعيمين وغيرهما من عظيم الاعمال في سبيل الاستقلال •

15 ـ العمران الروماني بالجزائر

علمت من الفصل الثاني عشـر ان الحيـاة الرومانية بالوطن

الجزائري كانت راقيــة • وذلك يرجع الى عنايــة الرومان بالثروة ومظاهر العظمة • وقد حلوا أرضا خصبة وحكموا أمة عاملة حاذقة نشيطة • فلا جرم كانت آثارهم في العمران عظيمة •

وأهم موارد الثروة بالوطن البربري الفلاحة ثم التجارة • أما الصنائع فلم تكن من موارد الثروة ، وان كان الوطن لا يخلو منها •

وكانت مراس معتمدة للتجارة ، منها اجلجلي ، صلداي ، قيصرية صيغة • وصنعت الطرق داخل الوطن ، وأجادوا في اتقانها وتوسيعها ، الا فيما بين القرى • فقد كان بها شيء من الضيق • كانت الطــرق تخترق الوطن البربري ، والقوافل تقطعها للتجارة • وأكبر طريق هي التي تصل بين برقة والمحيط الاطلانطيقي • وقد كان لبعض الاباطرة يد في جعل الطرق والقناطر ، منهم أدريانس والكسندر سويرس •

والوطن البربري لم يكن في العصر الروماني اخصب منه اليوم وأكثر ماء • قال غسال : « بل الظاهر ان الحالة من حيث المطر مماثلة لما هي عليه اليوم ، فلم تكن البحيرات التي بوسط عمالة قسنطينة أوسع منها اليوم • يدل لذلك وجود الآثار البرية بشواطىء هذه البحيرات • ولم تكن الاودية أكثر ماء منها اليوم • وفي الكتب الاغريقية روايات عــن تكرر اليبس بالجزائر حتى وقعت مجاعات » • وذهب بعضهم خلاف هذا ورأى ان هذا الوطن كان على عهد الرومان أخصب تربة واغزر ماء • ونحن نرى أن دعوى المماثلة غير صحيحة ، وان الفرق لم يكن بعيدا جدا اما من حيث الري فمن المحقق ان غابات الوطن كانت اذ ذاك أكثر من اليوم • وهي من أسباب الري لانها تمسك الماء عن الجريان فتروي الارض وتؤثر في الهواء برودة ما • واما من حيث طبيعة الارض فان كثرة استغلالها تضعف من قوة ترابها • وقد ذكر غسال نفسه : « ان شمال نوميديا كان من أخصب الاراضي لكثرة

حجر الجير به • » قال : « وقد نقص هذا الحجر منه تدريجا ونقص معه حجم الحبوب » •

ومما يوضح لك تقارب حالة الارض في ذلك العهد وفي هـذا العصر شدة العناية بجلب الماء حسبما دلت عليه آثار بأماكن متعددة • قال غسال : « وكثير من تلك الآثار وقع قبل الرومان • وانما هم حافظوا عليها وأنشأوا غيرها » •

وهذه الآثار منها تفجير العيون ، ومنها حفر الآبار ، ومنها اتخاذ المآجل ، ومنها بناء السواقي ذات الحنايا ، ومنها سد الاودية • قال بيروني : « ومنها بالحضنة ثلاثة سدود بواد واحد • الكبير منها يحمل نحو (1200 000) ليترا • » قال غسال : « ولم يزل الى اليوم مئات من الآبار بجنوب سطيف وشمال أوراس •

ولهم قوانين دقيقة لتوزيع المياه على السكان • عثر على قانون لتوزيع المياه على سكان لمصبه (مروانة) ينص على عدد أشجار كل فلاح من زيتون وغيره ، وعلى عدد ساعات السقي •

ونفقة تلك الخدمات المائيـة اما على البلديات أو شركات أو أفـراد •

قال غسال : « والغرض من جلب المياه اما الشرب أو سقي أشجار الزيتون والبساتين • ولم يعتنوا بجلب الميـاه الى الاراضي الزراعية على احتياجها الى ذلك » •

وكانت آلة الفلاحة بسيطة • وهي مثل ما للجزائريين اليوم • وللفلاحين معرفة بتوزيع الحبوب على الارض حسب الصلاحية •

وكان شجر الزيتون وغيره من ذوات الاثمار والفواكه كثيرا يظنه الرائي غابات • وتوجد آثار معاصر الزيت بجهات كثيرة •

ولقد تشارك الاغنياء والاباطرة في تنشيط الفلاحة • فكان المشتغلون بغراسة الزيتون والكروم يعفون من الضرائب سنين • ومن الاباطرة الذين اعتنوا بتنشيط الفلاحة قسطنطين • فقد أعفى آلات الفلاحة من الاداء على التجارة الخارجية ، وأعفى العملة بأرض الفلاحين من الخدمات التي كانت تلزمهم بها الدولة عند العجز عن اداء الخراج ، واشتد على الاغنياء الذين يريدون ان يبتلعوا بقروضهم صغار الفلاحين حتى صار يحكم بالقتل على كل مالي يريد ان يفتك من الفلاح الصغير عند العجز عن أداء الدين أرضه أو عبيده أو حيواناته أو آلاته • وقبله كان الامبراطور ادريانس (117ـ138) اعتنى بافريقية وقدم اليها بنفسه سنة (122) فنشط الاستعمار • وادخل على الوطن البربري اصلاحات جمة • واقتدى به بعض البلديات في ذلك • فأنفقت قرطة من ماليتها على جعل طريق منها الى رسقاد • وأحبته العامة • ولكثرة حسناته على افريقية دعي « مصلح افريقية » RESTAURATEUR del' AFRIQUE ، وطبع هذا اللقب على صفحات النقود •

وعلى نتائج الوطن البربري كانت رومة تعتمد في حياتها ، حتى أن الوالي الذي يثور بهذا الوطن على رومة يسرع قبل كل شيء الى قطع اصدار الحبوب الى رومة •

كانت رومة تجلب من افريقية الشمالية الحبوب والزيتون والعنب والتمر والفواكه والتوابل • وتجلب ايضا الرخام والاخشاب والخيل والغزال وبعض الحيوانات المفترسة لترويضها في الملاعب والنحاس والرصاص والحديد وسبائك الفضة والتبر والعبيد السود والصوف والجلود والبقر والغنم وشمع النحل وكل مواد الحياة والرفاهية •

مواد حياة رومة كانت تأتيها من افريقية الشمالية لمدة ثمانية

أشهر (شتنبر — ابريل) ، ومن مصر لمدة اربعة اشهر • ولما اتخذ قسطنطين بيزنطة عاصمة لمملكته اختصت افريقية بتموين رومة ، ومصر بتموين بيزنطة •

ويبلغ في بعض السنين ما تأخذه رومة من شمال افريقية (348000) طن •

واتخذت رومة سفنا خاصة لنقل حبوب افريقية ، ومراكز تجمعها ووكلاء للقيام على اصدارها ، وأعفتها من أداء التجارة الخارجية •

ومن المراكز التي كانت تجمع بها الحبوب لتصدر الى رومة : وادي مجردة ، تغاست ، مدورس ، تفيست ، لمبس ، ناحية سيطيفس • قال بيروني : « يحمل من هذه المراكز كل عام ما يقرب من مليوني قنطار قمحا » •

وما تأخذه رومة من افريقية بصفة خراج تبيعه هنالك لابنائها ثم صارت تقسمه مجانا على أهل الحاضرة والبادية • وكان عدد الذين تمونهم الجمهورية برومة (320000) • ولما جاء يوليوس قيصر نقص من هذا العدد نصفه • وبعده جاء أغسطس فبلغ عددهم (200000) وفي سنة ٦٤ م احترقت رومة فكان نيرون الامبراطور محتاجا الى تعزيز مالية الدولة فقطع هذا المعاش عن أهله • وبعد وفاته أعاده خلفه •

وكان لتوزيع القمح قوانين خاصة مشتقة من اسمه (FRUMENTAIRE) والايطاليون اذ ذاك يستعملون القمح في معاشهم أكثر مما يستعمل اليوم • ولشدة ارتباط حياتهم بافريقية كان عظماء رومة اذا اجتمعوا في ساحة المدينة (الفوروم) يقرن أحدهم

سلامه على صاحبه بقوله : « ما حدث بافريقية ؟ » (QUID NORD AFRICA واذا كنى الرومان عن رجل بسعة ماله قال : في مخازنه قمح افريقية • وكانوا يقولون : افريقية مخزن رومة (GRENIER de ROME)

قد يتعجب المرء من كثرة هذه النتائج على قلة أيام السلم • وقد يعجب أيضا بفضل الرومان في العمران • ونحن لا نقف ازاء هاتين النقطتين موقف الدهش بل نعطي رأينا فيهما وللقارىء حق التعقيب :

1 — أما النقطة الاولى فنقول بازائها : حقيقة ان الاضطراب لم ينقطع مدة العصر الروماني ، خصوصا بعد ظهور الديانة المسيحية ، ذلك أن الفتن كانت سياسية ثم تولدت مع هذا الدين فتن دينية • غير ان الاضطراب لم يكن مستمرا بصفة تمنع أيدي العاملين في التعمير • فما وقعت فتنة شغلت رجال العمران الا أعقبها سلم يمكنهم من مباشرة أعمالهم • على أن أكثر الفتن انما كانت بموريطانيا حيث تضيق المملكة الرومانية وتنحصر الى البحر • ونتائج الارض بهذا القسم كانت قليلة • وتلك النتائج المدهشة من زروع واشجار انما كانت بالجهات التي تمكن منها الحكم الروماني فقلت ثوراتها • والخلاصة انه لا منافاة بين وجود الثورات وكثرة الثمرات •

2 — واما النقطة الثانية فنقول عنها ان ذلك العمران لا يزيد في فضل الرومان بل هو عندي بعكس ذلك : يدل على جور الرومان وضعف انسانيتهم • وذلك ان تلك النتائج ان لم تكن كلها من أراض مملوكة للرومان فجلها لهم من غير شك • والاراضي الرومانية انما كان العامل فيها يد البربر اما بصفة عملة مملوكين واما بصفة فلاحين مكترين وكلاهما تحت الضغط الشديد • فأي فضل للرومان في هذا العمران ؟ الارض المنتجة بربرية الاصل واليد المستنتجة بربرية

والرومان انما يأكلون ويتمتعون ويموتون أهل وطنهم • واذن فتفضل الرومان انما هو في جورهم بسلبهم أراضي البربر وضعف انسانيتهم بجبر صاحب الارض على العمل بها لفائدتهم •

16 ـ اللغــة والآداب الرومانية بالجزائر

الرومان اخوان اليونان في النسب ، وتلاميذهم في العلم • فلغتهم أخت اليونانية ـ وأدبهم وليـد الادب الاغريقي • فكان للرومان أدبهم اللطيني ، وهو لا يقصر في روعته عن آداب الامم الراقية لذلك الحين • واذا نظرت الى سعة السلطان الروماني وتحكك ابناء رومة بالامم الشرقية الراقية وتواردهم عـلى منهل أثينا تصورت اجماليا رقي الادب اللطيني •

ولما حل الرومان بالجزائر ووجدوا أمـة لها لغتها وأدبها وهي نافرة منهم سعوا في نشر لغتهم وآدابهم بما أقاموه من المراسح والنوادي وما شادوه من المدارس الابتدائية والثانوية بالقرى والمدن •

وكانت قرطة ومدوروس من أشهر المدن التي يؤمها طلبة التعليم الثانوي ولكي تحمل رومة على البربر لغتها جعلتها هي اللغة الرسمية ومنعت الكتابة بغيرها • وذلك في القرن الثاني للميلاد •

ومع حرص رومة على تعميم لغتها وآدابها لما في ذلك من تثبيت سلطانها لم تر من البربر اقبالا يفي بحرصها • العامة بقيت بعيدة عن اللطينية ، والمتعلمون كانوا يحدون فيها صعوبة حملتهم على تغييرها بما يقرب من لهجتهم ، حتى أصبحت لطينية افريقية متميزة عن لطينية رومة • وهذا لا ينافي ان هناك رجالا من البربر نبغوا في الآداب اللطينية وكانت لهم فيها شهرة خلدت ذكرهم •

كان الادب اللطيني أرقى من الادب الليبي والفينيقي ، واللغة

اللطينية أوسع من اللغتين الاخريين ، ومـع ذلك فقد عاش الثلاثة بالوطن البربري، ولم تستطع اللطينية ــ على اتساعها ورقي أدبها ــ أن تتغلب على تينك اللغتين ، بل كانت أقل منهما رواجا بين الطبقة السفلى من الامة وأقل ذكـرا في بعض الجهات التي لـم يوقدها الاستعمار الروماني • قال بيروني : « وفي أيـام القديس أغسطين ــ التي هي بعد الاستيلاء الحقيقي بقرون ــ كان الولاة الاداريون والرؤساء الدينيون يحتاجون الى ترجمان بينهم وبين البربر البادين • وكانت اللغة الفينيقية لغة الاكثرية البربرية • حتى ان العظماء الذين تخلقوا بالاخلاق الرومانية كانوا يتكلمون بها • »

ومما تقدم تتضح لك نقطتان :

1 — ان الرومان لم يؤثروا على البربر في اللغة والآداب مثل تأثير القرطاجنيين ولا قريبا منه • وذلك للفرق بين مقاصد الامتين في الشعب الجزائري • اذ القرطاجنيون مقاصدهم تجارية ، والرومان مقاصدهم استعمارية بالمعنى العصري • فالبربر أقبلوا على من كانت مقاصدهم معهم حسنة ، ونفروا من أصحاب المقاصد السيئة •

2 — الذين تعلموا اللطينية صبغوها بصبغة وطنهم وغيروها عن أصلها • وذلك دأب البربر في كل ما أخذوه عـن غيرهم • وبذلك حافظوا عـلى جنسيتهم ، وابتلعوا الامم التي احتلتهم وارادت ان تبتلعهم وتكثر بهم سوادها • وهي مزية لا تعرف لسواهم من الامم غير العرب •

17 ــ ديانــة الرومان بالجزائــر

قدمنا لك ما للرومان من كثرة الالهة ، وما لهم من عناية بها ، وانهم أخذوا من الامم التي استولوا عليها بعض آلهتهم • وقد كان

علماء رومة يرون ان الارباب المختلفة باختلاف الامم ليست الا مظاهر لاصل رباني عام • ومن ههنا نشأ التسامح الديني عند الرومان ، فلم يضغطوا على أي شعب استولوا عليه في ديانته ولا ألزموه بديانتهم • وانما كانوا يلزمون من تحت رايتهم بعبادة قيصر • وظاهر ان هذه العبادة سياسية لا دينية • ولذلك لم تكن لها هيئة خاصة تتحد الشعوب المحكومة لرومة على أدائها . بل كانت كل أمة أو قرية تعبده على الوجه الذي تراه عبادة •

وانت تعلم ان البربر ما أتوا بشيء من باب الاختيار الا قبلوه وأخذوا منه • فكان للبربر آلهة رومانية الى جنب آلهتهم البربرية وما أخذوه عن الفينيقيين • وهكذا عاشت الديانات الثلاث بين ظهراني البربر متآخية • غير انه لا بد ان يكون — بمقتضى طبيعة البربر — طابع البربرية على الجميع •

بقيت هذه الديانات في ظل التسامح المتبادل بين البربر والرومان حتى ظهرت الديانة المسيحية فتضادت معها ، ولم يتسع التسامح الديني الروماني لها فعارضها ، لان الاباطرة والعظماء رأوا في انتشار هذه الديانة ما يضعف عظمتهم وينقص من غلوائهم •

في سنة (303) أحدث امبراطور رومة قانونا باتخاذ بعض الايام لعبادة الآلهة الرومانية • لا يتخلف أحد عن حضور هذا اليوم المعلوم • ومراد الامبراطور مضادة المسيحية التي تنظره وأحقر انسان في امبراطوريته بعين واحدة • وتراهما في منزلة واحدة ، بل تفضله لحقارته وفقره عليه لجلالته وغناه •

قام بتنفيذ هذا القانون والي نوميديا فلريوس ، ولم يمتثل له كثير ممن تمكنت المسيحية من قلوبهم فقضى عليهم بالقتل • ولكثرة المقتولين دعى هذا العصر عصر الشهداء •

18 _ الديانـة المسيحية

الديانة المسيحية هي الديانة التي جاء بها عيسى المسيح عليـه السلام . وهو عيسى بن مريم ابنة عمران . وعمران اختلف المؤرخون في سياقة نسبه ، ولكنهم اتفقوا على انه يتصل بسليمان بن داود عليهما السلام . وأم مريم اسمها حنة . وأختها ايشاع (أو خالتها) كانت تحت زكريا عليـه السلام . ومنها يحيى الذي قال فيـه القـرآن : « وآتيناه الحكم صبيا » . عمران كان كبير كهنوتية بيت المقدس . وحنة زوجه كانت من العابدات . أقاما ثلاثين سنة لا يولد لهما . فدعوا الله ونذرت حنة : ان ولدت لتجعلن ولدها حبيسا ببيت المقدس يقوم بخدمته . فولد لها مريم ، ووفت بنذرها . فدفعتها الى عباد بيت المقدس . وقام بكفالتها هنالك زكريا حتى كبرت ، وصارت تقوم بقسطها من خدمة البيت ، واشتهرت بالتقى والفضيلة ، وظهرت على يدها الخوارق كما قص ذلك القرآن في آية آل عمران : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله . ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

وما زالت على عبادتها وورعها حتى بشرتها الملائكة بانها ستلد ابنا من غير أب يكون نبيا رسولا . فعجبت من ذلك . وأجابها الملك بأن الله يخلق ما يشاء .

قدر الله أن تحمل مريم من غير زوج فارسل اليها جبريل ونفخ فيها ، فحملت بعيسى . ولما ظهر بها الحمل خشيت ان تتهم في عرضها . فخرجت من بلدها وأخذها المخاض في الطريق ووضعت شرقي بيت لحم قريبا من بيت المقدس .

كانت ولادة عيسى في زمن اغسطس قيصر . قال ابن خلدون لاثنتين واربعين من ولايته . وهو صحيح اذا قدرنا ولايته منذ كان أحد الرجال الثلاثة .

ولادة عيسى من غير أب أمر خارق للعادة حقيقة ولكن الله على كل شيء قدير • وقد أزال القرآن الغرابة في ولادة عيسى بأن آدم أغرب منه • وذلك قوله تعالى : « انما مثل عيسى عند الله كمثل آدم : خلقه من تراب ثم قال له كن » •

كبر عيسى وظهرت على يده الخوارق منـذ صباه ـ كما في القرآن ـ من ابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى وخلق الطير من الطين • ونزل عليه الانجيل ودعا الى طاعة الله واشتهر ذكره •

هنالك خافه رؤساء اليهود على دينهم فتآمروا على قتله • وبحثوا عنه فدلهم عليه أحد أصحابه • فقصدوا موضعه • والقى الله شبهه على أحد اليهود فقتلوه وصلبوه معتقدين انه عيسى عليه السلام •

وكان لعيسى من الحواريين (الاصحاب) اثنا عشر وهم : سمعان بطرس ، أخوه انداورس ، يعقوب بن زيدي ، أخوه يوحنا . فليبس ، برتلوماوس ، توما ، متى العشار . يعقوب بن حلفا . تداوس . سمعان القناني ، يهوذا الاسخريوطي •

ذهب الحواريون بعد رفـع عيسى وافترقوا في النواحي لبث دينه • وكان منهم بطرس برومـة ، وهنالك كتب الانجيل بالرومية ونسبه الى تلميـذه مرقس • وكتب متى انجيـله بالعبرانية في بيت المقدس • ونقله يوحنا بـن زيدي الى الرومية وكتب لوقـا انجيله بالرومية • كل ذلك على عهد قلوديوس • وكان نقل يوحنا ببعض جزر ايطاليا على عهد طريانس •

وكان بين هذه الاناجيل اختلاف بالزيادة والنقص ، وقد يقع بينها التناقض • وذلك من عدم جمع الانجيل في أيام من أنزل عليه وتدوينه باللغة التي أنزل بها • فكتب كل من الحواريين ما حضره من غير أن يجتمعوا • وبطرس كبيرهم كتب انجيله بالرومية • ومعلوم ان ذلك ترجمة قد يخطىء صاحبها •

ومن ههنا اشتمل الدين المسيحي على أصول تخالف الدين الاسلامي مع أن مصدرهما واحد . وعقيدتنا ان دين الله واحد لا يختلف في روحه وحقيقته باختلاف الازمان ، وانما تختلف صوره ومظاهره .

وقد ذكر الاستاذ الامام محمد عبده أصول الدين المسيحي ملخصا لها في ستة :

1 — الخوارق .
2 — سلطة الرؤساء الدينيين .
3 — ترك الدنيا .
4 — الايمان بغير المعقول .
5 — ان الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج اليه البشر في المعاش والمعاد .
6 — التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الاقربين .

وقد شرح هذه الاصول مستشهدا عليها بكلام الاناجيل . ثم بين سوء نتائجها . ونحن نكتفي بالاشارة الى ذلك محيلين محب البسط والبيان على كتاب الاستاذ : « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » .

وقد ذكر ابن خلدون طبقات الرؤساء الدينيين الذين لهم السلطة على العامة ، ولقب كل طبقة وهاك بيانها :

1 — البترك : رئيس الملة وخليفة المسيح . والاساقفة يسمونه أبا . والقسوس يسمون الاساقفة أبا . فوقع الاشتراك في اسم الاب ، فأطلق على البترك اسم البابا . ومعناه أبو الآباء . وكان البابا يطلق على بترك الاسكندرية . ثم صار يطلق على بترك رومة الى يومنا

هذا • واختص صاحب رومة بهذا اللقب لانها مركز بطرس كبير الحواريين •

2 — الاسقف : نائب البترك •

3 — القسيس : القراء •

4 — الجاثليق : صاحب الصلاة •

5 — الشمامسة : قومة المسجد •

6 — الراهب : المنقطع العبادة بدير (خلوة) •

7 — المطران : القاضي •

وقد لقيت المسيحية في طريقها اضطهادات • وحدث بين رؤسائها اختلافات • ولبثت على ذلك حتى تعززت بتمسيح قسطنطين في القرن الرابع للميلاد • هنالك ارتفع عنها الاضطهاد وقل الخلاف • لانه مهما ظهرت قولة الا اجتمع الاساقفة والبتاركة عليها وتناظروا في شأنها وقرروا رأي الاغلبية ولعنوا خلافه •

ومن مذاهب النصرانية مذهب دوناتوس بنوميديا في بداية القرن الرابع •

ومنها مذهب أريوس • وكان أيضا في القرن الرابع لعهد قسطنطين • قال ابن خلدون : واستقرت الكنائس أخيرا على ثلاثة مذاهب : يعقوبية وملكية ونسطورية • وليس من غرضنا شرح هذه المذاهب • فلنقتصر على الاشارة اليها •

19 — الديانة المسيحية بالجزائر

تأسست الكنيسة المسيحية بقرطاجنة أوان تأسست برومة • وذلك بعد رفع عيسى (ص) وتفرق أصحابه في الجهات •

واختلف هل كان تأسيسها على يد أحد الحواريين ؟ فمن

الامبراطور قسطنطين فأحسن الى الكنيسة ومنحها الحرية ثم تمسح هو نفسه •

تعززت الكنيسة بهذا الناصر العظيم • ولكنها انتقلت من الاضطهادات الخارجية الى الفتن الداخلية ، اذ حدث بين رجالها اضطرابات أفضت الى انقسامها على حزبين متنافسين متباغضين •

وذلك ان من المسيحيين من لم يتحمل الاضطهادات وارتد عن دينه • ومن بين المرتدين بعض الاساقفة • وفي عصر ديوقلطيانس طلبت منهم الحكومة تسليم الكتب المقدسة • فخشي كثير من الاساقفة أن يقتلوا فشحوا بأنفسهم وجادوا بدينهم وكتبه • ومنهم بنوميديا أساقفة قرطة وتجيست (عين البرج جنوب قسنطينة) ومصكولة (خنشلة) وقالمة •

في سنة (305) مات اسقف قرطة بولوس • فاجتمع الاساقفة للنظر فيمن يخلفه فكان سلفانوس • وهو من المتهمين بتسليم الكتب المقدسة • فلم يرضه كثير • وأخذ الخلاف يتسع بين المسيحيين ويشتد من ذلك الحين •

وفي سنة (311) مات اسقف قرطاجنة فاجتمعوا للنظر فيمن يخلفه فكان سيسليان • ولم يرضه كثير من الاساقفة • وأخذت الدعاية تتمشى ضده ، حتى بلغ عدد أضداده من الاساقفة سبعين يرأسهم سوغندوس أسقف تجيست •

ثم اجتمع هؤلاء الاساقفة وطلبوا من سيسليان المثول أمامهم لاتهامهم له بانه من المقصرين في جانب شهداء الاضطهادات • فامتنع من الحضور• فسجلوا امتناعه واطلقوا عليه لقب (TRADITEUR) واعتبروا منصبه شاغرا فسموا مكانه بقرطاجنة مجورينوس من حزبهم •

سنة (316) مات مجورينوس وسـمي مكانه دونتوس • وكان أسقفا بباغاية • وقد نظم مذهب هذا الحزب حتى نسب اليه • واستعان بسميه دونتوس أسقف الديار السود (قرية شمال أوراس اندثرت) •

أخذ هذا المذهب ينتشر بقوة وسـرعة في نوميديا وموريطانيا • وقاومته الحكومة فلم تظفر به • وابتدأ قسطنطين مقاومته في مهده فجمع الاساقفة مرتين كانت النتيجة فيهما ضد دونتوس • وأخـيرا قابلهم بالقوة واشتد عليهم فلم ينل منهم •

وفي نواحي سنة (326) توفي سيسليان فاجتمع بقرطاجنة مـن أساقفة الحزبين 270 واصطلحوا • وقد كانوا قبل ذلك متنافسين كل حزب يريد التغلب على الآخر • ويتوسل الى ذلـك بالاكثار مـن الاساقفة •

وفي سنة (330) بلغ من كثرة اتباع دونتوس ان استحوذوا على جميع الكنائس ، حتى طلب اسقف قرطة زيزيوس احداث كنيسـة للارثوذوكس •

وفي سنة (340) تجددت الفتن بين حزبي الكنيسة • ومات قبل ذلك قسطنطين (337) وخلفه ابناؤه الثلاثة كل بناحية • وكان قسطنط احدهم على ايطاليا وافريقية • وكان ناصر الارثوذوكس • فوجه جنوده لحرب اتباع دونتوس • واقتتلت جنود الامبراطور وهؤلاء الاتباع • فانتصر الامبراطور واخذ اتباع دونتوس بالقتل والنفي •

وبعد سنين ثأر الدونتسيون من الارثوذوكس • وذلـك ان قسطنطيوس أحد أبناء قسطنطين استقل بالملك بعد وفاة أخويه • وفي سنة (360) ظهر يليانس المرتد ، ونازع قسطنطيوس السلطة • وأراد فتح افريقية ، فامتنعت عليه • وكان الارثذوكس مع قسطنطيوس ، فلما توفي هذا الامبراطور خلا الجو ليليانس المرتد ، وانتقم مـن الارثذوكس فسلط عليهم الدونتسيين ، ففتكوا بهم فتكا ذريعا ، ولم

المؤرخين من جزم بنفي دخول الحواريين الى الشمال الافريقي • ونسب نشر خبر الكنيسة بهذا الوطن اما الى تجار شرقيين لوجود المواصلة بين المشرق وقرطاجنة ، واما الى الرومان الذيـن تمسحوا وقدموا افريقية •

ومن المؤرخين من أثبت دخول بعض الحواريين الى افريقية نقل البكري عن اسحق بن عبد الملك الملشوني انه قال : « لم يدخل افريقية نبي قط • واول من دخلها بالايمان حواري عيسى بن مريم عليهما السلام »[1] •

وفي ابن خلدون ان الذي دخل افريقية من الحواريين فليبس • وقال القيرواني : اسمه متى العشار • وابن خلدون ذكر متى العشار ، وانه أرسل الى أرض السودان والحبشة • ومراد ابن خلدون بافريقية وطن تونس •

وكيفما كان الحال فان انتشار المسيحية بافريقية مقارن لانتشاره

---

(1) المغـرب ص 45 . واسـحاق الملشوني ذكـره البكـري ص 52 واباه . وقال فيهما : « عالمان يحمل عنهما العلم » . وقال عن ملشون : « قرية من قرى بسكرة » .

ومن هذا النقل عن عالم جزائري صحراوي قديم مشهود لـه بالصدارة في العلم ــ تعلم ان لا صحة لاعتقاد العامة وجود خالد بن سنان العبسي بوطننا ، وزيارتهم لمكان زعموا انـه ضريحـه . قال صاحب المؤنس ص 18 : ومنهم من قال بل دخلها (افريقية) خالد بن سنان زمن الفترة . ولكن لم يدخلها بدعوة . قال : « وانكر بعض الفقهاء ذلك وصححه آخرون » .

وليس في التاريخ ما يؤيد تصحيح وجود خالد بصحراء الجزائر . وليس من المعقول ان يأتي نبي من جزيرة العرب الى هذا الوطن البربري من غير ان يكون مرسلا الى اهله . هذاعلى فرض ان يكون خالد نبيا . والصحيح ايضا خلافه .

بايطاليا • وانتشاره كان بمساعدة اليهود الافريقيين واللغة اللطينية التي هي اللسان الرسمي للكنيسة •

وقد كان لليهود هجرات الى الوطن البربري أولاها على عهد الفينيقيين جلبوهم عندما أسسوا المراكز التجارية بشاطىء البحر الابيض لفضل حذق اليهود بالتجارة • وثانيتها بعد هلاك الاسكندر على عهد بطليموس صاحب مصر ، اذ حاصر هذا الملك بيت المقدس وشرد اليهود منها فانتقل بعضهم الى الشمال الافريقي وذلك سنة (320) ق•م • وثالثتها على عهد الامبراطور ادريانس اذ نقل الى المغرب بعضهم من بيت المقدس وبعضهم من برقة •

لبثت المسيحية بافريقية تحت جناح من الظلام لا يعلم لها تاريخ حتى بداية القرن الرابع • والمعلوم عنها في هذه المدة كلها هي احاديث الاضطهاد ، وانعقاد مجمعين للاساقفة احدها أواخر القرن الثاني اشتمل على سبعين أسقفا من افريقية ونوميديا والثاني سنة (240) حضره تسعون أسقفا •

وجدت الطبقة المستعلية في تعاليم هذا الدين ما ينافي كبرياءها وجورها واستعبادها للضعفاء فعارضته • واستعمل الاباطرة قوتهم في اخفات صوته واعتدوا على المتمسكين به حتى آن من سلم منهم من القتل لا يسلم من السجن • وكان سبتموس سويرس أشد الاباطرة وطأة على المسيحيين •

وقد قابل رؤساء الكنيسة تلك الاعتداءات بكل شجاعة وثبات • وكان رجال من البربر وقفوا حياتهم لنشر هذا الدين ومات منهم عظماء في سبيله •

لم يزل رجال هذا الدين يقاسون الاضطهادات الامبراطورية — وقليل من الاباطرة من خلاهم ودينهم مثل نربا (96—98) حتى ظهر

يسلم منهم حتى النساء والصبيان •

وفي سنة (372) ثار فرموس البربري بوطن القبائل وشغل الرومان ثلاث سنوات • كان الدتنسيون من أنصاره في تلك الثورة • ولما أيس من النجاح وقتل نفسه انتقم الرومان من حزب دونتوس وساموهم سوء العذاب •

وفي سنة (395) ثار جلدون أخو فرموس على الرومان ونصره اتباع دونتيوس وفتك بالارثذوكس • ولما قبض عليه انتحر • وحنق الرومان على الدونتسيين ، فجاروا عليهم واستعبدوهم •

انتشر مذهب دونتوس بنوميديا وموريطانيا (الوطن الجزائري) وحاز الاغلبية على الارثذوكس • وهاك بيان مراكز أساقفة الفريقين بمدن هذا الوطن : في سنة (411) كان عدد المراكز مائة وسبعة وثمانين منها (87) دونتيسية ، (34) كاثوليكية ، (66) للفريقين •

ومهما كثر عدد أساقفة حزب بناحية آذوا أتباع الحزب الآخر بالسلب والسرقة وهدم المعابد • وقد بلغ من تباغض الاحزاب المسيحية ان قال فيهم اميان مارسلان — وقد عاش قريبا من أوائل القرن الخامس — : « ان العداوة بين المذاهب المسيحية أشد من عداوة السبع للانسان » •

ولم تقف الكنيسة عند هذا الحد من الانقسام • بل ان اتباع دونتوس أنفسهم انشقوا طائفتين : طائفة متساهلة مع بقية المسيحيين والاغنياء ، وأخرى متشددة مع المسيحيين ومتعمقة في الزهد تكره الاغنياء • وكان مركز الطائفة الثانية بتمغادي ، وهي تتركب من العبيد المماليك الصعاليك ، وقد أخذت على نفسها العمل لتحقيق المساواة بين الافراد في الفقر • فصارت تجوب البلاد وتطوف في البوادي لنهب الاغنياء وافساد الاموال • ورؤساء مذهب دونتوس يعدون ثوارا على الحكومة • ولذلك أقبل بربر الجزائر على هذا المذهب

لما كانت تنطوي نفوسهم عليه من كراهية السلطة الاجنبية • ولذلك أعانوا فرموس وجلدون في ثورتهما ، وكانت الحكومة دائما ضدهم • وأصدر الامبراطور هونريوس سنة (410) أوامر في التشديد عليهم ، ولكثرتهم لم يستطع تنفيذها • ولما أعياه أمرهم أمر باجتماع شيوخ الدين سنة (411) فانعقد المجلس بقرطاجنة ، وحضره من أساقفة الكاثوليك والدوتيس 286 فحكم رئيس الجلسة على الدوتيسيين ولكنهم لم يحفلوا بذلك الحكم • فأصدر الامبراطور أمره بالتشديد عليهم وسلب حقوقهم والتضييق على حريتهم •

قال مؤرخ المسيحية بافريقية الاب مسناج : « لما عجز البربر عن طرد الرومان من وطنهم اكتفوا باظهار الكراهية لهم • فامتنعوا من لغتهم ومذهبهم • فان شعبا لا يتعلم لغة المستولي عليه يعد ثائرا خصوصا اذا أضاف الى ذلك مخالفته له في المعتقد • ويقول بعض المؤرخين : ان البربر ما دخلوا أولا في المسيحية الا لكون الرومان وثنيين • فلما أقبل الرومان عليها خالفهم البربر وأسسوا لانفسهم مذهبا جديدا » •

20 ـ المسيحية والوثنية بالجزائر

لم تتجاوز المسيحية بالجزائر حدود المملكة الرومانية ، ولم تنتشر داخل تلك الحدود الا على نسبة انتشار اللطينية ، فكانت الاغلبية للوثنية ، وما كان من كثرة الاساقفة ومراكزها بمدن نوميديا وموريطانيا فانما نشأ عن تنافس حزبي الكنيسة لا عن كثرة اتباع المسيحية•

وقد رأيت أن مذهب دونتوس هو مذهب الاغلبية المسيحية بالجزائر وذلك لانه مذهب ظاهره ديني وباطنه سياسي يؤيد السيادة الوطنية • ومن ههنا كانت كراهية أتباعه للارثذوكس الذين ينصرون الرومان ويؤيدون السيادة الاجنبية •

ولان غاية اتباع دوتتوس سياسية لم يتمكن الدين من تحويل طبائعهم وعاداتهم وعباداتهم • وكذلك كثير من الارثذوكس لم يكن الدين ليفضي الى قلوبهم • وقد كان القديس أغسطين يخطب في المسيحيين ويرشدهم الى المسيحية الصرفة • قال الاب مسناج : « اذ كان في عصره أكثر المسيحيين لم تزل بين جنوبهم عقائد وثنية : يأتون الكنائس ويعبدون فيها آلهة وثنية ، ويذهبون أيضا الى الهياكل الوثنية » — وقال أيضا : « فجر القرن الخامس هو أزهر عصر للديانة المسيحية بافريقية ، ومع ذلك فانه لم يصل الى قلوب معتنقيه من البربر ، وانما كان شعارا ظاهريا ، وفي حقيقة الامر لم يزالوا على وثنيتهم » •

وكان عصر قسطنطين عصر الحرية الدينية فارتفعت عن المسيحية الاضطهادات وصار كل من المسيحيين والوثنيين يأتون أعمالهم بحرية تامة • ثم تأثرت المسيحية من الوثنية وأصبحت تضطهدها : في عصر قسطنط سنة (341) منعت القرابين ، وفي أيامه أيضا سنة (346) أغلقت الهياكل الوثنية وشدد في منع القرابين حتى هدد فاعلها بالقتل • وفي سنة (380) لم يعترف امبراطور رومة غراطيانس بشيخ الديانة الوثنية • ثم صادر سنة (382) املاك الهياكل ، ونزع لشيوخ الوثنية امتيازهم ، وأزال من مجلس الشيوخ تمثال الهة النصر •

وفي سنة (399) أمر هنوريوس بابطال عبادة الاصنام وهدم معابدها • وامتعض الوثنيون — وكانوا كثيرين — لهذا الامر •

ولم تجد الوثنية حريتها الا في زمن يوليانس المرتد (361—363) .

كان هذا الامبراطور قد تعلم بأثينا • وبعد امبراطوريته فتح داره للحكماء والفلاسفة ، فنبذ المسيحية ، وبذلك سمي المرتد ، ومنح الوثنيين حريتهم • واشتد على المسيحيين لانهم كانوا في نصرة خصمه قسطنطيوس ما عدا الدوتتسيين •

قال الاب مسناج : وقد استبشر بانتصاره للوثنية بربر افريقية الشمالية ، ولقبوه « محيي القرابين » . وأظهرت مدن كثيرة استبشارها بذلك . وبعث مجلس بلدية تمغادي الى يوليانس تهانيهم في مجالس اخرى . وقد كان أكثر الولاة بنوميديا وموريطانيا وأغلب المتوظفين بالمجالس البلدية في أوائل القرن الخامس مسيحيين .

قال الاب مسناج : « ومداوروش كانت كلها وثنية . وهي العاصمة العلمية لوطن أغسطين . ووجدت آثار هياكل وثنية من القرن الخامس ، تدل على عظمتها . في حين ان الكنائس اذ ذاك في غاية الفقر » .

وقد تقدم ان الديانة المسيحية لم تتجاوز حدود المملكة الرومانية . وقد قسم الاب مسناج هذه المملكة الى ثلاثة أقسام :

1 — مدن رومانية ، كانت الاغلبية فيها مسيحية ، ولكنها ممزوجة بالعقائد الوثنية .

2 — بوادي رومانية لم يتمكن بها نفوذ الرومان . كانت الاغلبية فيها للوثنية .

3 — جهات غير خاضعة للرومان . هذه لا أثر للمسيحية بها .

وقد اتضح ان الاغلبية الساحقة بالجزائر في جانب الوثنية ، وان الاقلية المسيحية لم تكن خالصة ، وان جلها من اتباع دوتتوس الذين يرمون الى غرض سياسي .

وقد عاشت المسيحية على أقليتها وعدم خلوصها وتعدد مذاهبها الى أن جاء الاسلام فقضى على الجميع بسرعته المدهشة .

21 — ذكر بعض رجال البربر في الدور الروماني

قد رأيت ما كان للبربر من رجال عظماء وملوك كبراء قبل أن يصابوا بكابوس الاحتلال الروماني . وقد ظهر منهم بعد ذلك الاحتلال

أيضا رجال في العلم وفضلاء في الدين وعظماء في السياسة ونحن نذكر لك ما وقفنا عليه من أسماء الجميع ، وان كنا نأسف لفقدان تراجم حياة كثير منهم :

1 — فمن رجال العلم الذين كانت اهم شهرة فرنطونس • كان أستاذ الامبراطور مرقس أوراليوس • وله سمعة بين جميع الطبقات في الفن الهندسي ، وهو مولود بقرطة •

ومنهم أبوليوس • قال بيروني : « هو من أكمل الرجال وأعظمهم فائدة في عصره • وأحسن وصف له وأصدقه أن تقول : هو رجل مخترع مؤسس لمباد كثيرة » • وكان قبل القديس أغسطين وأصله من مداوروش •

2 — ومن رجال الدين نمفانيو ، مغجيس ، لسيتة ، سنايس • هؤلاء من أهل القرن الثالث الذين اضطهدوا في سبيل الدين وقتلوا شهداء •

ومنهم دونتوس مؤسس المذهب المنسوب اليه • وسميه أسقف الديار السود •

وكان بقالمة ومصكولة (خنشلة) اسقفان كلاهما يدعى دونتوس • وكانا عصر تسليم الكتب المقدسة •

ومنهم أبطات اسقف ميلة • كان في عصر القديس اغسطين • وأعانه في حملته على المسيحيين المتهتكين • وترك تآليف ذات أهمية • وأهمها كتب في تاريخ مذهب دونتوس •

ومنهم القديس أغسطين • ولد اغسطين بتغاست وتعلم بمدوروس ثم انتقل الى قرطاجنة ثم ذهب الى ميلان بايطاليا ثم عاد الى مسقط رأسه سنة (388) • ونزل دار أبيه وجعلها ديرا يتعبد به • وفي سنة (391) سمي قسا بهبون ، ومنح ارضا خارج المدينة ليبني بها ديرا ،

ثم سمي اسقفا . واتخذ داره نفسها ديرا • وقد اشتهر هـذا الدير وتخرج منه نحو عشرة أساقف • منهم البيوس بتغاست ، وسفروس سمي بميلة سنة (396) ، وفرتوتتوس سـمي بقسنطينة سنة (402) ؛ وبوسديوس سمي بقالمة سنة (397) وهـو مؤرخ حيـاة اغسطين وافوديوس بأزليس (وجل) في حدود سنة (400) ؛ ونفاتوس بسطيفي قبل سنة (411) •

ويقال ان أول من أحدث الاديرة بافريقية القديس أغسطين ، وكان من حزب الارثذوكس (سلفي) وانتصب للدفاع عن المسيحية • فرد على أدباء عصره الزارين عليها بكتاب سماه « مدينة الله » ومما جاء فيه في مقام اثبات الاله قوله : « اني متحقق وجودي • ولا أخشى أن يقال اني غالط في ذلك • لانالغلط دليل الوجود »[1] •

وارشد مسيحي ذلك الوقت الذين انحرفوا عن الدين وانغمسوا في الملاهي والخمور حتى كانوا يتعاطونها في المجامع الدينية • واشتد في حماسه الديني عليهم حتى عزم مسيحيو قرطاجنة على الفتك به • ومن أقواله في سبيل الارشاد : « ان الشهداء ترتجف قلوبهم من زجاجاتكم وآلات طبخكم واصطباحكم » •

وناظر أصحاب دونتوس بالحجة وأغلق باب السباب الذي لا تخلو منه مناظرتهم سابقا وفتح باب النقد النزيه •

قال بيروني : « وهو أخطب خطيب لطيني وأكبر مفكري كـل زمان » • عاش القديس أغسطين حتى فتح الوندال • وحوصر ببونة في جملة المحصورين • وتمكن له الفرار فلم يرضه لنفسه ومنصبه • وبقي مع المحصورين الى أن أدركه أجله سنة (430) •

---

(1) عثرت على هذه الجملة الفلسفية في كتاب الدين الطبيعي . نقلها عنه مؤلفه جول سمون ، ص7 .

3 — ومن رجال السياسة لسيوس كيتوس وأرديون • وقد ذكرا سابقا • ومنهم فرموس وجلدون • وقد أخرنا ذكرهما الى هذا الفصل لان أنصارهما كانوا من حزب دونتوس • فرأينا ان نذكرهما بعد الكلام على ذلك الحزب •

كان رجل بربري يدعى نوبال ملكا على القبائل الخمس • وتوفي في عشرة السبعين من القرن الرابع ، وترك أولادا ، وهم : فرموس ، جلدون ، مسيزال ، ديوس ، صلمسيس ، زامة وكلهم مسيحيون •

وفي سنة (372) ثار فرموس على الرومان بجبال جرجرة • وأعانه أهل الموريطانيتين واتباع دونتوس • فجمع من الجنود نحو عشرين ألفا ذهب بها الى قيصرية فحاصرها ثم افتتحها وحرقها • وامتدت الثورة بنوميديا • وأراد والي قرطاجنة مقاومتها بالحرب فانهزم • ونادى البربر بفرموس ملكا •

بلغ خبر هذه الثورة الشاملة للوطن الجزائري مسامع الامبراطور والنتنيانس ، فوجه جندا تحت رئاسة ثأودوسيوس فنزل هذا القائد جيجل وتوجه منها الى سطيف سنة (373) • والتحق به جلدون ومعه جنده ليعينه على أخيه !

وكان مع فرموس أخواه مسيزال وديوس • ولكنه رأى نفسه ضعيفا عن الحرب فراسل ثأودوسيوس في الصلح فلم يقبل ، وتحاربا • وبعد معركتين أعاد فرموس طلب الصلح فقبل ثأودوسيوس • وانعقد الصلح بينهما على الصفة الآتية :

1 — اهداء مدينة الجزائر (اقسيوم) لثأودوسيوس •
2 — تنازل فرموس عن تاجه •
3 — أداء مال كثير لثأودوسيوس •
4 — اعطاء رجال رهنا لتنفيذ مواد الصلح •

ذهب ثأودوسيوس بعد الصلح الى قيصرية ليجددها وأخذ أعوان فرموس بها بالقتل والجلد • وحاول فرموس تجديد الثورة فلم يفلح • ولما أيس خرج مشرقا لينجو بنفسه • فراصده الرومان ، فعاد الى وطنه وأوقد نار الثورة من جديد . وجمع نحو عشرين الفا هزم بها ثأودوسيوس ففر في جناح الظلام وجمع عساكره بعيون بسام • واشتد غيظه على من لم يثبت منهم في المعركة فقتل فريقا وحرق آخرين بالنار • وجمع الباقين بسطيف ونظمهم تنظيما حسنا •

كان رجل بربري يدعى اغماسن رئيسا لقبيلة تقطن جنوب جرجرة • وكان هذا الرئيس قد أعان بقبيلته فرموس •

في سنة (375) ذهب ثأودوسيوس الى تلك القبيلة وأرشى رئيسها ليقبض له على فرموس • فلم يخف على فرموس ضعفه وعجزه فانتحر ، ولم يجد اغماسن الا جثته فوجهها على بعير لثأودوسيوس •

قد يكون اغماسن خائنا لفرموس لما عرف به رؤساء البربر من التخاذل • والظاهر عندي انه غير خائن ، بل هو سياسي حاذق لانه علم عجز فرموس وضعف قبيلته عن المقاومة وان الرومان سينتقمون منه ومن قبيلته . فقبل رشوة ثأودوسيوس ليكون له فضل على الرومان فيأمن على نفسه وقبيلته •

فرموس من رجال البربر المعدودين • وقد مازجه شيء من الخلق الروماني فكان محبا للرفاهية متمتعا بالملذات كأنه قيصر • ومع ذلك قاسى في سبيل الاستقلال البربري أهوال الحروب ثلاث سنين •

فرموس وتقفار يناص ويوغورطة ومصينيسا رجال متشابهون في الجلد ومقارعة الاهوال وعدم الخضوع للعدو وقوة الرجاء في النصر • ومن لم يفلح مات شهيدا في سبيل الاستقلال •

هكذا انتهت حياة فرموس أما أخوه جلدون فقد بقيت العلائق حسنة بينه وبين ثأودوسيوس ، والمكاتبة سائرة بينهما . وكانت له بنت تدعى « صلفينة » ربيت مع ابناء ثأودوسيوس . وتولى هو خطبتها لبعض قرابته فزوجها أبوها ، وأصبحت بالقسطنطينية . وتقوت بذلك العلاقة بين الزعيم البربري والامبراطور الروماني .

وفي سنة (387) سمي جلدون رئيسا أعظم على فيلقين رومانيين وفي سنة (395) توفي ثأودوسيوس . واقتسم مملكته ابناه ارقاديوس على الجهات الشرقية قاعدته القسطنطينية وهنوريوس على الجهات الغربية قاعدته رومة .

هنالك تبين ان جلدون لم يكن محبا للرومان رغم حظوته عند امبراطورهم . وأعلن الحرب على هنوريوس . وقطع عن رومة ما كانت تستورده من حبوب افريقية . وعطله بقرطاجنة .

تهيأ وزير هنوريوس الى حرب جلدون وتهيأ الدوتنسيون لنصرة جلدون . وشقي الكاثوليك اذ ذاك لانهم من دعاة السادة الاجنبية .

وفي هذا الحين ذهب مسيزال الى ايطاليا ولم يعلم مراده فظنه جلدون يتجسس عليه للرومان ، فقتل له ولدين ، وتظاهر بخضوعه للامبراطور .

وجد وزير هنوريوس في قتل ولدي مسيزال أحسن فرصة للانتقام من جلدون . فكلف مسيزال بحربه وأعطاه خمسة آلاف جندي .

وكان لجلدون من الجنود سبعون ألفا . وتقابل الاخوان بجيوشهما نواحي تبسة . وأعجب جلدون بكثرته فلم ينظم جيشه وخفي عليه ان النظام هو القوة . فانهزم جمعه وفر هو قاصدا

القسطنطينية • فأدركه شيعة أخيـــه بطبرقة ، وجاؤوا به اليه فأودعه السجن • فعجل جلدون أيام نحسه وانتحر بعدما ملك اثنى عشر عاما •

بعد انتحار جلدون وجهت رومة الى قرطاجنة واليا ليحوز لها أملاك جلدون وأبيه من أراض وأموال وذخائر • وكانت كثيرة جدا خصص لادارتها نائب خاص •

هكذا انتهت حياة جلدون ، أما مسيزال فانه أعاد افريقية تحت السيادة الرومانية • ثم توجه الى ميـــلان بايطاليا طمعا في ان يعطى منصب أخيه جلدون جزاء انتقامه من جنسه لقتل ولديه وخدماته للرومان • ولكن وزير هنوريوس لم يجازه جزاء العاملين المخلصين بل جزاء الخائنين السافلين فقتله غريقا في المـــاء وهو ينظر اليـــه • وقد أصاب هذا الوزير في قتل مسيزال وجـــه الصواب في خدمـــة دولته • فانه لو منح هذا البربري مطلوبه لسلك سبيل جلدون • بل انـــه سبق جلدون الى كراهية الرومان اذ كان فيصف أخيه فرموس •

22 ــ سقوط حكومة الرومان بالجزائــر

ابتدأت علاقة الرومان بالجزائر منذ سنة (213 ق•م) على عهد صيفاقس وتعرفوا بالتراب الجزائري منذ سنة (104) بعد يوغورطة • وتصرفوا في التراب النوميدي منذ سنة (46 ق•م) بعد يوبا الاول • وتم لهم الاستيلاء على الوطن الجزائري سنة (42 م) بعد بطليموس • فكانت المدة بين ابتداء علاقتهم بالجزائر واستيلائهم عليها خمســا وخمسين ومائتين من السنين •

وفي سنة (430) انهدم سلطانهم على ايدي الوندال ، فكانت مدة حكومتهم بالجزائر ثمانية وثمانين وثلاثمائة من السنين •

ولم تكن هذه المدة ــ على طولها ــ كافية لتثبيت قدم حكومة الرومان بالجزائر • فان البربر ما انفكوا خلال هذه المدة يعربون عن

كراهيتهم للرومان بالقول والفعل • فمن أقوالهم المأثورة في ذلـك : « نقبل رومة في افريقية بشرط ان تضيفها اليها » ومن أفعالهم كثرة ثوراتهم التي لم تنحسم مادتها من عصر تقفاريناص الى عصر جلدون •

وقد ظلت جهات محافظة على استقلالها وسط الحكومة الرومانية وهي جبال أوراس وجرجرة ووانشريس ، وقد كانت هذه الجهات هي مادة تلقيح الحـركة الاستقلالية • ومـن وصايا بعـض السياسيين الرومانيين : « لا تتم طاعة أية أمة ما دامت حولها أمم غير مطيعة • واذا أردت ان تحمل أمة على الاستعباد فانزع من بين عينيها منظر الحرية » •

وقد عد بعض المؤرخين مـن الاغلاط الرومانية تركهم لهـذه الجهات استقلالها • وعندي ان هذا يعد من الرومان عجزا لا غلطا • فانهم ما كانوا ليمنوا على البربر بمساواتهم لهم في الحقوق فكيف يتركون لبعضهم استقلالهم لو وجدوا الى ذلك سبيلا ؟

واذا بحثت عن علة سـقوط حكومة الرومان بالجزائر فلن تجد لذلك غير ضعف الحاكم ونفور المحكوم منه •

اما ضعف الحاكم فهو ضعف مادي وأدبي • وأما نفور المحكوم فبعضه ناشىء من الطبيعة البربرية وبعضه من معاملة الرومان • ونحن الآن نوضح هذه النقط بايجاز :

أ — ضعف الرومان المادي : ظهر هذا الضعف في السلطة المركزية والجندية والعمران •

1 — اما السلطة المركزية فقد كانت تنتابها بين آونـة وأخرى — علاوة على الحروب الخارجية — الفتن الداخلية الناشئة من تنافس العظماء عـلى عرش الامبراطورية • وامتاز عصـر ما بـين سنتي (192 — 270) بتداخل الجنود في اسناد الامبراطورية لمن وافق هواهم حتى عرف بعصر الفوضى • وبلغ مـن التلاعب بها أن انتقل مركز

السلطة من رومة الى قرطاجنة سنة (237) على عهد غرديانس الاكبر ، وبقي سرير الملك شاغرا بعد سنة (251) مدة عامين .

وفي عصر ديوقلطيانس بلغ من عجز السلطة المركزية أن قسمت الممالك الرومانية أربعة أقسام على رأس كل قسم متصرف مطلق .

وما زال سرير الامبراطورية يطفو ويرسب حتى جلس عليه ولنتنياس الثالث سنة (423) وكان غلاما ابن ست سنوات ، فقامت أمه مقامه . وكان بونيفاس واليا عاما بافريقية حاذقا في ادارته مخلصا لدولته . وله منافس يدعى ايتيوس ، وهو قائد عام . فأوغر عليه صدر بلاصيدية أم الامبراطور الصبي ، وروج عليها انه عازم على الاستقلال ، وقال لها : ارسلي اليه ليحضر لديك ، فان امتنع فتلك آية صدقي . وأرسل اليه أن الامبراطورة تريد قتلك . فلما أرسلت اليه لم يحضر ، واذ ذاك ايقنت صدق ايتيوس ، فعزلته سنة (427) فرفض عزلها . ووجهت اليه الجنود ، فهزمها . ودخل الوالي والامبراطورة في حرب ، ولما خشي الغلب راسل الوندال في الاعانة على أن يمنحهم من وادي مساغا الى آخر ما يملك الرومان بالشمال الافريقي غربا . فصادف ذلك هوى في نفوس الوندال ولبوا مسرعين .

2 — واما الجندية فأخذ شأنها يضعف منذ امبراطورية سبتموس سويرس اذ أذن للجنود المرابطة على الحدود بالاقامة مع أزواجهم خارج المراكز الرباطية بصفة مستمرة ، حتى أصبحت تلك المراكز اما مختزنات للسلاح والمؤن واما ساحات لتمرين الجند .

وفي سنة (237) انتصب غرديانس الاكبر امبراطورا بقرطاجنة باعانة الفرقة الثالثة . فلما انتصر عليه مكسمينوس انتقم منها . قال مرسيي : « وربما قضى عليها لمساعدتها غرديانس » .

وكما كان لبعض الاباطرة يد في ضعف القوة العسكرية بالجزائر كان للزمان أيضا يد في ذلك . فان الجنود بطول اقامتها في هذا الوطن ومُنح الاراضي لها عشقت الحياة الفلاحية . وأصبحت تنافس الاغنياء في تعمير الحقول وتشييد القصور ، فابتعدت بذلك عن الصفات الجندية .

3 — واما العمران فقد كان لضعفه سببان : أحدهما تطلع الاعضاء البلديين لمجلس الشيوخ ، وبعد تسنمهم لذلك المنصب تقل عنايتهم بالشؤون البلدية ، ويعفون من الاداء على أملاكهم الواسعة . وثانيهما النزاع الواقع بين المذاهب المسيحية . وقد مر ان من المسيحيين طائفة كانت تجوب البوادي لنسف العمران واعدام الطبقة المثرية من البلاد .

ب — واما ضعف الرومان الادبي فذلك انهم وجدوا بالجزائر أرضا طيبة التربة ويدا ناشطة في العمل ، فاستغلوهما جميعا . وبلغوا بهما أقصى درجات البذخ والنعيم ، فانغمسوا في الملاهي والملذات ، حتى ان الديانة المسيحية ــ على ما فيها من تهذيب للنفوس وتزهيد في الدنيا ــ لم تصدهم عن ذلك . وقد حدث أسقف قرطاجنة القديس قبريان (248 — 258) عن أكثر أساقفة عصره بانهم كانوا سراقا منهمكين في اللذائذ مرابين الى غير ذلك من الصفات الذميمة . وقد جاهد القديس اغسطين في تقويم الاخلاق جهادا أكبر ولكن الامر قد أدبر وفساد الاخلاق عم وانتشر فلم يكن لكلامه بالنفوس كبير أثر واذا ذهبت أخلاق أمة فبشرها بالزوال

وانما الامم الاخلاق مابقيت وان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ج — واما نفور البربر الطبيعي فان هذا الجنس سقيت طينته بماء الحرية وعجنت بيد الشدة وجفت بريح الثورة ، فليس في وسعه

ان بخضع للسيادة الاجنبية مهما طال أمدها عليه ، وامتدت عروقها بوطنه ، وكثرت سكاكين حضارتها لتقليم أظفار بدويته ، وفيما سقناه من أحاديث الثورات البربرية ما يغني عن الاسهاب في بيان هذه الحقائق •

د — واما نفور البربر الكسبي فقد رأيت ما كان للرومان عليهم من التفوق والاستعباد • الامر الذي كان يلقح دائما نفورهم الطبيعي • ولا أزيدك في انارة هذه الحقيقة عما تقدم غير كلمة واحدة أنقلها عن بيروني ، وهي لا تخرج في معناها عما سبق • قال هذا البحاثة : « والاماكن التي كان للرومان بها سلطة حقيقية وقدم راسخة لا يعامل البربري فيها الا للانتفاع منه » •

هذه أصول علل سقوط حكومة الرومان بالجزائر • وقد أكثر المؤرخون في هذا الموضوع من الابحاث والاستنتاجات • وقد لخصنا لك في هذا الفصل زبدة أقوالهم الصحيحة ، وأعرضنا عن تتبع ما كان لهم من أقوال ساقطة وأفكار سقيمة خشية الاطالة من غير كبير فائدة • والمطلع على كلامهم يرى فيه غرضين واضحين : أحدهما حمل القارىء على الاعتقاد بعظمة الرومان الى درجة أن يدهش من سقوط استعمارهم ، وثانيهما تحذير قومهم من الفرنسيين من الوقوع فيما وقع فيه الرومان • وكلا هذين خارج عن غرضنا من تاريخ الجزائر •

23 — الحضارة الرومانية والبربر

كانت لبعض الاباطرة عناية بغرس الحضارة الرومانية بالجزائر • وأشدهم عناية بذلك ادريانس وسبتموس سويرس وقسطنطين • ويقول بعض المؤرخين : ان الرومان أكملوا حضارتهم بالجزائر حتى أصبحت لا فرق بينها وبين حضارة رومة • ويستدل لذلك بانه زمن طريانس

صار من يحكم عليه بالنفي من رومة يمنع من افريقية لما بين الوطنين من المشابهة في الحياة والرفاهية .

ونحن لا نتازع في وجود حضارة رومانية بالجزائر شبيهة بحضارة رومة . وانما نبحث عن هذه الحضارة هل كانت خاصة بالرومان أم أن البربر أقبلوا عليها ؟

اختلفت أقوال الباحثين من المؤرخين ازاء هذه النقطة وانقسموا ثلاث فرق :

1 — فرقة تقول : كل ما كان بافريقية الشمالية من بناءات وفلاحة وسائر وجوه العمران انما كان من البربر ، أخذوا الاساليب عن الرومان وعمروا لانفسهم . وزعيم هذه الفرقة هو لويس بيرتران . ومما قاله بيرتران : ان البربر أقبلوا على الحضارة الرومانية أكثر مما أرادت منهم رومة ، وان افريقية اللطينية لم تزل قائمة الى يومنا هذا ، لم ينسخ ظلها نور الاسلام اذ أنه انما أتاها بدين ولم يأتها بحضارة ، وانه لم تقع معارضة بين البربر والرومان مع كون السيادة للرومان لا سياسيا ولا دينيا ولا اقتصاديا .

وهذه أقوال سخيفة . وقد تعرض بيروني لردها . أما أنا فلا أطيل الفصل بنقض أمثال هذه الاقوال ، وكونها صادرة عن فكر لويس بيرتران كاف لسقوطها . واذا كنت تجهل هذا الرجل — رغم كونه رئيس المجمع العلمي الفرنسي — فهو الذي قال فيه أحد الكتاب الفرنسيين وأجاد : « اذا أردت الحقيقة في كلام بيرتران تجدها في نقيض ما يقول » .

2 — وفرقة تقول : ان الحضارة الرومانية بالجزائر مركبة من أيدي واذهان الرومان والبربر ، وان العنصرين كانا مشتركين في الاحساسات الدينية والسياسية والفوائد الاقتصادية ، وان رومة تداخلت في أخلاق البربر فغيرتها تغييرا معتبرا .

والتاريخ الصادق يشهد لخلاف هذا الرأي أيضا : فان البربر ــ وان عملوا في تكوين الحضارة الرومانية بوطنهم ــ انما كانــوا بصفة عملة مجبورين • والذين لم تستطع يد الرومان ان تنالهم بالقهر لم يعملوا شيئا في هذه الحضارة • وقد رأيت أن البربر كانوا دائما خلاف الرومان في الدين وثائرين على سياستهم ، وانهم كانوا محرومين من الفوائد الاقتصادية ، وان اخلاقهم لم تزل بحالها فان أكثر القائمين بالثورات كانــوا ممن عرفوا الحضـــارة الرومانية واخذوا منها ما لا يضر بقوميتهم •

3 — وفرقة ــ منها مرسيي وفرنال ــ تقول : ان البربر لم يقبلوا على الحضارة الرومانية ، وانها ذهبت بذهاب سلطانهم • وهاك أهم حجج هذه الفرقة :

1 — مدة وجود الرومان بافريقية ــ على طولها ــ لم تنقطع الثورات ، ولم يفتأ البربر فيها مدافعين عن ديارهم وعوائدهم ، ولم توجد أية قوة تنزع من قلوبهم حب التمتع بالاستقلال •

2 — لم يوجد من البربر من أعان الرومان ، وما كان مــن مسيزال فانما كان انتقاما من أخيه الذي قتل له ولدين لا حبا في الرومان • ويوضح لك ذلك انه كان حارب الرومان مــع أخيــه فرموس ، وانهم لم يجازوه على اعانته لهم على جلدون جزاء المعين المخلص •

3 — عدم انتشار اللغة اللطينية بين البربر حتى آخر عصر الدور الروماني اذ كان عصر القديس أغسطين الولاة الاداريون والرؤساء الدينيون يحتاجون الى ترجمان بينهم وبين البربر •

4 — لم يبق من مدنية رومة غير الخرابات والاحجار المنقوشة ، ولو أثرت رومة في البربر حقيقة لبقي من حضارتها أشياء أخر غير الخرابــات •

وهذه الفرقة هي ذات القول الصحيح والحجة القويمة ، هي التي صدقت التاريخ ولم تتأثــر بدعاية ممجدي الرومان ومكبري شــأنهم •

قال بيروني : ويمكن اسناد سقوط الحضارة الرومانية بافريقية الى ثلاثة أسباب :

1 — فساد الاخلاق الرومانية ، وذلك لكثرة الملاهي والمنتزهات •

2 — نقص الرومان الذين بيدهم تسيير الحضارة ، وذلك ان كثرة الملاهي تضعف اليد العاملة فيقل الفلاحون والنوتيون وغيرهم•

3 — وجود الديانة المسيحية ، وذلك بما حدث فيها من الاحزاب المتباغضــة •

قال بيروني : « والسبب الحقيقي لسقوط الحضارة اللطينية من افريقية هو عدم استقلالها استقلالا يحفظ بقاءها بعد سقوط رومة » وفي هذا الكلام شيء من الابهام • فان أراد من الاستقلال استقلال الرومان العاملين على نشرها سياسيا واداريا فهذا لا يكفي لحفظها من الســقوط لان الجنس الاصلي بهذا الوطن غير مقبل عليها اقبــالا يحفظها بعد الرومان • فان قال : ان الرومان لو استقلوا بافريقية لبقيت لهم سلطتهم وحضارتهم ، ولم يضرهم ما يصيب الامبراطورية برومة قلنا ان سلوكهم مع الجنس الاصلي لا يضمن بقاء سلطتهم • بل لو استقلوا عن رومة لتعجل سقوطها • وهذا بونيفاس لما أراد الاستقلال احتاج الى الاستعانة بالوندال • على ان للدول مثل الاشخاص أعمارا تنتهي بانتهاء آجالها طالت أو قصرت •

وان أراد من استقلال الحضارة اللطينية بافريقية الشــمالية ان تكون بيد الجنس البربري فصحيح ان تبقى بعد سقوط رومة كما بقيت حضارة قرطاجنة بعد سقوطها • ولكن الرومان ليس غرضهم من

الاستيلاء على الشمال الافريقي نشر حضارتهم به حتى يتخذوا الوسائل اللازمة لقبول البربر اياها • وانما كان غرضهم توسيع دائرة نفوذ رومة ، وتوزيع ابنائها على المستعمرات لكسب الثروة التي عزت عليهم بوطنهم ، وجلب نتائج تلك المستعمرات الى ايطاليا القاحلة •

واذن نقول : ان السبب الحقيقي لسقوط الحضارة اللطينية بالجزائر هو عدم اقبال البربر عليها ، وليس عدم اقبالهم عليها لآفة في طباعهم • فانهم أقبلوا على حضارة قرطاجنة قبلها • وبقوا محافظين عليها حتى جاءهم العرب بحضارة سامية حديثة جرت ذيل النسيان على حضارة سامية قديمة • وعدم اقبالهم على حضارة رومة يرجع الى الاسباب الآتية :

1 — ترفع الرومان عن مخالطتهم • قال بيروني : « وكان الرومان لا يخرجون عن وظيفتهم السياسية والادارية ، ويترفعون عن مخالطة البربر • ومن البربر من كانوا يتجنسون بالجنسية الرومانية ، ولكنهم يجدون — بعد تجنسهم — الرومان متمسكين بترفعهم عن مخالطتهم » •

2 — سياسة الضغط التي سلكها الرومان مع البربر ، وذلك بانتزاع اراضيهم وسلب حقوقهم وجبرهم على العمل في أرضهم لفائدة غيرهم • فالبربر الذين تحت الاستعباد الروماني ذهبت مواهبهم في خدمة الرومان ، والذين سلموا من ذلك الاستعباد نفروا من كل شيء روماني •

3 — اهمال الرومان للبربر ، فلم يعتنوا ببث الاخلاق الفاضلة بينهم وتحويل عوائدهم • اذ كان غرضهم من الاستيلاء الفوز بنتائج الوطن وخيراته •

ومن ههنا نعلم ان البربر لم يمتزجوا بالرومان ويندمجوا فيهم • ولكن لا ننكر وجود شواذ وقذتهم الحضارة الرومانية وتأثروا بساداتهم

في لغتهم وآدابهم ونظام حياتهم • غير ان ذلك لا يعد شيئا بالنظر لطول اقامة الرومان بينهم • بل ان طول اقامتهم بالوطن البربري أثر فيهم أنفسهم حتى صاروا متميزين عن اخوانهم برومة •

والخلاصة ان استيلاء رومة على الجزائر انما أفاد الرومان ولم يفد البربر لا علميا ولا أخلاقيا ولا اقتصاديا الا عرضا • بل انــه بعكس ذلك أضر بهم • ولولا ازعاج رومة لهم واسقاطها لدولهم لكان يكفيهم ما أخذوه عــن قرطاجنة • وفي مواهبهم الفطرية ما يهيؤهم لترقيته • فان البربر من أغنى الامم رجالا في صفاء الاذهان وقــوة الجنــان •

24 ــــ ذكر اباطرة رومة مدة الاستيلاء على الجزائر

لم تزل رومة منذ تأسيسها عاصمة الدولة الرومانية الى أن جاء قسطنطين فاختار ان ينقل سرير الملك الى بيزنطة • فانتقل اليها سنة (330) وكان له ثلاثة أبناء اقتسموا المملكةالرومانية بعد وفاته • ثم مات منهم اثنان فاستقل الثالث بالمملكة •

ولم تزل المملكة الرومانية بين انقسام واجتماع حتى سنة (395) حيث تم في هذه السنة انفصال العاصمة الشرقية عن العاصمة الغربية •

والجزائر لم تزل تابعة لرومة العاصمة الغربية الا سنة واحدة تبعت فيها القسطنطينية العاصمة الشرقية •

وهاك اسماء أباطرة هذه المملكة في جدول استخرجته من ابن خلدون (2 : 199ـــ216) وقبل ان أرسم لك الجدول أقدم بين يديك ملاحظات :

1 — ذكر ابن خلدون اختلافا في أسماء بعض الاباطرة ومدتهم •

ونحن نقتصر من ذلك على ما كان متحدا أو قريبا مما في كتب الافرنج • لان ذلك التاريخ الهام قد عبثت به الايام فكثر فيه التحريف خصوصا في الاعلام •

2 — اقتصر ابن خلدون على ذكر مدة أولئك الاباطرة • ونحن نتمم الجدول ببيان ابتداء ولاية كل واحد منهم ونهايتها بالتاريخ الميلادي مأخوذا من كتب الافرنج • وما يوجد من اختلاف في مدة ولاية بعض الاباطرة بين ابن خلدون وغيره فذلك مما لا تخلو منه التواريخ •

3 — قد يكون ما نثبته عن ابن خلدون من الاعلام بعيدا عما في غيره • فننبه عليه في تعاليق • وقد يظهر لنا ان ما فيه محرف أو مصحف فلا نثبته في الاصل ولا نهمل التنبيه عليه في التعاليق • وقد يكون بعض التعاليق لفائدة تاريخية •

جـدول الاباطـرة

الامبراطور	مدته	ولايته	نهايته	تعليق
قيصر اكتبياز		27 ق	14 م	1
طباريش	23	14 م	37	2
غانيس	4	37	41	3
قلوديش	14	41	54	
نيرون	14	54	68	4
غلبان	9 ش	68	69	
اتون	3 ش	69	69	5
ابطالس	8 س	69	69	6
اسباشيانس	9	69	79	7
طيطش	2	79	81	
دومتيان	15	81	96	8
نربا	2	96	98	9
طريانس	17	98	117	
اندريانوس	21	117	138	10
انطونيس	22	138	161	
اوراليانس	19	161	178	
كمودة	13	178	192	11
برطانوس	3 س	192		12
يوليانس	2 س		193	
سورس	18	193	211	13
اقطونيس	6	211	217	14
مقرين	1	217	218	15
انطونيش	4	218	222	16
اسكندروس	13	222	235	

(1) لم يذكر مدته ، وقال : ولد المسيح لاثنتين واربعين من ولايته • وغيره يسميه اكتافيوس ، ويقول : ولي سنة 27 ق٠م وهو صحيح في نفسه ، ورواية ابن خلدون معتد فيها بما قبل امبراطوريته حيث انه كان أحد الرجال الثلاثة منذ سنة 42 ق٠م (2) غيره يدعوه طيبريوس (3) غيره يدعوه قليغولا (4) اضطهد المسيحية ، وحرق رومة تلذذا بمنظر الحريق ومات في شهر يونيه (5) فيه أنون بالنون • وهـو تصحيف (6) غيره يدعـوه ويتليوس (7) غيره يدعـوه وسبسيان (8) فيه دومريان بالراء • وهو تحريف (9) فيه برما • وهو تحريف وتصحيف (10) في غيره أدريانوس باسقاط النون (11) قال : في عاشرة ملكه ظهر أردشير بـن بابك أول ملوك الدولة الساسانية من دول الفرس (12) في غيـره برطينكس (13) في غيـره سبتمس سويرس (14) في غيره قراقلا (15) فيـه مفريق • وهـو تصحيف وتحريف (16) المستفاد من غيره ان علمه الشخصي بسيانس ، وبعد امبراطوريته لقب نفسه « مرقس أريل أنطونين » •

الامبراطور	مدته	ولايته	نهايته	تعليق
مخشميان	3	235	238	1
يونيوس	3ش			2
غرديانوس	6	238	244	3
فلفش	6	244	249	4
دقيانوس	2	249	251	5
اورليوس			260	
غلينوس	15	260	268	6
قلوديس	2	268	270	7
اوريليانس	6	270	274	
طافسوس	9ش	274		8
فروفش	7	276	282	9
ديقلادياوس	21	284	305	10
مقسيمانوس				11
غلاريس		305	311	12

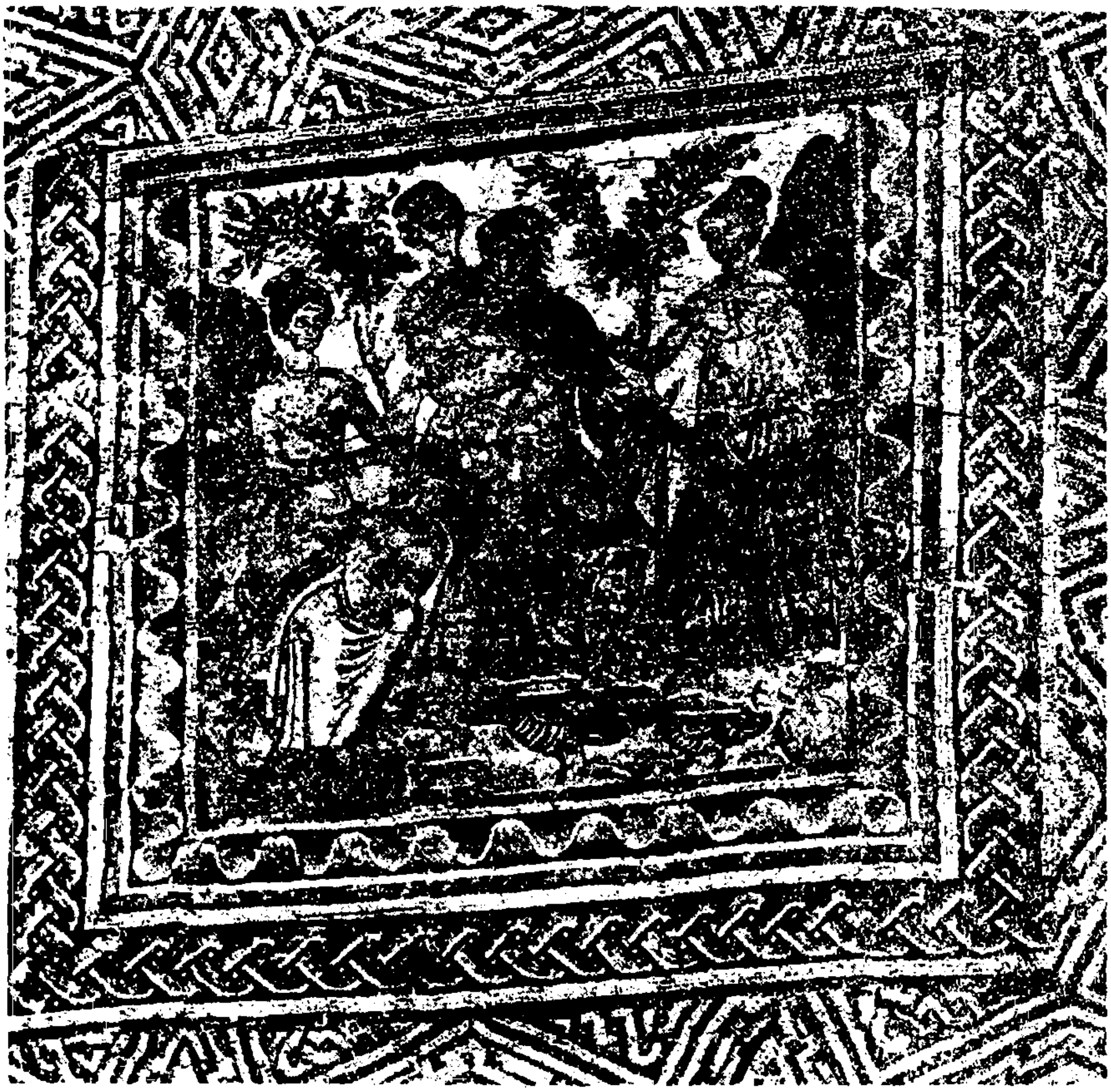
(1) دعى في غيره مكسمينس (2) حكى في اسمه قولين آخرين هما : لوكش ، بلينايوس • ولم أقف عليه في غيره (3) هذا حفيد غرديانس الاكبر الذي بويع بقرطاجنة بعد الكسندر سويسرس المسمى عنده اسكندروس • ولم يذكر غرديانس الجد (4) في غيره فليبس بالباء (5) قال : في أيامه كانت قصة فتية أهل الكهف • وفي غيره فليبس بالباء الملك بقي بعد وفاته شاغرا مدة عامين (6) لم يذكر بين دقيانوس وقلوديس غير امبراطور واحد واختلف نقله في اسمه وفي مدته : سماه بالاسمين الذين في أصل الجدول وبغيرهما مما لا يختلف عنهما الا بزيادة الحروف ونقصها • وذكر في مدته روايات منها ما في الاصل • وفي غيره والريانس ملك بعد شغور الكرسي عامين ، واتخذ ابنه غاليانس شريكا في الحكم • فلما توفي استقل ابنه • ومن هذا يظهر ان أورليوس هو والريانس ، وان غلينوس هو غاليانس ، وانهما شخصان ، وان ما في الاصل من كون مدة غلينوس 15 هو مجموع مدة الاب وابنه (7) فيه فلوديس • وهو تصحيف (8) عند غيره تاكيتس (9) عند غيره بباءين بدل الفاءين ؛ وملكه غير متصل بملك أوريليانس • وجاء بعده خارس ثم هلك وجاء ديوقلطيانس • وقد أهمل ابن خلدون خارس (10) عند غيره ديوقلطيانس (11) حكي في مدته سنة وسبع سنين • ثم ذكر مخشميان ، وانه كان شريك ديوقاريان ، وان ديوقاريان هو ديوقلاديانوس • وعليه فمقسيمانس هو مخشميان ؛ وسياق التاريخ يؤيده • وفي غيره يدعى مكسميانس (12) لم يذكر مدته •

الامبراطور	المدة	الولاية	النهاية	التعليق
قسطنطين	50	312	337	1
قسطوس		337	350	2
قسنطش	24	337	360	3
يوليانوش	2	360	363	
يوبينانوس	1	363	364	4
واليس	4	375	378	
واليطينوس	12	364	375	5
اغراديانوس	3	378	83	6
ثاداسيوس	17	392	95	7
انوريش	15	395	423	8

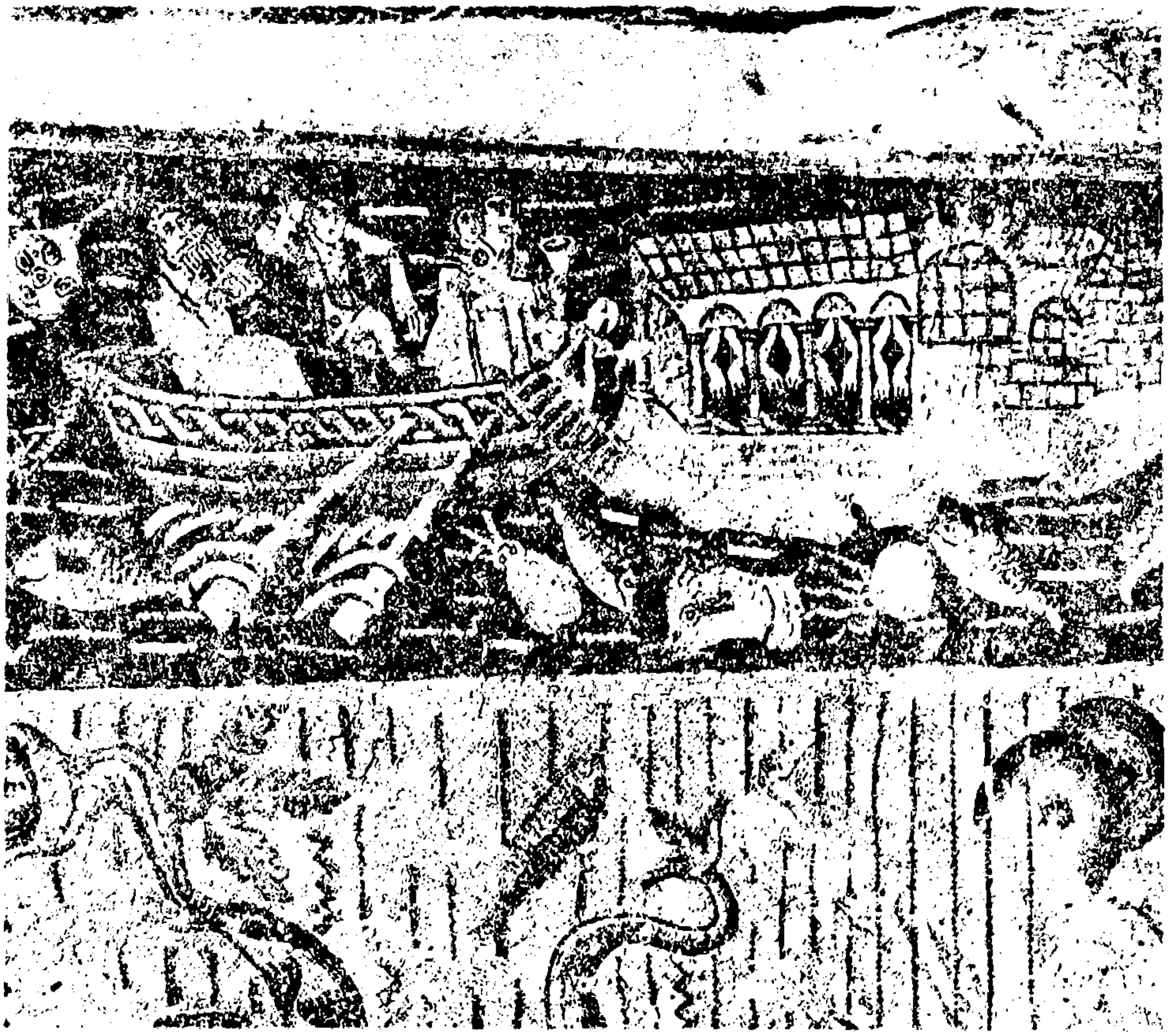
(1) كان والده قسطنطيوس خلورس أشركه ديوقلطيانس في الحكم ، وجعله علــى بلاد غاليا واسبانيا وموريطانيا • فلما توفي سنة 306 خلفه ابنه هذا في منصبه • ثم حارب منافسيه • وملك رومة سنة 312 والمدة التي ذكرها ابن خلدون بعيدة عما في هــذا البيان (2) عند غيره قسطنط • وهو ابن قسطنطين (3) عند غيره قسطنطيوس • وهو ابن قسطنطين كان عــلى القسطنطينية • وبعد وفاة أخيــه استقل بملك القسطنطيبية ورومة (4) فيه يوشانوس • وهو تصحيف (5) يدعى عند غيره ولنتنانس ، وهو أخو واليس ، وتولى الملك قبله (6) عند غيره غراطيانس • وثار عليه رجل يدعى مكسيمس • وملك ايطاليا حتى قتله ثأودوسيوس سنة 388 (7) قال في الخامسة عشر من ملكه ظهر أصحاب الكهف • وعند غيره يدعى ثأودوسيوس ، كان وزيرا كافلا لولنتنيانس الثاني أمبراطور المشرق الذي تولى سنة 378 وبعد قتل مكسيمس جعل مكفوله على بلاد المغرب ، وبقي هو بالقسطنطينية • وفي سنة 392 قتل ولنتنيانس الثاني، ونصب مكانه حاضنه ثأودوسيوس• والمدة التي ذكرها ابن خلدون صحيحة بالنظر لابتداء وزارته اذ كان في الحقيقة هو امبراطور (8) عند غيره هنوريوس ، ومدته أكثر مما ذكر ابن خلدون • وبعد وفاته نصب مكانه ابن اخته باسم ولنتنيانس الثالث ، وفي مدته دخلت الجزائر في يد الوندال •



شكل (24) الممر والقوس الذي نسب الى طريانس
بنيت هذه الابنية في عهد طريانس



شكل (25) موزاييك « الجميلة »



شكل (26) الصيد : لوحة تمثل حمام فينوس

الباب السابع

في ذكرى الوندال ومدل امرهم

ا ــ تمهيــد

القوط (ويقال لهم أيضا : الغوث ــ LES GOTHS) أمة شديدة البأس صعبة المراس • قال ابن خلدون : « كانــوا يعرفون في الزمن القديم بالسيسيين ، نسبة الى الارض التي كانوا يعمرونها بالمشرق ، فيما بــين الفرس واليونان »[1] قال : وكانت لهم حروب مــع الملوك السريانيين من لدن عهد ابراهيم الخليل عليه السلام (كان أواخر الالف الثالث قبل الميــلاد) ثم مع الفرس ثم قهرهم الاسكندر المقدوني وأخضعهم فيمن أخضع من الامم • ومن ذلك الحين اختلطوا بالروم واليونان • هذا ملخص كلامه •

وقال غروت : كانوا في القرن الثالث (ق•م) على شواطىء بحر البلطيق • ثم انتشروا في جنوب جرمانيا وتعددت شعوبهم فاشتهرت منها شعوب هيرول (HERULES) وسويف (SUEVES) والان (ALAINS) وبرغند (BURGONDE) ووندال (VANDALES) قــال : وفي النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد تغلبوا على بلاد مقدونيا وبلاد الاغريق • وانتشروا على ضفاف نهر الدنوب[2] بعضهم جنوبه ، ويسمون القوط الشــرقيين ، وبعضهم شــماله ، ويســمون القوط الغربيين •

(1) ج2 ص234 (2) منبع هذا النهر من الغابة الكحلاء غربي المانيا ، ويمر جنوب المانيا ثم بالنمسا والمجر ، ويفصل بين صربيا والمجر ورومانيا ، وبين رومانيا وبلغاريا وروسيا ويصب بالبحر الاسود .

وفي سنة (376) على عهد الامبراطور واليس هجم الهون من التتر على القوط الشرقيين • فاجتازوا نهر الدنوب • والتحقوا باخوانهم الغربيين • وهجم الجميع على المملكة الرومانية • واستوطنوا تراقية باذن من الامبراطور واليس • ومن هذا الحين انفتحت لهم الطرق في المملكة الرومانية ففي سنة (382) كلفهم ثأودوسيوس وزير ولنتنيانس الثاني بحراسة مجار نهر الدنوب ، وملكهم ولايتين هنالك ، ولما ولي ابنه هنوريوس على رومة ، وكان صغير السن ، استوزر له ستيليقون الوندالي • وكان هذا الوزير متزوجا من بنات أباطرة الرومان • وفي أيام وزارته اجتازت طوائف من القوط حدود ايطاليا • فكلفه هنوريوس بحربهم • فجهز الجيوش ، وكانت جنود مرابطة على نهر الرين لحفظ الحدود ، فاستدعاها ، واستعان بها على حرب تلك الطوائف • انتصر ستيليقون في حربه ، ولكن حدود ايطاليا من ناحية الرين بقيت من غير حراسة ، فاجتاز بها من شعوب القوط السويف والألان والوندال ، وانتشروا بالغاليا • وذلك أول يناير سنة (407) •

وكان ألريك [1] قد حارب بقومه من القوط الغربيين أرقاديوس أمبراطور القسطنطينية • وتم بينهم الصلح على ان يمنح الامبراطور ألريك ولاية اليريا [2] • ولما اصطلح مع امبراطور المشرق أخذ في الغارات على المملكة الغربية ، ودافعه ستيليقون • ولما أعياه أمره عرض عليه رئاسة الجند الروماني على أن يكف غارات القوط • وكان من الرومان من لم يرض سياسة ستيليقون فقتلوه سنة (408) •

غضب ألريك لقتل ستيليقون • فتقدم الى رومة • وحاصرها

(1) سماه ابن خلدون انطرك .
(2) اليريا : وطن جبلي على الشاطىء الشرقي من بحر الادرياتيك .

حصارا قضى على حياة خلق كثير من أهلها • وأخيرا أفرج عنها عوض غرامة كبيرة أخذها • ثم عاد اليها سنة (409) فخضعت له • وتداخل في شأن الامبراطورية • فأسقط هنوريوس لانه لم يسند اليه رئاسة الجند • ونصب مكانه شخصا يدعى اتال • ثم نزل هنوريوس على رغبته • فأعاد عليه كرسيه وعزل اتال • وما زال ألريك على عظمته حتى طمع في فتح افريقية سنة (410) ولكن الزوابع اغرقت اسطوله • فعاد الى ايطاليا وتوفي سنة (411) •

وكان لالريك صهر يدعى اتولف • فقربه هنوريوس وزوجه أخته بلاسيدية وسماه بطريقا • كل ذلك ليعينه على ابعاد أمم القوط عن ايطاليا • فانتقل اتولف بالقوط الغربيين الى الغاليا • وكان بها السويف والألان والوندال • فأخرجهم منها الى اسبانيا • وفي سنة(415) قتل اتولف وخلفه في ملكه وليا • فتوسع في اسبانيا ، وأخرج الوندال الى نواحي غرناطة وجيان من الجنوب الاسباني • فاستقروا بذلك القسم • ونسب اليهم • فصار يدعى « وندلوسيا » وقد صقلته العرب فغيرته الى كلمة اندلس •

2 ـ اصل الوندال

قد رأيت من سياقة تاريخ الوندال عند الافرنج انهم شعب من القوط • وذكر ابن خلدون ان القوط من ماغوغ ابن يافث •

ورواية الافرنج هذه هي الصحيحة عندي لما فيها من الشرح والبيان لاحوال الوندال الى ان استقروا باندلس • وذلك يدل على فضل اطلاعهم في هذه المسألة • فيترجح الاخذ بروايتهم •

وهناك روايتان أخريان حكاهما ابن خلدون :

الاولى انهم من الاغريق • وهم أيضا من يافث • وهاك عبارته :

« ولحق بالاندلس ثلاث طوائف من الغريقيين فاقتسموا ملكها • وهم الابيـــون والشوانيون والفنداش • وباســـم فندلس ســـميت الاندلس » [1] وعبر عن هؤلاء الطوائف بالطوالع •

الرواية الثانية حكاها بقوله : « وقد يقال ان هؤلاء الطوالع كلهم من ولد طوال بن يافث ، وليسوا من الغريقيين » [2] •

وفي كلتا روايتيه نظر : أما الاولى فيبطلها ان الرومان كانــوا يطلقون على الوندال وغيرهم من أمم القوط اسم المتوحشين • ولم يعهد منهم هذا اطلاق في الاغريق • كيف وهم اساتذتهم في العــلوم والحضارة ؟ ولعل منشأ الوهم في هذه الرواية ما ذكره ابن خلدون نفسه من ان القوط اختلطوا بالروم واليونان منذ عهد الاسكندر • فاختلط على صاحب الرواية بعض شعوب القوط بشعوب الاغريق •

واما الثانية فقد أشار الى ضعفها بقوله وقد يقال • ووجــه سقوطها ان أبناء قطوبال استوطنوا الاندلس بعد الطوفان على ماذكره في موضع آخر ، وتقدمت الاشارة اليــه في الباب الثاني • وهؤلاء الطوالع انما نزلوا الاندلس أوائل القرن الخامس للميلاد كما تقدم في سياقة تاريخ الافرنج • وتدل عليه أخبار ابن خلدون •

ومما يرشح الاخذ برواية الافرنج أن أسماء الطوالع عنــد ابن خلدون قريبة من أسماء الشعوب التي صرح الافرنج أنهم من القوط : فالفندلس هم الوندال ، والابيون يظهر أنهم ألان صحفت النون باء ، والشوانيون يظهر أنهم السويف ، ووضع الشــين مكان السين من الشائع ، فابن خلدون نفسه عبر عن الوندال مرة باسم فندلش وأخرى

---

(1) ج2 ص235 وما ذكره باسم طوال ذكره في تفصيل انساب العالم باسم قطوبال ، وذكره في الكلام علــى انساب اليونان والروم باســم طوبال .

باسم فندلس ، والفاء عربت باء فيما يظهر ولكنها صحفت في الطبع نونا ، وكثيرا ما يعرب ابن خلدون حرف (V) باء •

والخلاصة ان الوندال شعبة من القوط يدل عـلى ذلك سياقة تاريخهم ، واتحادهم في الاخلاق حتى أطلق الرومان على الجميع اسم المتوحشين ، واتحادهم ايضا في الدين واللغة •

وقد بقي اسم القوط لبعض شعوب هـذه الامة • وهم الذين أسسوا دولتهم بالغاليا الى أن سـقطت سـنة (507) وانتقلت الى الاندلس وبقيت هنالك الى ان قضى عليها طارق بن زياد وموسى ابن نصير سنة (711) •

أما الوندال فانهم أسسوا دولتهم بافريقية وبقوا بها حتى قضى عليهم الروم البيزنطيون •

٤ ــ ديـانـة الونـدال

كان الوندال ــ كبقية القوط ــ وثنيين يعبدون الشمس والقمر والارض وغيرهن من آلهتهم حتى بلغتهم دعوة المسيحية أواخر القرن الرابع للميلاد •

كانت المسيحية قد انقسم أتباعها الى مذاهب متنافرة متباغضة • ومن بين تلك المذاهب مذهب أريوس • وكان أريوس هـذا لعهد ديوقلطيانس وأدرك دولـة قسطنطين • قال ابن خلدون : وهو كبير تلامذة ماربطرس بطرك الاسكندرية • وكان كثير المخالفة له • فسخطه وطرده • وقال في موضع آخر : « وكان يذهب الى حدوث الابن ــ عيسى عليه السلام ــ وانه انما خلق الخلق بتفويض الاب اليه في ذلك » ولعل المراد من الخلق ما جاء فيسورة المائدة من قوله تعالى :

« واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني ، فتنفخ فيها فيكون طائرا باذني » واذن تكون عقيدة أريوس في عيسى مثل عقيدة الاسلام •

بعد وفاة ماربطرس انتصب اسكندروس مكانه بطركا • فأشاد بكفر أريوس • وكتب بذلك الى جميع النواحي • فبلغ الخبر قسطنطين • فأحضر أسكندروس وأريوس في أساقفة آخرين • وتناظروا أمامه • فمال الى أسكندروس • واذن له أن يشيد بكفر أريوس • وما أقبح تداخل القوة المادية في القوة الفكرية ! وما أعجز فؤسها عن ايجاد قبر يعفي وجودها !

حاول أسكندروس ان يعفي مقالة أريوس فانتشرت على الرغم منه ومن قسطنطين حتى أن كثيرا من الملوك أخذوا بها وانتصروا لها • قال ابن خلدون : « وغلبت تلك المقالة على أهل قسطنطينة وانطاكية ومصر والاسكندرية » •

بلغت المسيحية في أواسط القرن الرابع الى القوط على يد أتباع أريوس • وكان الوندال منهم كلهم أريويين • ويقيمون مراسم دياناتهم باللغة القوطية لا باللطينية • وكانوا على غاية من التعصب لمذهبهم حتى ان جل ما يجده المؤرخ من أحاديث الوندال بافريقية هي اضطهاداتهم للارثذوكس • ومما زاد في تعصبهم واضطهادهم لغيرهم ان ملوك الارثذوكس في نواح أخرى كانوا يعذبون الاريويين أيضا • فكان الوندال ينتقمون لاخوانهم في الدين من أعدائهم الذين تحت سلطانهم • وليست يد السياسة ببعيدة عن تلك الاضطهادات •

4 ـــ استيلاء الونـــدال على الجزائر

ظهرت أمة الهون من التتر وأمم القوط بأروبا • وأخذت تلك الامم تنقص الامبراطورية الرومانية من أطرافها حتى بلغوا قلبها ،

وصاروا يتحكمون في تنصيب الامبراطور • فأصابت أروبا والمملكة الرومانية منهم جوائح الفتن وارتفع الامن وذهب العمران •

والجزائر ــ كبقية الشمال الافريقي ــ كانت في هرج من أجل تنافس الاحزاب المسيحية وثورات بعض المتطلعين الى الاستقلال من البربر والرومان • ولكنها لم تزل أحسن حالا من أروبا وانعم بالا منها •

ولما استقر الوندال بالاندلس اتخذوا سفنا لخوض لجج البحر الابيض المتوسط • فكانوا ينظرون الى شمال افريقية من كثب • ومع علمهم بضعف رومة وجرأتهم على ولاياتها بأروبا لم يجرأوا على افريقية • فبقوا ينتظرون سنوح الفرصة لهم بفتحها ، حتى وجدوا في الكونت بونيفاس تحقيقا لأمانيهم وانجازا لآمالهم •

في سنة (422) سمي بونيفاس واليا على افريقية • وفي سنة (423) توفي هنوريوس ، وتطلع الى خلافته أناس ، ووقعت رومة لذلك في هرج ، وكانت بيلاسيدية أخت هنوريوس بالقسطنطينية ، ومعها ولدها من قسطانس قائد هنوريوس • تزوجته بعد قتل اتولف • وتداخل امبراطور القسطنطينية ثأدوسيوس بن ارقاديوس أخي هنوريوس في عرش رومة • فنصب به ابن عمته بلاسيدية باسم ولنتنيانس الثالث تحت كفالة أمه • وذلك سنة (424) •

لما أفضى الامر الى بلاسيدية فوضت لبونيفاس في التصرف • فخدم دولته خدمة صادقة ، وصار من عظماء الحكومة • فحسده لذلك بعض منافسيه • وقام بدور السعاية به مع بلاسيدية قائد عام يدعى ايتيوس • وأخذ يدس عليه الدسائس معها حتى أصغت اليه وعزلت بونيفاس من ولايته سنة (427) •

كانت المصلحة الشخصية أغلب على بونيفاس من المصلحة العامة •

فلم يمتثل أمر العزل ، ولم يبال بما يصيب دولته من شغبه عليها وهي على فراش الاحتضار • وصممت الامبراطورة على عزله • وعززت أمرها بالقوة العسكرية • فحاربها بونيفاس ، وهزم جنودها • فعادت لحربه في السنة التالية • ووجد هو موقفه حرجا ، البربر أهل الوطن ضده ، ودولته تحاربه ، وارادته أبت من الامتثال للعزل • فأراد أن يستعين على الخلاص من الازمة بالاجنبي • فاستنجد الوندال على أن يمنحهم غرب المملكة الرومانية بافريقية الى وادي مساغا ، ويسلموا له في شرق هذه المملكة ، يبقى به مستقلا [1] فأسرع الوندال الاجابة •

وفي سنة (429) نزل الوندال والسويف والألان وغيرهم من أمم القوط بموريطانيا الطنجية • وانبثوا في الوطن البربري كالجراد المنتشر • قال مرسيي : « وكان عددهم ثمانين ألفا المقاتلون منهم خمسون ألفا » •

وفي هذه المدة كان القديس أغسطين يسعى في الصلح بين بونيفاس والامبراطورة • فأدركت أخيرا غلطها وتحققت الدسيسة • فرضيت عنه وأعادت عليه منصبه ، ولكن بعد نزول الوندال بموريطانيا •

ولما عاد بونيفاس الى منصبه ندم على اتفاقه مع الوندال فأرسل اليهم أن عودوا الى الاندلس ، واخرجوا من المملكة الرومانية ! فلم يسرع الوندال الى اجابته هذه المرة ، بل تمادوا في سيرهم • وعدوا أمر بونيفاس هذا ناقضا لاتفاقهم معه • فلم يقفوا عند حد وادي مساغا ، وتعدوه الى نوميديا • وصدق على سياسة بونيفاس معهم المثل العربي : « لا هنك أنقيت ولا ماءك أبقيت » •

---

(1) اين الثرى من الثريا ؟ أين بونيفاس من خالد بن الوليد (ض) الذي كان قائدا عاما وغازيا منصورا ، فلما عزله عمر (ض) امتثل ورجع تحت لواء أبي عبيدة جنديا مخلصا ؟

ولما رأى بونيفاس تقدم الوندال في الوطن تهيأ لحربهم ، وجمع جموعه • فالتقى الفريقان قرب قالمة • ودارت الدائرة على بونيفاس ، ففر الى بونة ، وتحصن بها • وذلك سنة (430) •

وبعد فراره قسم الوندال جنودهم قسمين : قسما تركوه للاستيلاء على نوميديا ، وآخر وجهوه لحصار بونة • فكان الاول يفتح مدن نوميديا بمساعدة اتباع دونتوس ، ويبطش بالارثذوكس ، وكان الثاني يجمع جثث القتلى في خنادق حول المدينة ليفرق من منظرها المحصورون •

وفي سنة (31) أرسلت بيلاسيدية نجدة الى بونيفاس تشجع بها ، وخرج لقتال الوندال • ولكنه انهزم أمامهم • فدخلوا المدينة ، ونهبوها ، وحرقوها • وايس بونيفاس من المقاومة ، فترك الوطن لفاتحيه ، وذهب الى الامبراطورة ، فأكرمته ، ورفعت منزلته ، ولم تؤاخذه على خسارة وطن هو حياة رومة لعلمها بأن لها يدا في ذلك باصغائها للوشاة •

وبفتح بونة وذهاب بونيفاس تم للوندال فتح الوطن الجزائري (موريطانيا ونوميديا) وذلك في مدة عامين •

ويجب ههنا أن تتذكر سير الاستيلاء الروماني على الجزائر • فقد تقدم أنهم تعرفوا الى هذا الوطن سنة (213) ق•م وشرعوا في تحقيق استيلائهم عليه من سنة (46) ق•م الى سنة (42) للميلاد • أما الوندال فلم تتقدم لهم معرفة به ، ولم يمكثوا في فتحه غير عامين • وهذا مما يبعث على البحث في سبب الفرق الكبير بين سير الاستيلاءين •

لا يصح أن ترجع سرعة الاحتلال الثاني وبطء الاول الى تفوق الوندال على الرومان في السياسة والجندية • فان الواقع يشهد

لخلاف ذلك • فلنبحث عـن العلة في غير القـوة الحربية والحنكة السياسية •

يقول بعض المؤرخين : ان الذي سـهل على الوندال احتلال الوطن البربري وقرب أمده هو اتفاقهم والبربر طبعا ودينا • ذلك بأن طبع الجميع حب الثورات وهدم الحضارات ، ودين الجميع كان على خلاف دين الرومان الارثذوكس • وليس ذلك عندي بصحيح • فان البربر انما كانت ثوراتهم حبا في الاستقلال وتطهير هوائهم من سموم الانفاس الاجنبية ، وكانوا أكثرهم وثنيين والمسيحيون منهم كانوا غير متفقين مذهبا مع الوندال •

ومن المؤرخين من يعترف بوجود فروق بين البربر والوندال من شأنها ان توجد الكراهية والبغضاء بين الامتين • وهذه الفروق هي : اللغة ، القوانين ، الاخلاق ، العوائد ، اللون • ويعلل هذا المؤرخ سرعة احتلال الوندال بأمرين : انتشار الفوضى في الوطن ، وحسن سياسة القائد الوندالي •

وليس هذا بصحيح عندي أيضا • أما الفوضى البربرية فانما هي من حيث فقد أمير عام يلتفون حوله ، لان الرجال الذين يصلحون لذلك قد قضت عليهم رومة ، ولا يمنع ذلك من وجود رؤساء عـلى عشائر يقومون بالدفاع عن وطنهم وتعطيل سير الوندال به ، وأما حسن سياسة القائد الوندالي فليست هي التي استمالت اليه البربر ، وانما نفعته في جمع كلمة من تحت رايته من قومه وتثبيت قدم دولته بعد الاحتلال •

وعندي أن لا سبب لسرعة احتلال الوندال غير مساعدة البربر لهم • وعلة مساعدتهم أنهم كانوا ينفرون من سلطة رومة ، ويعشقون الاستقلال • وقد حاولوا مرارا أن يبلغوا مرادهم من طرد الرومان

والاستقلال بوطنهم فلم ينجحوا • فلما وجدوا في الوندال نصيرا على طرد الرومان أعانوهم مكتفين بهذا الشطر من غايتهم ، اذ رأوا أنهم عاجزون عن الشطر الآخر وهو الاستقلال • فاستبدلوا احتلالا باحتلال ، تحقيقا لاحد المقصدين ، وتلك قاعدة ارتكاب أخف الضررين •

5 ـ تأسيس حكومة الوندال

استولى الوندال على نوميديا وما يليها غربا • واتخذوا بونة عاصمة مملكتهم • وأيست رومة من ارجاع ذلك الوطن بالحرب ، لما كانت عليه من الاختلال والانحلال • ورأى الامبراطور أن يحافظ على ما بقي له من تراب افريقية • فأرسل رسولا الى جنسريق قائد الوندال وملكهم ، ليفاوضه في الصلح • وفي سنة (35) تم الاتفاق بين الفريقين حسبما يلي :

1 ـ يدفع أمير الوندال لامبراطور رومة غرامة سنوية •
2 ـ لا يتجاوز ملكه حدود نوميديا شرقا •
3 ـ يعطي ولده هنريق رهنا على الوفاء •
4 ـ يعمل بهذه المعاهدة لمدة ثلاثين سنة •

قضت هذه المعاهدة ببقاء حق امبراطور رومة في الجزائر وقبول جنسريق لان يكون تحت سيادته • فأظهر له حسن الولاء ، وحافظ على مواد المعاهدة • وبعد اربع سنوات وثق الامبراطور باخلاصه ، فسرح له ولده • وذلك ما كان ينتظره جنسريق لتوسيع مملكته بفتح البروقنصلية (تونس) •

لم يبق لجنسريق بعد رجوع ولده ما يحمله على احترام المعاهدة • واتفق ان كان الرومان اذ ذاك مشتغلين بحرب القوط • فلم يهمل هذه

الفرصة • وذهب الى قرطاجنة ، ففتحها من غير عناء • واستولى على البروقنصلية • وتم له بذلك الاستيلاء على تونس والجزائر ومراكش وذلك سنة (439) •

لم يستطع ولنتنيانس الثالث أن ينتقم من جنسريق لتعديه على المعاهده • وقديما عد الرومان مدافعة القرطاجنيين لهجوم مصينيسا خرقا لمعاهدة (201) ق•م وهكذا ترى القوي يعد مدافعة الضعيف عن حقه تعديا ، والضعيف يداس حقه فيتظاهر بالحلم والسماح •

رأى ولنتنيانس ضعفه أمام قوة جنسريق • فلم يحتج بالمعاهدة التي بينهما • واكتفى بتجديد معاهدة أخرى معه • فوقع الاتفاق بينهما بقرطاجنة سنة (42) على ان يسلم الامبراطور للامير من سرت شرقا الى تبسة وشق بنارية وباجة غربا ، ويسلم الامير للامبراطور بقية نوميديا وجميع أقسام موريطانيا •

قضت هذه المعاهدة بعود الجزائر الى السلطة الرومانية • ولكنها سلطة ضعيفة ؛ وقصيرة العمر ، اذ قضى عليها جنسريق سنة (55) وما قبل هذه المعاهدة الا بنية القضاء عليها ، حيث أنه استبدل وطنا هادئا غنيا لسلامته من جوائح الثورات بوطن قضى على عمرانه تعدد الفتن وأنهكه تهاطل الارزاء والمحن •

في سنة (450) توفيت بلاسيدية • وبقيت المملكة بيد ابنها ولنتنيانس • فعبث بها عبثا كبيرا • وأخيرا قتل سنة (54) وانتصب قاتله مكانه • وزاد ذلك في اضطراب أحوال رومة • وكان جنسريق يراقب أحوال أروبا • فرأى في اختلال رومة ما شجعه على غزوها • فجهز جيوشه من الوندال والبربر • وقصدها ففتحها سنة (55) من غير عناء ولا تعب • وسرح جنوده فيها للنهب اربعة عشر يوما • ثم عاد الى قرطاجنة ظافرا منصورا يحمل غنائم جليلة واسارى من أعيان الرومان •

من ذلك الحين انتهت بقايا سيادة الرومان على شمال افريقية • واستقل به الوندال • وعدوا أنفسهم سادة هـذا الوطن • فكانوا يؤرخون بايام ملوكهم • ولم يقبل الملوك القابا تشريفية من رومة لئلا يعدوا كموظفين رومانيين ، وصاروا يرسمون صورهم على النقود •

وكانت المملكة الشرقية القوية تنظر الى أختها أو أمها المملكة الغربية بعين الحنان والشفقة • فأراد امبراطورها ان يتداخل في شؤون الوندال تارة لفائدة رومة وأخرى لفائدة الارثذوكس • ولكن ملوك الوندال كانوا يرفضون تداخله بكل شمم •

والخلاصة ان جنسريق كان في بداية استيلائه يتظاهر باحترام دولة الرومان • وبعد رجوعه من رومة رفع غشاء السيادة الرومانية • وبقي يلين القول لامبراطور القسطنطينية لقوته • فلما جاء خلفاؤه تمموا استقلالهم ، وطهروه من شائبة أي تداخل أجنبي •

وقد علمت ان استيلاءهم على الجزائر فيما بين سنتي (30ـ42) كان تحت سيادة الرومان الاسمية • وعادت الجزائر الى الرومان من سنة (42) الى سنة (455) ومن هـذه السنة استقل الوندال بالجزائر وغيرها • وجعلوا عاصمتهم قرطاجنة •

6 ـ نظام دولة الوندال

بعدما استقر جنسريق ببونة أخذ ينظم شؤونه ويستأصل جرثومة الخلاف عليه • كان له أخ يدعى غندريك ، وكان هو رئيس الوندال بالاندلس • فقتله هنالك ، وأودع زوجته وابناءه السجن • فلما حل ببونة قتل الجميع ، وتتبع شيعة أخيه حتى أخضعهم • واعتنى بالجندية والبحرية • فاتخذ جيشا من الوندال والبربر يشتمل على ثمانين فرقة • وكان يستميل البربر ، ويتقي كل ما من شأنه ان يثيرهم عليه •

واذا اضطر لمحاربتهم لم يحاربهم الا بالوندال الحقيقيين ، لانهم أكثر اخلاصا له ، وأشد قوة على الحرب • وكان يمنح الجيش من الغنائم • واتخذ اسطولا عظيما خاض به عباب البحر الابيض المتوسط ، وملك به أهم جزره ، وأدهش به الايطاليين • قال مرسيي : وقد وجد في هذا الاسطول فائدتين : الغنائم التي كان يجلبها بالقرصنة ، وتمرين الجنود على الحرب • وأرى فائدة ثالثة وهي اشغال البربر من جيشه بالقرصنة حتى لا يثوروا عليه • وقد غفل خلفاؤه عن هذه الفائدة ، فلم يجدوا في البربر السلم التي وجدها هو •

وبعد ان دخل جنسريق قرطاجنة وثبتت قدمه هنالك بمعاهدة سنة (42) اتخذ الوطن التونسي وطنا وندااليا • فقسم ادارته الى خمس عمالات ، وقسم اراضيه بين ولديه هنريق وجنصون ، والجنود ، ومعمري الوندال • وابقى بعض الاراضي للاهالي •

أما الوطن الجزائري فلم يدخل عليه بعد عوده اليه أي تغيير اداري ولا استعماري • بل ابقى لساكنيه نظامهم القديم وولاتهم ومجالسهم البلدية وشرائعهم الذاتية ، وانما اتخذ به مراكز للجنود وكان يرسل اليه احيانا بعض أعيان دولته لاستطلاع الحالتين : السياسية والعسكرية ، ولم ينتزع منهم أملاكهم ، الا ما كان من املاك الدولة الرومانية فانه صار الى ملوك الوندال ، وعليه وكلاء وبه خدمة فلاحون ، ولم تتغير حالة الضرائب ايضا الا في المدة التي عادت فيها الجزائر الى الرومان فان الامبراطور أصدر أمرا سنة (45) باسقاط سبعة أثمان الغرامة عن الاهالي •

وكان رؤساء البربر منقادين لملك الوندال ، ويمدون جيشه برجالهم •

ووجد أتباع دونتوس في الوندال أعظم نصير فثأروا من

الارثذوكس • وفي أيام هنريق استعملوا قوانين ضد الارثذوكس هي نفس القوانين التي شرعها بعض أباطرة رومة للارثذوكس لينفذوها على الدونويين « وتلك الايام نداولها بين الناس » •

والخلاصة أن الوندال لم يحدثوا أي تغيير بالوطن الجزائري الا ما كان من قلة عددهم به بالنسبة الى ما كان به من الرومان ، ولم يلحق سكانه منهم أي اضطهاد الا من كانوا أرثذوكس وهم أقل القليل كما سبق •

7 ـــ ملــوك الونـــدال وسياستهم

اعتلى عرش مملكة الوندال بافريقية ستة ملوك في مدة تزيد على مائـــة ســـنة •

1 — جنسريق (429ـــ77) : هو الذي تولى قيادة الجيش الذي ساقه لفتح افريقية • وأسس بها دولة الوندال •

كان من أعظم ملوك افريقية وانفذهم رأيـــا وأبعدهم نظـــرا ، سياسيا ماهرا وحربيا حاذقا • لا يحارب الا حيث يرى فائدته في الحرب • ولذلك عقد معاهدتين مع امبراطور رومة • ولما تيسرت له الحرب لم يبال بالمعاهدتين • وان رأى أنه عاجز عن الحرب توقاها واستعان بدهائه • فقد جمع له مجريان (الذي تولى الامبراطورية برومة سنة 457) بقرطجنة سنة (58) ثلاثمائة ســـفينة ليحاربه بهـــا ويسترجع منه افريقية • فرأى هذا الملك أنه عاجز عن صده بالقوة ، فأرسل الجواسيس الى معسكر العدو وكان به جنود من القوط • فاستمال الجواسيس هؤلاء القوطيون ، وأغرقوا السفن بمكانها • ونجا بهذا الدهاء جنسريق من شر حرب لا قبل له بها • وكان امبراطور القسطنطينية يحاول اضعاف الوندال • فأرسل جيشا بريا وآخر بحريا

لحرب جنسريق • ورأى هذا الملك عجزه فصار يناوشهم القتال ، ويبث فيهم الجواسيس ، ويسعى في تفرقتهم • فتم لــه الفوز • واكتفى الجيشان من الغنيمة بالاياب • فعادا الى القسطنطينية سنة (70) •

وفي سنة (476)[1] عقد معاهدة مع امبراطوري الشرق والغرب على ان لا يحارب أحد منهما مملكته ويعترفا بانــه ملك افريقية • وهكذا ظل منصورا في كل مواقفه حتى أدركه حمامه •

2 — هنريق (477ـ84) : انتصب مكان أبيه • ولكن لم يخلفه في تدبيره ودهائه • فقد كان ضعيف السياسة شديد القسوة سفاكا للدماء • ولم ينج من بطشه حتى أقاربه وحاشيته • ويكفي أن نسوق حكاية واحدة عن أسقف قرطاجنة الاريوي ذهب اليه ليعظه ويرقق قلبه • فجازاه بأن حرقه أمام الناس ؟

ولسوء سياسته انسلخ عنه أكثر الجهات • وانحصرت دولته في السواحل وبعض دواخل الوطن •

3 — غندامند (484ـ96) : هو ابن جنصون • انتصب مكان عمه • ووجد الدولة في خطر من جراء سياسة عمه • فحاول ان ينهض بها ، ويكبح جماح الثوار • فلم يأت بشيء • وكان كسلفه مشتدا على الارثذوكس • فأدرك ما في ذلك من ضرر بالسياسة ، ورجع عــن شدته ، وأعاد المنفيين منهم ، ورجع اليهم أملاكهم •

4 — تراسمند (496ـ523) : انتصب مكان أخيه • واشتد على الارثذوكس • وحسن علائقه مع القوط • وتزوج بأخت ملكهم •

5 — هلدريق (523ـ31) : هو ابن هنريق • انتصب مكان ابن

(1) في هذه السنة سقطت مملكة الرومان الغربية . قضى عليهـا اداقر ملك الهيرول . واستولى على ثلثي ايطاليا . واصطلح مع جنسريق . واقتسما صقلية .

عمه • وكان حييا محبا للسلم • وخالف سياسة اسلافه : فرفع الاضطهادات عن الارثذوكس ، وأعلن بدخول دولته تحت سيادة يستنيان امبراطور القسطنطينية ، وصار يرسم على نقوده صورة هذا الامبراطور ، وقطع علائقه مع القوط بقتل أخت ملكهم زوجة تراسمند لانها سعت في تدبير ثورة ضده •

ولم يرتض الوندال سياسته هاته ، فثاروا عليه ، وأودعوه السجن ، فلم يزل به حتى قتل سنة (33) •

6 — جلمير (531ـ534) : هو حفيد جنصون • كان في دولة هلدريق رئيسا للجنود ومكلفا بحرب بربر المغرب • وله تأثير على الجنود • فكانوا يحبونه • ولما رأى انحراف الوندال عن ملكهم داخل جنوده في الثورة عليه • فأجابوه بالامتثال • فثار عليه ، وأودعه السجن ، واتنصب مكانه •

بلغ خبر هذه الثورة يستنيان ، فامتعض لها • وارسل الى جلمير : ان سرح هلدريق ، واعد له كرسيه • فكان جواب هذه الرسالة التشديد على هلدريق حتى لا يعد جلمير مثله خاضعا ليستنيان • ولما رأى الامبراطور اصرار جلمير على سياسته ارسل اليه ثانية : ليسرح هلدريق ، وليأذن له في الالتحاق به • وان لم يفعل فالحرب • فأجابه جلمير عن هذه الرسالة بقوله : « اني لم أتول الملك بالقهر •• وهلدريق كان صاحب دسائس في الاسرة • وحنق الوندال كلهم عليه هو الذي أسقطه • فبقي الكرسي شاغرا فجلست عليه بوجه شرعي ، لاني أكبر الاسرة » • وقال جوابا عن تهديده له بالحرب : « الملك الحكيم هو الذي يشتغل بحكومته • ولا يمد طرفه الى ماهو خارج حدودها • ولا يتداخل في شؤون الدول الاخرى • واذا أردت قطع ما بيننا من المعاهدات فاني معذور في مقابلتك بالمثل » •

كان هذا الجواب قاطعا لآمال يستتنيان في أن يفيد صديقه هلدريق بالمكاتبة • ولم يبق له الا الاعراض عنه أو الحرب • وهي أنسب بعظمته • فتجهز لحرب الوندال بافريقية • وانتهت الحرب بخضوع جلمير الى قائد الروم البيزنطيين • فذهب بـه هـذا القائـد الى القسطنطينية • ومنحه يستنيان أرضا بالاناضول قضى بها بقية حياته •

8 ـــ اعمــال الونــدال

الوندال أمة حربية متعصبة لمذهبها • فلم يشتغلوا بافريقية الا بالغزوات البحرية ، والاضطهادات للارثذوكس • ولم يفيدوا الوطن لابعلم ولا بصناعة • بل كانوا سببا في نقص عمرانه وعلة لخرابه ومادة لاذكاء نار الثورات بـه •

جنسريق مؤسس دولتهم والمعدود من أمهر السياسيين أمر بنسف عمران أقسام موريطانيا وافساد سبلها عندما بلغه ان مجريان جمع جموعه بقرطجنة ، وقاصد لحربه على طريق المغرب • وكان مشتدا على الارثذوكس ، حتى انه سنة (37) طلب منهم الدخول في مذهب أريوس • وأغلق كنائس من لم يلبوا طلبه منهم ونفاهم •

وهنريق جمع في سنة (83) أساقفة وقسوسا وشمامسة من الارثذوكس ، بلغ عددهم 4976 وحشرهم في شق بنارية ، وسيقوا من هنالك الى مجزرة الصحراء • وطلب اليه بعض أساقفة الارثذوكس انهاء اضطهادهم بعقد مجمع في افريقية ، يستدعى اليه كل من له رتبة في الكنيسة من جميع أنحاء العالم • فأجابه بقوله : « اني أحب ذلك • لكن بشرط أن تضع العالم كله تحت سيطرتي » •

وغندامد اشتد أيضا على الارثذوكس أولا • وفي سنة (87) عفا عنهم •

وتراسمند جرى على سياسة سلفه في العفو عنهم • ولكنه كان يستميلهم الى مذهبه بمنافع يمنحهم اياها • ولم يساعدهم على نظام كنيستهم ، ونفى من الاساقفة من لم يخضعوا لاوامره •

وهلدريق أوصاه سلفه بالرفق بالارثذوكس • فجرى على وصيته • وفي سنة (524) عقد مجمعا بقرطاجنة رجاء ايجاد سبل للمفاهمة والموافقة بين المذهبين • فانفصل المجمع على استحالة توافقهما •

والخلاصة أن أعمال الوندال كانت منحصرة في تخريب حصون الرومان ، وامتلاك ما كانوا أخذوه عن البربر من الاراضي بجميع الشمال الافريقي ، واضطهاد الارثذوكس الرومانيي النزعة بنفي أساقفتهم واغلاق كنائسهم وانتزاع أملاكهم • وقد ساموهم سوء العذاب : يحرقون رجالهم ونساءهم بالنار ، أو يمثلون بهم بقطع الاعضاء أو الضرب بالسياط •

وتاريخهم حافل بتفاصيل وقائع الاضطهادات واعمال التخريب • ولكن لا تخلو تلك الاحاديث من المبالغات • على ان اجمال ذلك أنسب بنا من بيانه ، لكون أكثره خارجا عن موضوع تاريخنا ، وأغلب مسيحيي الجزائر كانوا دونويين فنجوا من تلك الاضطهادات ، بل كانوا شركاء الوندال في التعدي على الارثذوكس واذالهم الله منهم •

9 — ثورات البربر

قد علمت انه لم يكن للوندال بالوطن الجزائري غير مراكز عسكرية قليلة وأراض دولية الفلاحون بها من البربر • فكان عدد الوندال به قليلا ، وسلطتهم على أهله ضعيفة • واذا كان الرومان على قوتهم الحربية والاستعمارية وطول أمدهم لم يقطعوا ثورات البربر

فان الوندال أعجز من أن يغمدوا سيوف أولئك الابطال الا في جسد سلطتهم •

كان جنسريق يحملهم على الهدوء بعاملي الترغيب والترهيب • فقد كان معنيا بالجندية التي يخشون بطشها ، وكان يشركهم مع جنوده في غزواته وغنائمها ، حتى في فتح رومة وما عاد به منها من النفائس •

وبهذه السياسة شغلهم عن تدبير الثورات ، ورغبهم في السلم • فكانت افريقية الشمالية على عهده في راحة من الثورات لم تعرفها في غير عصره • ووجد البربر اذ ذاك الفرصة لاسترجاع قوتهم الحربية ، لكنهم لم يستعملوها ضده ولم يهملوها بعد وفاته •

جاء بعده هنريق الذي لم يكن كأبيه ، فلم يعامله البربر مثله • وثاروا عليه سنة (83) بعد جمع الارثذوكس بشق نارية وتشريدهم في الصحراء • امتدت الثورة من جبل راشد وجبال أوراس وجرجرة وما بينهما الى طرابلس • وهجم الثوار على الجهات الشمالية • قال مرسيي : كان هؤلاء الثوار منضمين من عهد جنسريق • وانضم اليهم ضباط من الارثذوكس الممتحنين • وقد دافعهم هنريق • فعجز عن اخماد ثورتهم • وانحصرت مملكة الوندال في السواحل وبعض الجهات الداخلية •

وجاء غندامند فلم يستطع ان يقف حرية البربر • وتقدم الجيتوليون على عهده الى ناحية قفتة • وفي عصر تراسمند تقدم البربر في لم شعثهم واستعدادهم للثورة • وفي عصر هلدريق انتصر البربر على قائده أومير ، وأخذوا بذلك حريتهم • وكانت محاولات الوندال لاخضاعهم تذهب هباء •

كانت ثورات البربر ناشئة عن سوء سياسة خلفاء جنسريق لانهم

أهملوا الجندية وفرطوا في الاسطول • فلم ير البربر تلك القوة التي كانوا يخشونها ، ولم يجدوا تلك الغنائم التي كانوا يجرونها •

وقرب نجاح تلك الثورات أن الوندال كانوا خربوا أسوار المدن خوفا من أن يتحصن بها الرومان • فلم يجد الثوار حاجزا يقف سير ثورتهم •

في عهد خلفاء جنسريق استولى البربر على أكثر تراب الموريطانيتين • ونزل بربر أوراس الى سهول نوميديا • وخربوا بها المدن الزاهرة التي كانت تحت حماية الفرقة الثالثة الاوغسطية • وهي : تفيست ، باغاية ، تمغادي ، لمبس • وبلغوا قريبا من قسنطينة •

قال اغسال : « حقا ان البربر أنفسهم كانوا يكنسون الوندال • لولا ان الاغريق هم الذين تحملوا بهذه الخدمة » [1] •

10 — انتهاء دولة الوندال

في سنة (533) قدم الروم البيزنطيون الى افريقية لحرب جلمير • وفي شتنبر تلك السنة فتحوا قرطاجنة • وبقي جلمير خارجها يجمع الوندال والبربر ليعيد عليهم الحرب • وفي منتصف دجنبر آخر السنة عادت الحرب بين الفريقين وانتصر فيها الروم • ففر جلمير الى بعض الجبال متحصنا • وحماه البربر بمدينتهم ميدينس • فحاصرها الروم ثلاثة أشهر ولم يقووا على فتحها • وأخيرا طلب جلمير الامان لنفسه من الروم • فأمنوه واستسلم لهم • وذلك سنة (534) وباستسلامه انتهت دولة الوندال التي تأسست بالجزائر سنة (430) فكانت مدتها 104 ولم يضبط ابن خلدون ذلك • فقال : انها كانت نحوا من ثمانين سنة •

(1) الجزائر في القديم131 .

وبسقوط ملكهم ذهب من افريقية كل شيء وندالي • قال مرسيي : « بعد ستة أشهر من مجيء البيزنطيين لم تبق افريقية وندالية • الامر الذي يدل على ان استيلاءهم لم يتمكن منها • وذلك أنهم بعد ما فتحوها فتحا سريعا مدوا أعينهم الى جهات أخرى • فاشتغلوا بالفتح واطفاء الثورات • ولم يستعمروا الارض وينشروا المدنية • ولم يمتزجوا بالمعمرين من الرومان ولا اتخذوا روابط مع البربر • وبهذا ذهب أثرهم بأثر فقد ملكهم • أما رجالهم فقد ذهب أكثرهم في الحرب • وانتقل بعضهم مع جلمير الى المشرق ودخلوا تحت العلم البيزنطي • وانتقل آخرون الى جهات أخرى • وبقي منهم قليل بافريقية • ولكن لم يكن لهذا الباقي تأثير بها • لانهم أمة حربية ذهب جندها وملكها • ولم يبق لهم بعد دولتهم الا ذكرهم السيء • وكل فتح لم يرتكز على الاستعمار يذهب أثره بذهاب دولته » •

وقال بيروني : « لا يوجد دليل على ان الوندال حكموا نوميديا كلها • انما كان سلطانهم حقيقيا على الشواطيء الساحلية • وهو أشبه شيء باستيلاء الاسبان في القرن السادس عشر » وبعد ان ذكر كلاما نظير ما قدمنا عن مرسيي قال : « ويقول بعض المؤرخين : ان الوندال أخذوا شيئا من الحضارة الرومانية • وأعانوا الفلاحة • وجلبوا المياه • واخترعوا صناعة أسلحة • وهم أمة متعصبة للغتها وآدابها لا تسمح لها نفسها بتعلم اللغات الاجنبية وآدابها • ومع ذلك فان لجنسريق ابن أخ كان متضلعا في اللغة اللطينية وعلوم رومة • وشهد كثير من المؤرخين بأن تراسمند كان أعلم أهل افريقية ، وكان يحب المحاورة باللسان اللطيني في المسائل الإلهية والفلسفية مع رجال الكنيسة • وألف باللغة اللطينية كتابا يؤيد فيه مذهب أريوس ، أظهر فيه بلاغة في الانشاء ومقدرة في المنطق • والوندال ـــ وان كانوا أقل حضارة من الرومان ـــ استفادوا من مماستهم ، ونقلوا عنهم في أمد

قليل عوائد • وهذا مما يؤيد كفاءتهم وأهليتهم للفنون والأدب • وقد نظم جلمير أيام حضارة قصائد بديعة • ولم يبق شيء مما كتبه الوندال حتى أن أسلحتهم ذهبت ، ولم تعش بعد القرون الوسطى[1] • ولم يبق من لغتهم الا بعض كلمات وأعلام شخصية • وهذا الفناء التام هو الذي جرأ من بعدهم على لعنهم وتشويه سمعتهم • ولا يعقل أن تدوم حكومة قرنا كاملا ولا غرض لها الا الهدم • بل لا بد ان تكون لها حسنات • ويظهر أنها هدمت أكثر مما شادت » •

هذا كلام بيروني نقلناه بطوله لانه اشتهر أن الامة الوندالية أمة متوحشة هدامة للحضارات شأنها الغزو والسلب والنهب • فلكيلا يظن ان ذلك حقيقة تاريخية لا نزاع فيها نقلنا كلام المؤرخ مرسيي المؤيد لهذه النظرية ثم كلام البحاثة بيروني المناقض لها والمبين لسبب هذه السمعة السيئة •

ونحن نميل الى الرأي الثاني لاعتداله وتدعيمه بالادلة المعقولة • بخلاف أصحاب الرأي الاول فقد بالغوا في ذم الوندال • وقد بين بيروني سبب اقدامهم على هذا التحامل بكون الوندال فنوا فناء تاما • أما سبب تحاملهم فلأن هذه الامة كانت حاربت المملكة الغربية ، وأسست دولتها على حسابها • ثم حاربت المملكة الشرقية احتفاظا بسلطانها فلم تفلح • فمحاربتها لهاتين المملكتين الشقيقتين ووقوع عصرها بين دوريهما سبب قوي لذلك التحامل •

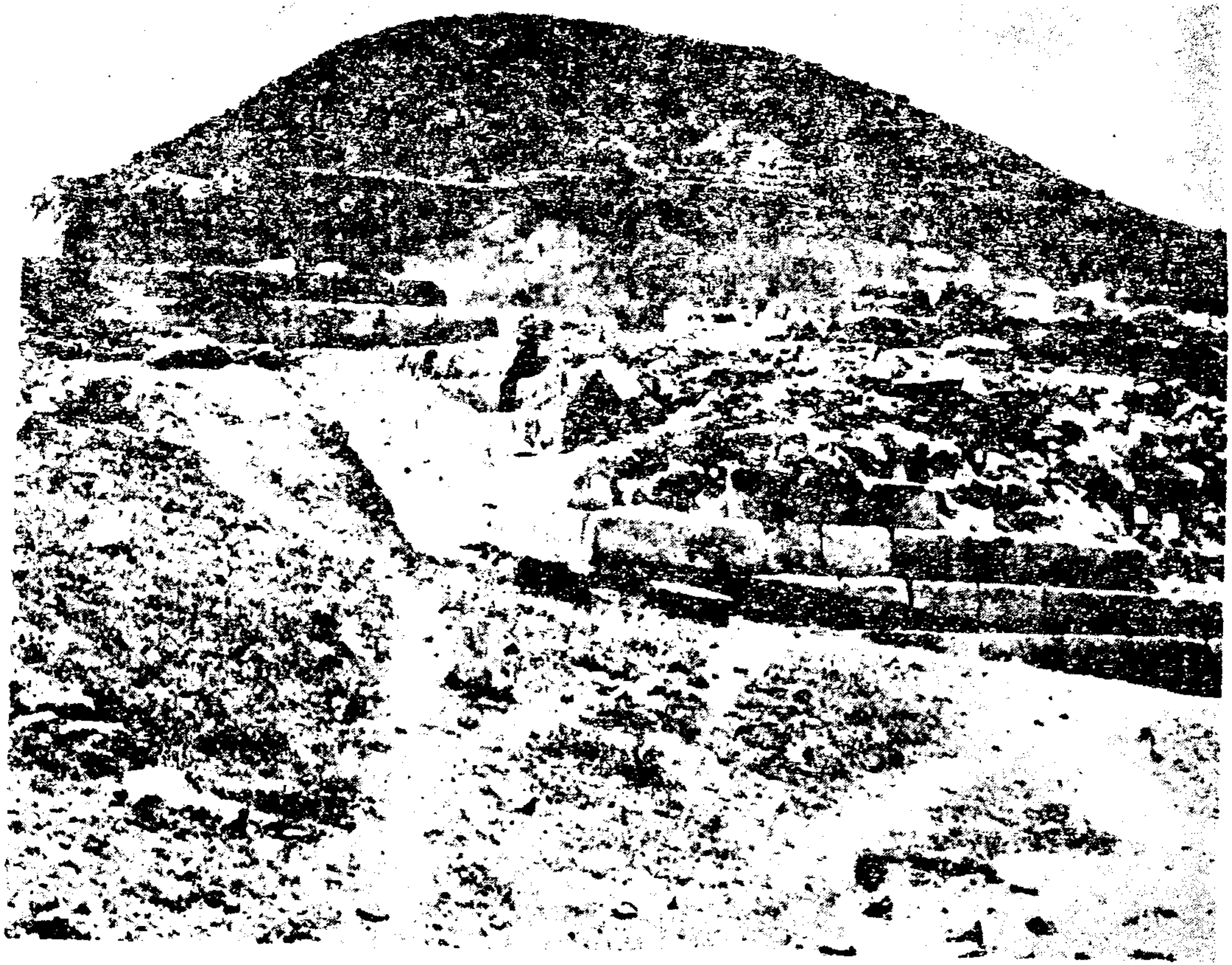
وسواء صح الرأي الاول أم الثاني فان بربر الجزائر لم يستفيدوا من الوندال لا علما ولا صناعة ولا أخلاقا ولا نظاما ، لان سلطتهم

---

(1) يقسم المؤرخون أدوار التاريخ الى ثلاثة : القرون الاولى ، من فجر التاريخ الى انقسام دولة الرومان سنة 395 م ، والقرون الوسطى ، من ذلك الحين الى فتح القسطنطينية سنة 1453 ، والقرون الاخيرة ، من ذلك العهد الى اليوم •

عليهم كانت على ضعفها غير شاملة لجميعهم • وقد رأيت أنهم كانوا في أيام جنسريق أيام شباب الدولة متهيئين للثورة . فلم يغب عن الوجود حتى أعلنوها •

على أن البربر ليس غرضهم من تسهيل طرق الاستيلاء للوندال أن يفيدوهم في شيء غير طرد الرومان . وقد نالوا هذا الغرض • وبزوال الضغط الروماني استطاعوا ان يجددوا قوتهم الحربية ويستعيدوا حياتهم الاستقلالية • هذا ما قصدوه من استبدال الوندال بالرومان • وهذا ما استفادوه منهم وبلغوا منه غايتهم • حتى أنه – كما سبق – لو لم يعجل الروم البيزنطيون بقدومهم الى افريقية لاستطاع البربر وحدهم ان يقضوا على الوندال ويستقلوا بوطنهم •



شكل (27) ـ الجدار : القسم الاول عبارة عن سطح وغرفة مخصصة للعبادة .



شكل (28) ـ الجدار : الجبل الأخضر

الباب الثامن

في ذكرى دولة الروم

١ ـ تمهيـد

تأسست الدولة الرومانية بايطاليا . تلك الجزيرة المتوسطة بـين عالمي الشرق والغرب . فلما أخذت تعظم صارت تتوسع في هذين العالمين . وملكت فيهما من الاوطان ما صير رومة عاجزة عن القيام بادارتها .

كان ذلك العجز ناشئا أولا عن كثرة المستعمرات ، وثانيا عن محاولة بعض الامم المغلوبة للاستقلال ، وثالثا عن هجمات أمم القوط وغيرهم ، ورابعا عن تنافس عظماء الرومان على الرئاسة والاقتتال من أجلهـا .

وقد حاول كثير من الاباطرة رفع ذلك العجز باشراك بعض قرابتهم أو عظماء قوادهم معهم في الحـكم والادارة . وكـان الامبراطور ديوقلطيانس قد أشرك معه مكسيمانس ، واقتسما ادارة الامبراطورية ، ثم أشرك معه غلاريوس وقسطنطيوس خلورس . فصارت الامبراطورية الى أربعة أقسام . أحدها بلاد غاليا واسبانيا وابريطانيا . وكان على هـذا القسم خلورس . ثم اعتزل الملك كـل مـن ديوقلطيانس ومكسميانس . واتخذ غلاريوس معه شريكين ، أحدهما مكسمينوس والآخر ليقينيوس . وفي خلورس . فقام مقامه ابنه قسطنطين . وثار بايطاليا على غلاريوس مكسنتيوس ابن مكسميانس .

وفي سنة (311) توفي غلاريوس • واقتسم شريكاه مملكته • وتحالف مكسمينوس ومكسنتيوس ، واتحد ليقينيوس وقسطنطين • ونشبت الحرب بين الفريقين • وانتهت بفوز قسطنطين وحليفه • فدخل رومة • وذلك سنة (312) واختص بالجهات الغربية ، وأخذ حليفه الجهات الشرقية • ثم نشبت الحرب بين هذين الحليفين • فانتصر قسطنطين ، وقتل حليفه بالامس وخصمه اليوم • وذلك سنة (324) •

بعد هذا الانتصار أصبح قسطنطين الامبراطور الوحيد لجميع المملكة الرومانية • وفي سنة (330) نقل مقر الحكومة الى الشرق • وجعل عاصمته بيزنطة • وبقيت المملكة الرومانية ذات وحدة ، غير أن اعتيادها للانقسام واحداث عاصمة ثانية فيها فتحا لها بابا الى الانقسام والانفصال • فلما أفضت الامبراطورية الى ثأودوسيوس قسم المملكة بين ولديه : ارقاديوس ، جعله على العاصمة الشرقية ، وهنوريوس ، جعله على العاصمة الغربية • ثم توفي هو سنة (395) فاستقل كل من الولدين بناحيته ، وتم الانفصال بين العاصمتين • وأخذت الاولى في في الصعود ، والثانية في السقوط •

هذه المملكة الشرقية هي التي يدعو العرب أهلها من الاغريق واللطين بالروم • ويطلقون اسم الرومان على أهل المملكة الغربية •

بعد أن بلغ الروم قوة عظيمة صاروا يحاولون استرجاع كل الممالك التي خرجت عن رومة ، ويرون لانفسهم الحق في تراثها • فاشتبكوا لذلك مع الوندال بافريقية ، والقوط بالاندلس ، وغيرهم • وكانت لذلك حروب ضررها بالبشرية غير يسير •

وقد بلغ من عظمة الروم أن صارت لا يدانيها في العظمة غير دولة الفرس • وكانت بين هاتين الدولتين العظيمتين حروب ذات أهوال وخطوب •

وبقي الروم في عظمة سلطان الى أن ظهر الاسلام وجمع كلمة العرب ونظم قوتهم • فأخـذوا يفتحون البلدان ويستولون عـلى الاوطان • فانتزعوا من الروم غرر دولتهم من أوطان الشـام ومصر وافريقية الشمالية •

أمست دولة الروم بعد ان أخذ منها العرب زهرتها تذبل وتتدلى ، حتى ظهر آل عثمان من الاتراك ، وضايقوها فيما بقي لهـا ، وصاروا يستولون على مدنها • وجاء محمد الفاتح منهم ، فقضى على البقية الباقية منها بفتحه القسطنطينية سنة (857 هـ 1453 م) •

2 ـ بيزنطـة

عرفت ان العرب يطلقون اسم الروم على أهل المملكة الشرقية من اللطين والاغريق • والافرنج يطلقون عـلى هؤلاء الروم اسـم البيزنطيين • وذلك نسبة الى عاصمة دولتهم مدينة بيزنطة •

وهي مدينة قديمة ذات موقع ممتاز لتوسطها بين قارتي آسيا وأروبا ، ووقوعها على مضيق البوسفور الواصل بين البحر الاسود وبحر مرمرة المتصل بالبحر الابيض المتوسط •

وقد ذكر ابن خلدون بيزنطة مرة باسم بوزنطية وأخرى بلفظ بيزنطية • وقال : انها بنيت في الثانية والخمسين من ملك منشا بن حزقياهو • وهاك عبارته : « وفي تاسـعة وثلاثين مـن ملكه ملك سنجاريف الصغير مملكة الموصل • قاله ابن العميد • وفي الثانية والخمسين بنيت بوزنطية ، بناها بورس الملك • وهي التي جددها قسطنطين ، وسماها باسمه »[1] •

---

(1) ج2 ص105 وفي الاصل بورنطية بالراء . وهو تصحيف .

وسنجاريف الصغير هذا هو ابن سنجاريف الذي دعــاه ابن خلدون بهذا العلم • ويظهر من سياقة تاريخه انه المعروف عند غيره باسم سيناخريب (SENNACHERIB) والاختلاف قــد يكون من أصل النقل • وقد يكون من تصحيف النساخ للخاء جيما وللباء فاء • وسياقة حديث سنجاريف الصغير تقتضي انــه المعروف في غير ابن خلدون باسم اسرحدون • وهو قد تولى الملك سنة (681) ق•م فتكون هذه السنة هي التاسعة والثلاثين من ملك منشا، والثانية والخمسون من ملكه توافق سنة (688) • فتكون بيزنطة أسست في هذه السنة •

وبعد ان استولى الرومان على البلاد الاغريقية لم يتنبه أباطرتهم لاهمية موقع بيزنطة ، حتى جــاء قسطنطين ، فتنبه لذلك ، وانتقل اليها سنة (330م) •

وكان انتقاله لها لغرضين : ديني وسياسي • أما الديني فلأنــه تنصر ، وكانت رومة لا يزال عظماؤها وثنيين • فهو لا يستطيع أن يؤيد دياناته بينهم • ويضر بنفوذه ان هو قام فيها بحماية المسيحية • فابتعد عنهم الى بيزنطة • واتخذها مهدا صالحا لنمو المسيحية • وأما الغرض السياسي فلأن الفرس كانوا يهددون دولته من ناحية الفرات ، وأمم القوط يهددونها من ناحية الدانوب • فنزل تلك المدينة المتوسطة بين ذينك النهرين ليراقب حركات الاعداء ويرد غاراتهم •

ولما انتقل اليها أخذ في تعميرها على مثال رومة ، ونسبها اليه • فصارت تدعى القسطنطينية • ثم لما فتحها محمد الثاني من آل عثمان صارت تدعى اسلامبول • ومعنى ذلك مدينة الاسلام • وقد غير هذا العلم الى لفظ اصطنبول •

3 ـ الروم في افريقيـة

كان يستنيان امبراطور القسطنطينية ينظر الى المملكة الغربية التي زال منها حكم الرومان نظر الوارث المستحق ، ويتحين الفرص لاسترجاعها ، وضمها الى الامبراطورية الشرقية . فكان لذلك يتداخل في شؤون الوندال بافريقية ، وكان سروره عظيما يوم أعلن هلدريق سيادته بها ، وكان كذلك استياء الوندال عظيما ، أفضى الى اسقاط ملكهم واجلاس جلمير مكانه . وقد عجم يستنيان عود جلمير بالكتابة ، فوجده صلبا . فأراد أن يهشمه بالكتيبة لا بالكتابة .

كان يستنيان في حرب مع الفرس دام أمدها خمس سنوات . ولما أجابه جلمير ذلك الجواب اصطلح مع الفرس على أن يؤدي لهم غرامة مبلغها أحد عشــر مليونا مــن الفرنك ، وأخــذ يتهيأ لحرب الوندال .

اشترى يستنيان حرب الوندال بذلك الثمن . وانــه لزهيــد بالنظر لخيرات افريقية . ولكن وزراءه استصعبوا قبض متباعهم لبعده عن العاصمة وشجاعة حماته من الوندال . وكادوا يردونه عن عزمه . غير أن بعض أساقفة الارثذوكس الذين يودون انقاذ اخوانهم مــن الاضطهاد الوندالي شــجعه على الغزو ، وتنبأ له بالفوز والنصر . واتفق أن كانت طرابلس وصقلية ثائرتين على الوندال . وطلب رئيسا الثورة بهما اعانة هذا الامبراطور على أن يسهلا له طريق الاستيلاء على افريقية . فزاد ذلك في نشاط يستنيان ، ومضى على عزمه .

وكان من رجال البلاط الامبراطوري رجل يدعى بليسير ، له نفوذ بالجيش . فاختاره الامبراطور لقيادة حرب افريقية . وفوض له في اختيار الضباط . وصدر له الامر بركوب البحر .

في صائفة سنة (533) ركب بليسير البحر بجيش يشتمل على خمسة عشر الفا ثلثهم فرسان ، في أسطول يتركب من خمسمائة سفينة • وركبت معه زوجه وكاتبه المؤرخ بروكوب • وحضر ركوبهم الامبراطور نفسه ، وأحد الاساقفة ، وزودهم بالدعاء •

سار الاسطول الى أن أرسى بصقلية • فنزل الجيش للاستراحة والتزود والاستعلام عن أحوال الوندال • وذهب بروكوب الى سرقوسة ليأتي مخدومه بارشادات • فعاد اليه يحمل هذه البيانات :

1 — الجنود الوندالية بسردانيا تحارب عاملها الثائر •

2 — جلمير نازل بالبيزاصين (جنوب تونس) •

3 — الوندال لا علم لهم بمجيء الجيش الرومي •

بعدئذ ارتحل بليسير بجيشه ، وأرسى بخليج قابس في يوليه • وأخذ يتنقل مع الساحل البحري ، ففتح لبتيس وحضرموت • وارسل الى سراة الوندال باسم الامبراطور : اني لم آت محاربا للامة الوندالية • وانما جئت محاربا لشخص جلمير الذي اغتصب الملك من يد هلدريق !

ولما علم جلمير بنزول الروم بافريقية جمع جموعه لحربهم • وكانت بين الفريقين معارك لم تفل من عزم جلمير وان كان وقعها عليه شديدا • وأخيرا ذهب الى جبل بابوة (PAPPUA) [1] فتلقاه أهله البربر بالترحاب ، وادخلوه مدينتهم ميدينس (MIDENOS) .

نزل بهذه المدينة طمعا في أن يجد سبيلا في الذهاب الى الاندلس • وارسل الى ملك القوط بهاثوديس ليوجه له مراكب • فلباه • ولكن القدر أبى على جلمير الا أن يقع بيد أعدائه • فحوصر بتلك المدينة ثلاثة أشهر • ولما أيس من اللحاق بالاندلس طلب من

---

(1) اختلف في هذا الجبل : قيل هو جبل ايدوغ وقيل جبل الناطور.

بليسير الامان • فأمنه • وسلم نفسه اليه • فذهب به الى القسطنطينية، وذلك سنة (534) •

4 ـ الروم بالجزائر

بعد فرار جلمير الى جبل بابوة توجه بليسير الى بونة فاحتلها • وبعث بمن فيها من الوندال الى قرطاجنة • ثم وجه جندا عن طريق البحر الى قيصرية • فاستولى عليها • وبلغ ذلك الجند سبتة ففتحها أيضا • وأصدر يستنيان أمرا يقول فيه : « لا بد أن ندافع عن الخاضعين الينا ، ونصل بحدودنا الى حيث وصلت الجمهورية الرومانية » ولكنه حلم لذيذ جعلته يقظة البربر من اضغاث الاحلام ، وأمل حال دون تحقيقه تمسك البربر باستقلالهم وقدرتهم على حماية أنفسهم •

جد الروم في الاستيلاء على الجزائر • ولكن لم يكن لهم في أول الامر غير السيادة الاسمية في جهات قسنطينة وسهول سبيوس وأعالي مجردة • ولحفظ تلك السيادة جعلوا على هذا القسم خطا من الحصون ، أهم مراكزه قسنطينة وقالمة •

وفي سنة (539) فتحوا أوراس والحضنة ووطن سطيف • ولكن لم تثبت قدمهم بأوراس • فاكتفوا باتخاذ حصون قوية شماله • وذهب خط الحدود من هذا الشمال مغربا فمر بطبنة وزابي ، ثم انحنى شمالا مشتملا على سطيف •

وبقية الوطن الجزائري لم يحتل منه الروم غير بعض المراسي • منها رسقوناي وتبازا وقيصرية وقرطنة • ولم يبلغوا هذه المراسي الا من طريق البحر • وقد ضيق البربر عليهم فيها تضييقا شديدا • فعاشوا بها عيشة بؤس • وأحاطوها بأسوار لم تزل آثارها حتى

اليوم . وهي تدل على نقصان مساحتها بالنسبة لما كانت عليه عصر الرومان .

وقد قسم الروم جزائرهم الى قسمين : نوميديا ، وهي الجهات الشرقية من الوطن الجزائري ، وموريطانية الثانية ، وهي تلك المراسي التي ليس لهم حونها أي سلطة . وجعلوا لكل من القسمين رئيسا . وبعد مدة أضيفت موريطانيا الى عمالة سطيف .

وقد سلك يستنيان سبيل الرومان . فأسكن الجنود على خط الحدود ومنحهم الاراضي لاستعمارها . وقد علم ان هذا وحده غير كاف لحفظ ما استولى عليه جيشه . فاستمال بعض رؤساء القبائل بأن جعل لهم أرزاقا سنوية ، ومنحهم القابا شرفية ، وأنعم عليهم بالاوسمة . واحتاط لبقائهم في خدمته بأن أغرى بينهم العداوة والبغضاء . وغمرهم بتأثيرات رؤساء الدين . وأخذ من قبائلهم رجالا رهائن . وجعلهم تحت اشراف قواده من الروم ، فمن رأوا منه انحرافا عن الطاعة قطعوا عنه كل ما كان يناله من دولتهم .

قال اغسال : « ومع هذا كله لم يكن السلم مستمرا . فكثيرا ما اجتاز البربر الحصون الرومية . وعاثوا في البوادي فسادا . واتقاء من هذه الغارات اتخذ المعمرون حصونا ممتنعة ببواديهم » .

5 ــ امراء البربــر في العصر الرومي

قد علمت ما استولى عليه الروم من وطن الجزائر وأنــه أقل بكثير مما بقي بأيد البربر غير محتل . وتوجد خارج تلك الحدود امارات عظمى للبربر ، منها امارة قرب تيهرت . تركت آثارا تدل على عظمتها ؛ منها ثلاثــة عشر هرما يسميها العرب اليوم الجدار ، يبلغ ارتفاع أكبرها أكثر مــن تسعين ذراعا . وهي قبور لبعض الاســر البربرية .

من أمراء البربر في هذا العصر مصيناس • كان على موريطانيا • ويلقب نفسه : « ملك القبائل الموريطانية والرومان » والمـراد من الرومان الباقون بموريطانيا بعد ذهاب سلطتهم من آفريقية • وهذا اللقب يدل على عظمة صاحبه حيث ان الرومان خاضعون له واخوانهم من الروم بجوارهم ، اذ لو وجدوا سبيلا للشغب عليـه والاحتماء بالروم لفعلوا جادين •

ومنهم أرثياس • كان على غربي أوراس الى الحضنة •

ومنهم بيداس • كان على جبل أوراس •

ومنهم قطزيناس • كان على شرقي أوراس •

هؤلاء الامراء كانوا مستقلين بنواحيهم • ووحدوا القبائل التي تحت سلطانهم وردوا لها قوتها الحربية لما ضعفت السلطة الوندالية • واسترجع البربر على عهدهم كثيرا من الاراضي التي كان الرومان استولوا عليها • وصار شعارهم : « أرض البربر للبربر » •

قال مرسيي : وقـد وصف تجـديد الوطنية البربرية لكروا (LA CROIX) وهو كاتب بليغ • فقال : « الرومان ذلك الجنس القوي الحاذق العظيم في التمدن وقوة الفتوح ، لم يكن في وقت من الاوقات امتزج بالبربر امتزاجا حقيقيا • بربر السـهول والمدن وما قاربها اختلطوا حقيقة بالرومان • ولكن بربر الصحراء والجبال لم يبلغ شيء من تأثيرات الرومان اليهم • بعد سبعة قرون من ابتـداء تسلط الرومان على افريقية وجدت الجنس البربري كما كان قبل ذلك التسلط • ثوار القرن السادس الذين حاربهم البيزنطيون في أوراس وايدوغ والبيزاصين كانوا مماثلين لاسلافهم الذين مر عليهم ستةقرون، وحاربوا الرومان تحت يوغورطة: طبائع متحدة وأعمال متماثلة وكراهية واحدة للاجنبي ومحبة واحدة للحرية وصفة واحدة في الحرب •• هذه

الامة لم تتبدل عن حالها الاولى ، ولا يخرق سياج طبائعها أي أثر خارجي •• العدد الكثير الذي حارب يستنيان بعد ذهاب الوندال ، واستحالة استيلاء البيزنطيين على ملك أسلافهم الرومان ، يدلان على أن أكثر البربر لا يمكن نفوذ شيء الى طباعهم »[1] •

أجاد الكاتب حقا في وصف الوطنية البربرية ، ولكنه أخطأ في جعله وطنيتهم قد منعتهم من نفوذ شيء الى طباعهم • فان تاريخهم ما تقدم منه وما يأتي يدل على أنهم يقبلون الرقي والحضارة لكن اذا لم يصحبهما صغار •

6 — حروب الروم والبربر

بعد ذهاب بليسير بجلمير الى القسطنطينية بقي على رئاسة افريقية الرومية سليمان الخصي • وما كاد بليسير يركب البحر حتى أسرع البربر الى الثورة • فحاربوا الروم • واستولوا على جميع مراكز الجند الرومي بدواخل الوطن •

قطزيناس تقدم الى البيزاصين • وسرح له سليمان الجنود فحاصرهم بكهف هنالك • واستأصلهم • ثم خرج سليمان نفسه سنة (35) فهزم قطزيناس • وعاد الى قرطاجنة • فعاد البربر الى الثورة وخرج اليهم ثانية • فوجدهم متحصنين بجبل بورغؤن (المظنون أنه جبل بوغانم) فأخرجهم من حصنهم وهزمهم •

وفي هذا الحين كان بيداس ومصيناس يجولان بنوميديا وينهبانها بجموعهما • والتحق ببيداس بعض البربر المنهزمين بالبيزاصين مستصرخين به • وأصبح موقف سليمان في أحرج ما يكون • ولكن

---

(1) مرسيي 1 : 168 عن مجلة افريقية .

طبيعة البربر في الانقسام وتخاذل الرؤساء نفست عليه قليلا اذ تطوع بعضهم لسليمان بالدلالة على طرق الوطن لتتبع بيداس • فخرج سليمان يطلبه حتى بلغ جبل اصبيديس (جبل شلية) ولكنه لم يظفر به ولم يبصره • وكان وقت الشتاء قريبا والمؤونة غير كافية للاقامة • فعاد الى قرطاجنة •

دخلت سنة (36) وخرج فصل الشتاء • فتجهز سليمان في فصل الربيع لحرب بيداس • ولكن جنوده كانت قليلة الانقياد • فلما شق عليها تتبع هذا الامير في جباله شقت عصا الطاعة في وجـه سليمان وعزمت على قتله ، فما وسعه الا النجاة بنفسه • فأغذ السير الى قرطاجنة • ومنها ذهب الى صقلية ــ وبها بليسير ــ فأعمله بماجرى • فركب بليسير البحر الى قرطاجنة لاخضاع الجنود • وثارت بعـده جنوده هنالك • فعاد سريعا الى صقلية • وبقيت افريقية الرومية بعده في فوضى عامة •

كانت تلك الجنود الثائـرة بافريقية متحدة تحت رئيس يدعى ستوزاس • وارسل يستنيان جرمان واليا • فحارب ستوزاس • وبينما هو فار أمامه الى ناحية بها بيداس وأرثياس طمعا في نصرتهما اذا بهذين الاميرين قـد نزلا على جنـوده واستأصلاها • ففـر الى موريطانيا • وكانت هذه المعركة بمكان يدعى « سلاص فاتاري » قال مرسيي : وهو اما نواحي تيفاش واما جنوب قسنطينة •

وفي سنة (39) عزل جرمان وعين مكانه سليمان الخصي • فجعل حرب أوراس نصب عينيه • وكان على بربر البيزاصين أمير منهم يدعى انتلاس • فاستماله سليمان وجعل له عطاء سنويا • وفي ربيع سنة (40) أرسل أحد ضباطه لفتح أوراس • وخرج هو بأثره • ولما بصر هذا الضابط بالعدو لم يقف لحظة عن الفرار الى باغاية • فأدركه البربر •

وحاصروه بها ۰ وأرسلوا عليها الماء كي يغرق من بها ۰ ولكن سليمان أدرك ضابطه ففك عنه الحصار ۰

بعد ذلك تتبع سليمان البربر في جبال أوراس طامعا في ادراك بيداس ۰ وكان هذا الامير ذهب الى مدينة زربولة ۰ فلحقه سليمان ۰ وحاصره بها ۰ واستطاع بيداس ان ينفلت من الحصار فذهب الى مدينة ثمار ۰ وتحصن بها ۰ وكانت ممتنعة ۰ فحاصرها سليمان مدة حتى فتحها ۰ وجرح بيداس في دفاعه عنها ۰ ونجا الى موريطانيا ۰

بانتقال بيداس من أوراس استطاع الروم أن يجوسوا خلاله ۰ وغنموا أموالا طائلة لاميره ۰ ثم ذهب سليمان الى بلاد الزاب يخضع البربر لدولته ۰ وبلغ المسيلة ۰ وكانت تدعى زابي ۰ فجددها ۰ وسماها يستنيانة تخليدا لذكر امبراطوره ۰

وبعد جولته عاد الى قرطاجنة ۰ وقدر له الهلاك على يد حليفة انتلاس ۰ فقتل على ايدي جنود هذا الامير بنواحي تبسة سنة (45) ۰

بعد هلاك سليمان جاء ولاة ضعفاء عن حماية ما تحت أيديهم من البربر ۰ فكانت مدتهم حروبا بينهم وبين ملوك البربر المتحدين تارة والمتخاذلين أخرى ۰ وقام البربر بعدة غارات على روم نوميديا وغيرها ۰

وفي سنة (46) جاء يوحنا طرغلطا واليا على افريقيا ۰ وجعل حرب انتلاس أهم أعماله ۰ واستعان عليه بقطزيناس وبيداس وافسدياس (هو أحد أمراء البربر بنواحي أوراس) فأعانوه ۰ كما كان سليمان استعان بانتلاس على بيداس ۰ وبعد ما اشتدت الحرب بين انتلاس وطرغليطا انجلت بخضوع الامير البربري سنة (48) ۰

عد الروم هذا الفوز انتصارا باهرا ۰ ولكنهم لم ينصروا على البربر الا بالبربر ۰ وهم يعدون البربر كلهم أعداء لهم سواء المحارب

والمحالف • ولذلك قتلوا الامير قطزيناس غدرا سنة (63) رغم كونه حليفا لهم • وقام أبناؤه مطالبين بدمه ، ورفعوا لواء الحرب على الروم •

استمرت غارات البربر على الروم • وعجز الولاة عن ايقافها عند حد • حتى جاء جناديوس • فحاربهم وافتك منهم بعض ما كان استولوا عليه من الاراضي • ولكنهم لم يزالوا في غاراتهم حتى انهم سنة (97) بلغوا أبواب قرطاجنة وحاصروها •

والخلاصة ان تاريخ الروم بافريقية كله حروب • أكثرها للبربر • أما علة كثرة الحروب فهي تشبع البربر من مبدأ الاستقلال ، وطمع الروم في ارث الرومان من غير نظر الى الظروف ، وجور ولاتهم فيما تحت نفوذهم • واما سبب نجاح البربر في الاكثر فذلك لضيق نطاق التراب الرومي ، وعجز كثير من الولاة في السياسة والحرب ، وتمرد الجنود على قوادها •

7 ــ البناءات والاستحكامات الرومية بالجزائر

قد رأيت ضيق نطاق ما استولى عليه الروم من الجزائر وعجز ولاتهم امام تعدد غارات البربر • وذلك مما يحرج موقف الروم ويجعل حياتهم في خطر • فأنشأوا لاتقائه الاسوار الحصينة خلف المدن ، وبني الفلاحون بباديتهم الحصون المنيعة ، وشيدت حصون على خطوط الحدود والطرق التي يمكن ان يفضى البربر منها الى التراب الرومي • وقام بتلك البناءات والاستحكامات بجلها سليمان الخصي ، وببعضها معمرو الروم انفسهم •

ومن المدن الكبرى التي أحيطت بالاسوار قرطنة وقيصرية وسطيف وميلة وتمغاد وقصر الصبيحي وقالمة ومدوروش وتبسة •

ومنها ما لم يزل سوره قائما حتى اليوم • ويبلغ ارتفاع بعض الاسوار عشرين ذراعا وعرضه ست أذرع •

وقد أخذ الروم مواد الاسوار والحصون مما وجدوه من رخام وحجارة منحوتة وغيرها من بقايا مدن الرومان التي ضربها الوندال أو البربر • واذا كان الوندال والبربر قد خربوا مدن الاحياء فان الروم لم يقفوا في تحصين مركزهم عند أخذ مواد المدن الخربة بل تعدوها الى نبش القبور وتخريب مدن الموتى لاخذ مافيها من مواد صالحة للبنـــاء •

وللروم من البناءات سوى الاسوار والحصون تشييد الكنائس • وليس لهم من البناءات العمومية غيرها • قال اغسال : « وهي مبنية بمواد مختلفة ومزينة بلا ذوق ولا فن » •

وقد حافظ الروم ــ علاوة على ما أنشأوه ــ على ما بقي من آثار الرومان لم ينله الخراب • ورمموا منه ما وجدوه منثلما • وكل ذلك انما قاموا به لحفظ راحتهم • ولكن لم ينالوا بغيتهم ، ولم تصد استحكاماتهم البربر عن غاراتهم • قال اغسال : « وآثار البيزنطيين الباقية بنوميديا ــ ما عدا التحاصين ــ تدل على بؤس شديد » •

8 ــ الحالة الدينية في العهــد الرومي

علمت ســابقا ان الاسرائليين كانت لهم هجرات الى الشـــمال الافريقي قبل الميلاد وبعده • وقد جاء الوندال ــ وهم أمة حربية ــ فألفوا بهذا الوطن الاسرائليين ــ وهم أمــة تجارية ــ فقربوهم ، واستعانوا بهم على استدرار خيرات الوطن • فاستحوذ الاسرائليون على التجارة :، وراشوا ، وكثر عددهم • واتفقوا مع الوندال عــلى كراهية الارثذوكس واذايتهم •

ولما جاء الروم وجدوا أنفسهم في ضيق مع الاسرائليين • فكان قوادهم يرهقونهم على الدخول في المسيحية ويبدلون بيعهم كنائس • وزال على الارثذوكس ما نالهم في الدور الوندالي ، وأصبحوا معتزين دون سواهم من الموسويين والدنوبين والاريويين •

وفي سنة (535) انتزعت الدولة الرومية من هـذه الفرق جميع أملاكها ، وأعدمتها حماية الشريعة ، وحجرت عليها العمل بمذاهبها ، وعزلتها مما كان لها من مناصب • كل ذلك جريا خلف داعي التعصب المذهبي •

واعترف يستنيان رسميا للكنيسة الارثذوكسية بحـق مراقبة المدن وادارة العمالات • فلم تقف عند حد مراقبة الولاة وأهل الوظائف السياسية ، بل صارت تأمرهم ، وتتداخل في جميع الشؤون الدولية سياسية كانت أو ماليـة أو ادارية أو حربية • فكان مـن الاساقفة والقسوس من يشتغلون ببناء استحكامات حربية • وصار البابا برومة يرسل أوامره للقواد والولاة • قال اغسال : « وغمرت قوة الكنيسة قوات جميع المتوظفين » •

تحت هذا الاستبداد الكنسي دخل بعض الموسويين في المسيحية لمجرد منافع مادية • والمادة عند الاسرائليين قبل الدين والجنس • ولكن مدة ارتدادهم لم تطل حيث ان السلطة الرومية ادركها الضعف قريبا • فعادوا الى دينهم الذي دخل فيه بعض القبائل البربرية ايضا • ورجعت قبائل اخرى من البربر الى الوثنية •

هكذا كان الوطن الجزائري في العصـر الرومي يشتمل عـلى أديان ومذاهب كلها متعادية متنافرة • فكانت من أقوى عوامل الخراب في هذا الدور ، ولها أثرها السيء في الفوضى وفقد الامن • وانها لكذلك حتى جاء الاسلام على أيدي الفاتحين مـن العرب • فنظم ما اختل ، ووحد ما تفرق ، واستقر بالقلوب الاستقرار النهائي •

9 — الحـالة الاجتماعية بالجزائـر

قد رأيت ان ما استولى عليه الروم من الوطن الجزائري قليل وان أكثره بقي تحت أمراء عديدين من البربر • وقد عم الشقاء والبؤس في هذا الدور كل الوطن الجزائري سواء الذي كان منه لنظر الروم ، والذي كان لنظر البربر •

اما ما كان تحت الروم فان مـن عوامل بؤسه ما يأتي :

1 — تكرر غارات البربر غير الخاضعين للروم ، وتعنت هؤلاء الرو مفي دفاعهم •

2 — اذكاء نار الخلافات الدينية بتعصب الدولة لمذهب عـلى سائر المذاهب • قال بيروني : « ولم يكن من غاية للحروب الدينية التي تهيج الاحقاد وتطيل أمد الفوضى الا ايجاد فرصة للنهب ، وشـفاء الغليل بقتل العدو » •

3 — جور الولاة الرومانيين • قال بيروني : « واتفق المؤرخون ان سياسة البيزنطيين مع الاهالي سيئة » وقـد أرهق هؤلاء الولاة الاهالي بالضرائب الفادحة • وزاد في فداحتها جور المستخلصين لها • وعلاوة على ذلك كله كانت الجنـود تماطل بأعطيتها ، فتستخلصها من الاهالي •

وقد تكونت الفوضى وعمت من ذلك البؤس ومن فقد الاخلاص سواء من الجنود لرؤسائهم أو من الرؤساء لدولتهم • قال بيروني : « في ابتداء القرن السابع لم تبق ادارة ولا هيئة اجتماعية • وبلغت الفوضى السياسية غايتها » •

وقد نشأ عن هذه الفوضى ظلمة في تاريخ هذا الدور • قال اغسال : « ان الآثار الكتابية صارت قليلة جدا حتى انه ليخيل للباحث كأن كابوسا عاما حل بهذا الوطن » •

واما ما كان تحت تصرف البربر فان من عوامل بؤسه تمسك الامراء باستقلالهم من غير ان يكونوا متحدين ولا ذوي نظام دولي • أما عدم اتحادهم فهو خلق قديم فيهم ، وهو سبب نجاح أولي المطامع من الامم في وطنهم • وأما فقدهم النظام الدولي بعد ما كانت لهم دول قبل الميلاد فذلك أنهم بعدما تعلموا من الفينيقيين الحياة النظامية ووسائل العمران والرقي جاء الرومان فأخذوا على أنفسهم تجهيل البربر ما تعلموه • ابتدأوا بهدم استقلالهم وقتل عظمائهم ، ثم حرموهم من جميع الحقوق السياسية • وكانت سياستهم سياسة تنفير فلم يقبل البربر على حضارتهم • فلم يذهبوا حتى أنسوا البربر ما أخذوه عن الفينيقيين من غير ان يعوضوهم شيئا ينفعهم في حياتهم الاجتماعية • ولما جاء الوندال وكانت وطأتهم عليهم خفيفة وهم أمة حربية لم يستفد البربر منهم غير الحياة الحربية • فعملوا للاستقلال من غير نظام • ولما جاء الروم أرادوا أن ينزعوا منهم استقلالهم • فدافعوا دونه • ووقعت بينهم حروب مبيدة • قال بيروني : « ويصعب ان يحيط مؤرخ بحروب البربر مدة الاستيلاء البيزنطي » •

ولولا ان الرومان هم الذين افقدوا البربر الحياة النظامية لكانت حروبهم مع الروم عائدة عليهم بالسعادة وعلى وطنهم بالعمران والرقي• ولكنهم ــ وقد فقدوا كل نظام ــ لم يجنوا منها غير الشقاء وخراب الوطن وعموم الفوضى •

واذا علمت ان الروم لم يعملوا فيما تحت تصرفهم الا لاشقاء أهاليه ، وان أمراء البربر عاجزون عن اسعاد امتهم امكنك ان تحكم عن بينة بأن العصر الرومي كان كله جوائح نزلت بالوطن الجزائري فأنهكت الحياة الاجتماعية أيما انهاك •

قال بيروني : « القرن الرابع الذي سقطت فيه حكومة رومة

والقرن الخامس الذي استولى فيه الوندال والقرن السادس الذي مكن فيه البيزنطيون نفوذهم بافريقية ــ هذه القرون كانت قرون أهوال وحروب مبيدة » ثم قال : « وقد كانت هذه القرون علة في مرض افريقية مرضا اجتماعيا واقتصاديا • ذهبت الفنون الجميلة ، وعطلت الاراضي الفلاحية ، وتنوسيت الاساليب العلمية ، وتكاثرت اللصوصية حتى صار الناس يفزعون الى الغابات ويختفون بالشعاب ، وتعطلت التجارة ، وخشي الناس المجاعة » وقال مرسيي : « كان المؤرخ يروكوب لما نزل افريقية مع بليسير دهش من عمرانها ونشاط تجارتها ونفاق أسواقها وسعادة فلاحتها • ولكن بعد عشرين عاما لم يبق شيء من ذلك ، وعم الخراب جميع افريقية • ويقال ان الحرب وحكومة يستنيان خسرتا افريقية في خمسة ملايين من الانفس » •

ومن ههنا تعلم ان ما اشتهر به الوندال من التخريب ليس شيئا يذكر أمام تخريب الروم • فان الوندال مكثوا أكثر من قرن ولم يبلغوا في التخريب وقتل الانفس ما بلغه الروم في عشرين عاما •

والخلاصة ان الحياة الاجتماعية بالجزائر على عهد الروم بلغت من الانحطاط والتقهقر والشقاء ما لم تبلغه في دور من أدوار تاريخها •

10 ــ السلطة الرومية وانقراضها من الجزائر

قال اغسال : « السلطة البيزنطية بافريقية غير معلومة • وانما توجد قوانين تذكر مستعمرين ومستعبدين عائشين ببعض الاراضي • وكبار ملاكي الرومان الذين ضعفوا في دور الوندال نجهل ان تكون أملاكهم عادت اليهم في هذا الدور • والظاهر عدم عودها » •

والذي جعل السلطة الرومية غامضة هو ضعفها • ولعلك لا تتوقف

بعد قراءة ما تقدم في الحكم بضعفها منذ نشأتها في المهد الى حين وضعها في اللحد • ومنشأ ضعفها أولا بعدها عن مركز الامبراطورية • ذلك البعد الذي جعل الاباطرة لا يستطيعون امدادها بالقوة ، والذي جرأ الولاة على الجور والاستبداد • وثانيا مقاومة البربر لها من غير انقطاع وفوزهم عليها في كثير من البقاع •

ولم يأت من الولاة من هو ذو قيمة ادارية وحربية غير اربعة :

1 — بليسير • وغاية عمله انه قضى على الوندال •

2 — سليمان • وغاية عمله انه فتح أوراس ووسع حكومة الروم بالجزائر وشاد البناءات • ثم مات مصطليا بنار الثورة • وعاد توسعه في وطن الجزائر ضررا على الروم لان البربر لم ينفكوا يهاجمونهم •

3 — يوحنا طرغليطا • بقي يدير حكومة الروم عشرين سنة لم يجن فيها غير اخضاع أتتلاس •

4 — جناديوس • وهذا استرجع بعض المدن التي افتكها البربر من الروم • ولكن البربر حاصروه سنة (97) بقرطاجنة • ولم ينج من الحصار الا بطلب الصلح منهم ثم غدر بهم •

ومع ضعف سلطان الروم وضيق نطاق نفوذهم وعدم كفاية ولاتهم واخلاصهم كانوا مشتدين على من تحت سلطانهم من البربر • قال بيروني : « ومن المحقق ان الولاة البيزنطيين كانوا قساة اصحاب طمع » •

ولقد زاد في ضعف السلطة الرومية بالجزائر ضعف مركز الامبراطورية • فقد توفي يستنيان سنة (565) وخلفه اباطرة ليست لهم عظمته وشغلوا عن افريقية بحروب الفرس وغيرهم • وفي سنة (602) دخل فوقاص القسطنطينية بجنود من الدنوب • وقتل الامبراطور موريس • وانتصب مكانه •

وفي هذا الحين كان الوالي بافريقية يدعى جرجير (GREGOIRE) وقائد الجيش يدعى هرقل • فثار القائـد على فوقاص سنة (608) وقطع عنه القمح الذي كانت العاصمة تستورده من افريقية • فخاطبه البيزنطيون في الانتقال الى القسطنطينية على ان يعينوه على استلام العرش من يد غاصبه • وكان كبير السن • فاجابهم على ان يوجه ابنه مكانه • ونافسه جرجير • فأرسل كلاهما ولده المسمى باسمه • وبما أن هرقل هو قائد الجيوش كان الاسطول تحت قبضته • فسير ابنه بحرا • وسير جرجير ابنه برا • فسبق هرقل بن هرقل • وقتل فوقاص • وجلس على العرش • ولما خاب جرجير فيما كان يأمله من تبوأ عرش القسطنطينية أعلن انفصال افريقية عنها ، واستقل بها • وجعل عاصمته سبيطلة •

بقي جرجير على رأس هاته الدولة التي لم تكن لها قوة وهي مرتبطة بالامبراطورية فكيف تحصل لها وهي مستقلة عنها وفي غير وطنها •

وفي سنة (647) هجم العرب على هذه الدويلة • فقضوا عليها لاول هجومهم • وقتلوا جرجير • واحتلوا عاصمته • ومن ذلك الحين انقرضت السلطة الرومية من الشمال الافريقي بعد ما لبثت (113) سنة •

كان انقراضها بهذه السهولة لانها لم تكن ثابتة الاركان ، فقد سبق أنها عاشت في حروب واضطرابات • وان سلطة هذه حالها لا تلفت النظر الى ما تركته من علوم وصنائع وفنون وأنظمة وعمران • بل انها لا تترك الا ما يناسبها من جهل وفوضى • فلم ينتج عنها غير خراب الاذهان والاوطان •

والخلاصة ان البربر عادوا في العصر الرومي الى حياة الوحشية والهمجية تحت رؤساء لا دراية لهم بغير الحرب والسلب •

ولعل الروم لو كانوا في هذا العصر لقالوا : اننا جئنا لننقذ البربر من الهمجية وننشر بينهم المدنية اللطينية • ولئن سألناهم عما بلغ اليه البربر من الوحشية والفوضى بعد قرن لاجابونا بأن البربري وحشي الاخلاق ثوري بطبعه • لا يقبل التعليم ولا يحسن النقل عن جاره الرومي • ولعلهم ينقطعون عن الجواب اذا قلنا لهم : هذه الامة قد أحسنت النقل عن الفينيقيين • فبلغت بذلك أوج العز • وشادت دولا عظمى • وبعد مدة من القرون نقول لهم أيضا : ها هي تلك الامة قد استفادت من العرب • وأحسنت النقل عنهم • وعاد لها عزها • فشادت ممالك عظمى كما شادتها من قبل •



مدوروش

فهرست

صفحة

الباب السابع – في ذكرى الوندال ومدة امرهم

صفحة

الباب الثامن – في ذكرى البربر

انتـــــاج

دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban